الدكتورة عائشة عبد الرحمن
"بنت الشاطئ"

لغتنا والحياة

دار المعارف

لغتنا والحياة

مما يشغل بالنا من القضايا الحيوية فى عصرنا : لغتنا والحياة ، فهى أداة نطقنا وتفكيرنا ، ولسان قوميتنا ، ووسيلة ثقافتنا ، والتعبير عن إنسانيتنا ، وهى التى تصلنا بتراث الأسلاف وتاريخ الأمة . وإنه ليعنينا النظر فى لغتنا من حيث صلتها الحتمية بالحياة ، والتعرض للقضايا اللغوية التى تواجهنا فى وجودنا المعاصر .

والدكتورة بنت الشاطئ تعرض فى هذا الكتاب مجموعة من القضايا التى تهم كل باحث غيور على لغته ، فهى تعرض لمشكلات : العامية والفصحى ، والعربية وعلوم العصر ، والأدب الشعبى بين العامية والفصحى ، وغير ذلك من المباحث اللغوية المفيدة التى يتجلى فيها عمق البحث العلمى ، وحسن العرض الأدبى .

لغتنا والحياة

لغتنا والحياة

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
« بنت الشاطئ »

أستاذ الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث
جامعة القرويين : المغرب

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أستاذنا الإمام

أمين الخولى

فى قلوبنا ، وضمائرنا ، وعقولنا

عائشة

مصر الجديدة : مارس ١٩٦٩

المغرب { مايو ١٩٧١ / ربيع الأول ١٣٩١ }

تمهيد

هذه المحاضرات° ليست إلا إضافة يسيرة إلى جهود سابقة لأساتذة جيلنا ، ممن اشتغلوا بالدراسات اللغوية وتركوا لنا ثمار جهودهم السخية مناراً على الطريق .

وهؤلاء ، وآخرون معهم من المستشرقين . انطلقوا بالبحث اللغوى من حيث انتهت خطوات الذين سبقوهم من علماء السلف[1] .

والشوط الذى قطعه هؤلاء العلماء من قدامى ومحدثين ، قد عبَّد الطريق لمن يأتى بعدهم ، بحيث لايبدأ أحدنا خطوة على الدرب ، دون الإفادة من بحوثهم والتزود منها لما هو بسبيل إلى درسه .

وهذا الوضع ، يلقى عليكم عبء الاطلاع على ما قدموه ،قبل أن تمضوا معى فى خطوتى على الطريق . ولا أرانى أشق عليكم بمثل هذا فأنتم عندى أهل له . ولا أراكم تؤثرون أن أمهد لمحاضراتى بتلخيص هذه الكتب العربية ، فما يحل لأستاذ أن يحرم طلابه متعة البذل والمعاناة ، ويجور على حقهم فى أن يستقلوا بالعمل حين تتيسر لهم أدواته ووسائله ، فينفرد بالاتصال بمصادر ومراجع يلخصها لهم ، حين تكون قريبة منهم يصلون إليها ، ويطالعونها فى أصولها غير مبتورة بتلخيص وإيجاز .

وفى مكتبة معهدكم بحوث مطبوعة لعددٍ من أساتذتنا الذين حاضروا أفواجاً من زملائكم ،فى البحوث اللغوية. ويتصل منها بموضوعنا من قرب ،محاضرات « الأستاذ مصطفى الشهابى » فى : المصطلحات العلمية فى اللغة العربية— ١٩٥٥ .

° ألقيت هذه المحاضرات على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٦٩ .

(١) جمع السيوطى قدراً هاماً من آثار لغويى السلف ، فى كتابه (المزهر فى علوم اللغة) . وقد استخلص منه « جورجى زيدان » مادة كتابيه (الفلسفة اللغوية ، واللغة كائن حى) مع إضافة من دراسات اللغويين الغربيين ، فى القرن الماضى .

وفيه دراسة مستوعبة لموقف لغتنا من المصطلحات العلمية فى القديم والحديث.

محاضرات الأستاذ « الدكتور إبراهيم أنيس » فى : مستقبل اللغة العربية المشتركة — ١٩٦٠ . وفيه معالجة حرة، لقضية من أعقد قضايانا اللغوية المعاصرة .

محاضرات « الأستاذ أمين الخولى » فى : مشكلات حياتنا اللغوية — ١٩٦٤ .

وقد عالج فيه قضية التطور اللغوى فى المرحلة التى سبقت استقرار العربية على النحو المعروف لنا من القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وهى مرحلة شاقة يوغل قديمها فى عصور غابرة ، وتتوارد عليها مرويات وأقوال متناقضة متدافعة ، تختلف فى أصل اللغة هل كان توقيفيـًّا أو بوضع ؟ ثم تختلف فى تقديرها : هل بلغت غاية الكمال منذ عُرفت فى القديم ، أو أن شأنها كان شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى فى خضوعها لقوانين الحياة وسنن التطور ؟ ثم تختلف بعد ذلك فى حرمتها التى أضفاها عليها نزول القرآن الكريم بها ، هل يجب الوقوف بها حيث عرفها عصر المبعث ، أو تساير الزمن مستجيبة لمقتضيات الحياة ؟

وغير بعيد منكم ، فى دور الكتب العربية ، بحوث أخرى قيمة ، تتصل بموضوعنا ، أذكر منها :

« مقدمة لدرس لغة العرب » للشيخ عبد الله العلايلى .

« إحياء النحو » للأستاذ إبراهيم مصطفى

« نحو التيسير » للدكتور أحمد عبد الستار الجوارى .

« التطور النحوى للغة العربية » للمستشرق برجشتراسر .

ولسنا على أى حال نعرض للبحث من الناحية الموضوعية اللغوية التى وطأها لنا هؤلاء الدارسون ، وإنما الذى يعنينا هو النظر فى لغتنا من حيث صلتها الحتمية بالحياة ، والتعرض للقضايا اللغوية التى تواجهنا فى وجودنا المعاصر .

وما قد نعرض له فى هذه المحاضرات ، مما يتصل بماضى حياتنا اللغوية ، ليس إلا نظرة تاريخية تتابع سير الحياة بهذه اللغة .

والحق أن الدراسة اللغوية فى أى مجال ، لا تفقد صفة المعاصرة مهما يوغل الدارس فى الماضى البعيد . فلست إذن فى حاجة إلى أن ألتمس مسوِّغاً لوضع « لغتنا والحياة » بين ما نشتغل به من القضايا الحيوية لعصرنا ، إذ يظل موضوع اللغــة جديداً ما بقيت هذه العربية أداة نطقنا وتفكيرنا ، ولسان قوميتنا ، ووسيلة الثقافة والتعبير عن إنسانيتنا ، واللغة التى تصلنا بتراث أسلافنا وتاريخ أمتنا ، وبها نتفاهم ونلتقى عبر حدود الزمان والمكان .

مدخل تاريخي

عرف التاريخ شعوب هذا الوطن ، ترفض الاندماج فى كل الغزاة الذين تعاقبوا عليها ، قبل الإسلام ، على مدى ألف عام ، من فرس وروم ويونان ووندال .

ثم رآها تستجيب للإسلام عن طواعية ، فما لبثت أن تعربت واندمجت بعناصر شخصياتها القديمة وقومياتها المتعددة ، فى شخصية جامعة وقومية مشتركة .

اللغة العربية هى اللسان القومى لشعوب الوطن العربى من وادى الرافدين فى قلب الشرق الآسيوى ، إلى وادى النيل وأقطار المغرب الممتدة على طول الشمال الإفريقى إلى ساحل المحيط الأطلسى .

ومهما تختلف اللهجات المحلية لهذه الأقطار ، فإنها لاتعرف غير العربية لسان قومية ، ووسيلة تفاهم مشترك ، وأداة اتصال فكرى عبر الحدود والمسافات

ومهما يعرف التاريخ من أواصر قربى ونسب وجوار ، كانت بين أقطار هذا الوطن من قديم الزمان ، فالذى لا شك فيه هو أنها بدأت بالإسلام تاريخها المشترك وقوميتها الجامعة ولسانها الموحد .

وهذا يعنى أننا فى مدخلنا التاريخى إلى الموضوع ، نبدأ من حيث بدأت شعوب أمتنا تتعرب ، بعد أن تلقت الإسلام ديناً واعتنقته عقيدة .

غير أنا مع ذلك : نحتاج إلى لمحة سريعة من عصرما قبل الإسلام، تضىء لنا حركة التحول الحاسم الذى تم فى القرن الأول للهجرة .

° ° °

قبل الإسلام، خضعت أقطار هذا الوطن نحو ألف عام للحكم الأجنبى ، باستثناء جزيرة العرب التى اعتصمت ببواديها الجُرد ، لا مطمع فيها لغريب .

وتعاقب على شعوبنا الرومانُ والفرس واليونان ، فى أدوار تاريخية واحدة أومتقاربة ، ففرضوا عليها لغاتهم وعقائدهم وقومياتهم وأعرافهم ، ثم مضوا جميعاً ، لم يتركوا هنا قومية فارسية أو رومانية أو يونانية . وكل ما خلفوه على المدى الطويل من أثر مادى أو معنوى ، ذاب فى عناصر الشخصية الأصيلة لإنسان المنطقة ، ولم تذب تلك الشخصية قط فى أجنبى أو دخيل .

ثم جاء الإسلام ، فكان التحول الذى لا يعرف التاريخ له مثيلا :

إلى المشرق ، خرج العرب المسلمون من جزيرتهم فاتحين ، فما مضى

ربع قرن على بدء التاريخ الهجرى ، حتى كانت الشام ومصر والعراق قد انتهى تاريخها الرومانى واليونانى والفارسى ، وبدأ تاريخها الإسلامى العربى فكان لقاؤه بقديمها الأصيل الذى صمد نحو ألف عام (٣٣١ ق‌م : ٦٤٠م) للغزو الأجنبى ، وأرق الغزاة بثورات يعرفها تاريخنا القديم ، ويعطى رصيدها الضخم من الضحايا والثارات والأحقاد .

وعلى ذلك الزمن الطويل ، بقيت لغات الغزاة وثقافاتهم وعقائدهم المفروضة بالإكراه ، لغةَ دواوين وثقافة دخيلٍ وعقائد مستعمر ، يرتهن بقاؤها بما يحميها من سلطة الحكام وجبروتهم ، وتواجهها الشعوب بالتحدى الذى يتمثل فى الإصرار على التعامل بلسانها القومى خارج الحدود الرسمية ، وبالرفض الذى يتمثل فى تمسكها بعقائدها وتقاليدها وأعرافها ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . .

ومن عجب أنها ما كادت تستجيب للإسلام ، حتى نبذت كلَّ ماضيها الأجنبى المفروض ، وحملت لواء دينها الجديد داعية إليه مناضلة عنه ، مشاركة فى حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية التى بلغت أقصى المغرب .

ومن المشرق ، خرجت كتائب الفاتحين تحمل لواء الإسلام إلى أقطار المغرب . وفى هذه الكتائب عرب خُلَّص من عدنان وقحطان ، ومستعربةٌ من العراق والشام ومصر وبرقة ، اتجهوا غربا إلى إفريقية والمغرب الأقصى ، وفيها شعب قوى الشكيمة ، دوخ الغزاة وغلب عتاة الأباطرة ودهاة القادة . تتابعت عليه الجيوش الغازية فما استطاعت أن تتجاوز المنطقة الساحلية ، وكأنها كانت تجد فى قربها من البحر المتوسط شعوراً بتأمين هروبها من مصير مقرر محتوم . واعتصمت قبائل الأمازيج فى معاقلها بالجبال والريف والبوادى ، لا تدين لمستعمر ولا تخضع لسلطة أجنبية .

احتل الرومان الشمال الإفريقى بعد سقوط قرطاجنة التى دوخت الإغريق جولات مريرة ما بين عامى (٢٦٤ : ١٤٦ ق. م.) بقيادة هانيبال

وماسينيسا وأسد روبال . وقد دمر الرومان قرطاجنة التى كانت منار حضارة زاهرة امتدت إلى أسبانيا وساحل الأطلسى . وبقى الرومان فى مستعمراتهم على حافة البحر المتوسط نحو ستة قرون (١٤٦ ق م : ٤٣٩ م) فكان احتلالاً عسكرياً واقتصادياً لم يتغلغل فى الروح والفكر ولم ينفذ إلى العقيدة والضمير والوجدان . وشهد العصر الرومانى ثورات وطنية عاتية ، بقيادة باخوس الأول فى المغرب ، ويوغورطا النيوميدى الجزائرى حفيد ماسينيسا ، ثم يوغود وباخوس الثانى الذى حرر الجزائر فى عهد « أكتاف » ثم كاليجولا ، وسابال ، وفرموس الذى سحق جيوش الرومان سنة ٣٦٩ م وأعاد الحكم إلى قومه البربر . حتى جاء الوندال من سواحل البلطيق وبلاد الغال فورثوا الاستعمار الرومانى واحتلوا الشمال الإفريقى نحو قرن ، انهزموا بعده أمام ثوار البربر فى طرابلس بقيادة « أنطالاس » فمهدت هزيمتهم للغزو البيزنطى الساحق عام ٥٣٣ م ، فى عهد « الامبراطور جستنيان » وواجه البيزنطيون بدورهم مقاومة عنيفة من بربر المغرب ، خضبت الساحة الشمالية بالدماء . ثم مضى البيزنطيون كما مضى كل الغزاة من قبلهم ، لم يتركوا سوى أطلال تزار ، وبقايا آثار تحدث عن ماض انطوى واندثر .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن ما تركه الاحتلال الرومانى الذى احتل البلاد نحو ستة قرون ، لم يصمد للفتح الإسلامى . وأن اللاتينية التى بدا أنها سادت الشمال الإفريقى زماناً ، صُفِّيت فى القرن الهجرى الأول[١] .

ويقرر الواقع التاريخى ، أن العرب فى المرحلة الأولى للفتح ، لم يجابهوا خطراً ذا بال من ناحية البيزنطيين ، وإنما كانت المواجهة مع زعماء الأمازيج عشاق الحرية المعتزين بشخصيتهم وقوميتهم . وقد شهدت المرحلة الأولى مقاومة عنيفة للعرب من هؤلاء الزعماء ، فى مثل ثورة « كسيلة البربرى » وثورة « الكاهنة » [٢] فلم يكن خضوع البربر سهلا ولا كانت بلادهم غنيمة تلقاها

---

(١) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٧٥ ط السلمى بالدار البيضاء .

(٢) « « : « « ص ٨٨ وما بعدها .

العرب من أهلها فى استسلام[١]. ومع ذلك ، لم يلبث التاريخ أن شهد قبائل الأمازيج التى عصيت على الغزاة من كل جنس وملة ، تسير بعد أقل من نصف قرن من الفتح الإسلامى ، تحت لواء دينها الجديد ، فتنطلق عبر مضيق جبل طارق إلى أسبانيا فاتحة منتصرة . والجيش الذى عبر المضيق كان بقيادة « طارق بن زياد » المغربى ، فى أكثر من عشرة آلاف من قومه البربر ، وألفين من العرب . تمكن بهم « طارق » من فتح قرطبة ومالقة وغرناطة ومرسية ، ثم كانت الموقعة الحاسمة فى وادى الرطراط بين جيش طارق وجيش لذريق سنة ٩٢ هجرية ، أى بعد نحو نصف قرن من دخول « عقبة بن نافع » إفريقية ، واختطاطه مدينة القيروان أول مدينة إسلامية هناك !

نصف قرن فحسب ، كان كافياً لأن يحول مجرى التاريخ ، ويجعل من الأمازيج الأحرار الأباة البواسل ، جنوداً مجاهدين فى سبيل الإسلام .

وما يزال التاريخ فى حيرة من أمر هذا التحول الفذ الحاسم . وأكثر المؤرخين العرب ، يردونه إلى وحدة الأصل العربى لكل شعوب المنطقة من المشرق والمغرب[٢]، دون أن يفسروا لماذا لم تلتق هذه الشعوب الموحدة الأصل ، فى جبهة واحدة ضد الغزاة الذين احتلوا البلاد قروناً ، قبل الإسلام ؟

أما الغربيون ، فلم ينكروا قط ، ما كان بين الشعوب القديمة للمنطقة من صلات جوار وأواصر قربى ، لكن أكثرهم يفصلون الجنس السامى عن الجنس الحامى والآرى لشعوب المنطقة .

وينقل الدكتور مراد كامل : « أن العلماء اتفقوا على أن موطن الشعب السامى فى العصور التاريخية كان شبه الجزيرة العربية . ومنها خرجت الهجرات السامية : الأولى نحو العراق من ابتداء الألف الرابع ق.م وهى

---

(١) اللواء الركن محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب .

(٢) محمد عزة دروزة : تاريخ الجنس العربى – ط بيروت .

الأكدية ، والثانية حوالى سنة ألفين قبل الميلاد وهى الكنعانية . والثالثة حوالى سنة ألف وخمسمائة قبل الميلاد وهى الآرامية . ثم الهجرة الرابعة وهى العربية ، وتمثل أقوى الهجرات السامية ، ونحن نعرف تفاصيلها التاريخية والأسباب التى دعت إليها »[١] .

وغريب منه هذا القول باتفاق العلماء على هذا ، بعد أن صدر الفقرة التى نقلناها عنه آنفاً بما ينقض هذا الاتفاق وينفيه . قال ما نصه :

« ذهب العلماء مذاهب شتى فى المهد الأصلى للساميين فى عصور ما قبل التاريخ . وقد حاول أصحاب كل نظرية أن يأتوا بأدلة تثبت رأيهم : منها جغرافية ومنها لغوية ومنها ما يختص بالجنس ومنها ما فسروا به التوراة . فمن قائل إن مهد الساميين الأصلى بلاد أرمينية ، ومن قائل إنه شمال إفريقية ، ومن قائل إنه شبه الجزيرة العربية ، ومن قائل إنه ما بين النهرين ، ومن قائل إنه بلاد العموريين فى سوريا »[٢] .

وأحسب أنه فيما ذكر بعد ذلك ، من اتفاق العلماء على أن الجزيرة العربية كانت الموطن القديم للساميين ، متأثر بما نشره هنا ، المؤرخ اليهودى « أبو ذؤيب : إسرائيل ولفنسون » الذى كان مدرساً للغات السامية فى الجامعة المصرية (١٩٢٧ : ١٩٢٩) ، ولقد اختلطت اليهودية بالعربية فى أكثر محاضراته ، لطول ماقال بوحدة أصلهما السامى . فما تدرى حين تقرأ كتابه « تاريخ اللغات السامية »[٣] أين الحد الفاصل فى تصوره بين السامية واليهودية ، أو بين العربية والعبرية ! وقد قرر « أن الجزيرة العربية كانت وطنا مشتركاً لجميع الأمم العبرية والكنعانية ... » .

وأن « الهجرة الإسرائيلية التى فتحت بلاد فلسطين بعد أن صدرت

---

(١) من تعليقه بهامش صفحة ٢٩ ، من كتاب جرجى زيدان (اللغة العربية كائن حى) .

(٢) المرجع السابق : هامش ص ٢٨ .ط دار الهلال .

(٣) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبوعا فى مطبعة الاعتماد بالقاهرة، سنة ١٩٢٩ .

من الجزيرة العربية ، كانت سبباً لتقلبات اجتماعية ودينية كثيرة ، كبيرة الأثر فى التاريخ العام ....

وأن انتشار الكنعانيين فى بابل ، بعد أن انتشروا فى سورية وفلسطين ، كان له تأثير عظيم فى حضارة بابل « فقد أدخلوا على البلاد بعض عقائدهم كما كان للغتهم نفوذ كبير فى لغة تلك البلاد . . ولشريعة حمورابى الكنعانى قيمة تاريخية عظيمة فوق قيمتها الحقيقية ، لأنها تمثل لنا عقلية بابل وشومر من ناحية ، وتدل على الروح التى كانت للكنعانيين من ناحية أخرى ، وهى أقدم شريعة فى تاريخ التمدين البشرى »(١).

وترتبط كلمة عبرى بكلمة عربى « ارتباطاً متيناً لأنهما مشتقتان من أصل واحد وتدلان على معنى واحد »(٢).

« ولأن بنى إسرائيل جاءوا بلغتهم العبرية من الجزيرة العربية ، كانت مميزات الحياة الصحراوية بارزة جدا فى هذه اللغة ، وقد توارث الإسرائيليون هذه المميزات إلى أن استوطنوا فلسطين ، فلم يكونوا يستنكرون على الأدب أن يستعمل التشبيهات الصحراوية والخيال البدوى »(٣) .

والحق أن « إسرائيل ولفنسون » لم يبتدع هذه الأقوال ، فقد سبقه عدد من متعصبى المستشرقين ، إلى مثل ما قاله أو قريب منه . فالمستشرق مرجوليوث ، يذهب إلى « أن الوطن الأصلى لبنى إسرائيل كان ببلاد اليمن » ويلتقط بعض ألفاظ مشتركة فى العبرية والسبئية ، وبعض عادات وأخلاق دينية ، قال إنها متشابهة عند أهل سبأ وبنى إسرائيل(٤) .

---

(١) يصرح ولفنسون بأنه ، فى رده إلى الكنعانيين أعرق حضارة للشرق الأسيوى ، يفترض أن اسم حمورنى مشتق من لفظ عمو ربى ، وهو تركيب مزجى معناه كمعنى اللفظ العبرى «الله ربى» وقد وجد اسم الملك عمرى الإسرائيلى فى الخطوط المسمارية يكتب : حمرى ! ص ٢٦ من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٢ : ٣) المرجع نفسه ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) Margolioth : Dir Israeliten zu Mekka, p. 10.

ولمح « دوزى » مثل هذه الملامح المتشابهة بين اليهود وقريش ! ، فادعى « أن مكة وعمرانها الوثنى وتقدم قبائلها فى الجاهلية على غيرهم من قبائل العرب ، إنما جاء إليها من بطون شمعونية إسرائيلية [١] ».

وأبو ذؤيب يناقش مثل هذه الأقوال ، فى لهجة المؤرخ المحقق ، ثم لا يلبث أن يمضى إلى أبعد منها وأغرب ، على ما نقلنا آنفاً من كتابه « تاريخ اللغات السامية » .

* * *

وحين نلتمس المسارب الأولى لفكرة السامية ، لغة وجنساً : نجدها خرجت أول ما خرجت من علماء يهود الأندلس فى العصور الوسطى : كانوا أول من ظهر بهذه العلاقة بين الأمم السامية . ثم جاء « شلوتسر » فكان أول مؤرخ غربى استعمل اصطلاح السامية فى بحوثه وتحقيقاته التى نشرها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وقد استخلص هذه التسمية مما جاء فى التوراة (الإصحاح العاشر من سفر التكوين) عن أولاد بنى نوح : سام وحام ويافث ، ومَن ولد لكل منهم بعد الطوفان .

ومن ذلك الحين راجت فكرة تقسيم أصول الجنس البشرى إلى سامية وحامية وآرية . فى دراسات المستشرقين من اللغويين وعلماء الأجناس .

وهى دراسات جادة أعطت الفكرة صبغة محترمة وأقامت عليها عدة بحوث علمية ، لها تقديرها وقيمتها . ونقلها الناقلون منا من حيث انتهت إليه فى البيئة العلمية ، دون نظر إلى وهن الأساس الذى قامت عليه ، حتى صارت من البديهيات التى لاتحتمل مناقشة أو جدلا . وقد حملوها على محمل الحقائق التاريخية والنظريات العلمية ، فكان أن ألقت على جنسنا العربى كل أوزار اليهود وجرائمهم التى ضجت البشرية منها على امتداد الزمان والمكان .

هل يبدو هذا الوقوف عند السامية . بعيداً عن موضوعنا ؟ الواقع أننى أردت أن ألفتكم إلى ماينبغى من حذر فى تلقى ما راج من نظريات

---

(١) Dozy : Relations between Arabs and Israelites.

ودعاوى تلقاها الدارسون منا مسلَّمين ، ثم لم يلبثوا أن تعصبوا لها وتصدوا لترويجها وتأييدها وترسيخها .

وفكرة السامية لو أنها وقفت عند الدراسة العلمية لشعوب المنطقة ، فى التاريخ المعروف جنساً ولغة ، لما كان منها بأس علينا ، أما أن توغل الفكرة فى غيابات ما قبل التاريخ وتوجَّه لخدمة غرض بعينه ، فذلك ما يرفضه العلم .

وإذا كان يجذبنا إلى السامية أنها ترد شعوبنا إلى أصل واحد ، فينبغى ألا يفوتنا أنها كذلك قد جنت على تاريخنا بمثل هذه الدعاوى المرسلة ، وألقت على أصولنا ظلا يهودياً تنكره دماؤنا التى لو سيطت بدم يهودى ، تزايلن حتى ما يمس دما !

ولست أدرى فى الواقع ، فيم تعلقنا بهذه الفروض التى أُقحمت على مناخنا الفكرى الحديث ، عن رغبة طيبة فى إثبات وحدة شعوبنا من عصر ما قبل التاريخ : فالقول بوحدة أصول ثلاثة للبشر ، عند سام وحام ويافث ، لا يستحق كل هذا الجهد المبذول . إذ ليس بين أبناء نوح الثلاثة وبين أبيهم ، إلا جيل واحد تلتقى عنده كل هذه السلالات التى وزعوا البشرية عليها ، فما هو إلا أن نرجع بسام وحام ويافث إلى أبيهم نوح ، حتى تجتمع كل هذه الأجناس فى أب واحد ! .

على كل حال ، لا أقصد من هذه الإشارة إلى السامية ، أن تتجهوا إلى رفض الدراسات العلمية التى أقيمت عليها ، لأنكم إن فعلتم ، وقعتم فيما أحذركم منه ، من التورط فى التسليم بفكرة أو رأى دون نظر أو تأمل ؛ وكرامتكم العقلية ، تفرض عليكم ألا تسلموا عقولكم إلى مايبدو من البديهيات ، وألا تتابعوا تياراً فكرياً دون أن يكون لكم رأى فيه ، بعد تتبع مصدره ومجراه ، وطول التأمل فى البراهين والأدلة التى سيقت لتأييده .

وسترون فيما نعالج من أزمتنا اللغوية ، أنها ما تعقدت إلا بما رسخ فى فكرنا الحديث من دعاوى حُملت على محمل الحقائق العلمية ، وأقحمت على

على وجودنا اللغوى والقومى فسايرناها ، فما لبثت أن رسخت وأخذت صورة البديهات أوالحقائق العلمية .

حسبنا أن نكتفى بالمعروف من تاريخنا ، فننتفع بالدراسات التى نظرت فى لغات المنطقة العربية ، وتتبعت ما بينها من صلات ، وأن نتدبر الواقع التاريخى الذى وعى أن أقطار هذا الوطن العربى قد خضعت على مسار الزمن لأحداث تاريخية متماثلة ، وارتبطت بوحدة وجود ومصير ،ورفضت جميعاً أن تندمج فى الدول التى طرأت عليها واحتلتها نحو ألف عام قبل الإسلام، ثم مضت وكأنها لم تكن هناك .

والتاريخ قد يفسر هذه الظاهرة ، بأن شعوب المنطقة كان بينها تقارب فى المزاج والعقلية ، أثراً للروابط التى قامت على الجوار والقربى والتبادل التجارى والفكرى .

ومع كل هذه الروابط والصلات ، ومع تماثل الأحداث التاريخية لشعوب المنطقة ، كانت هناك قوميات خاصة ، مصرية وفينيقية وبربرية وعربية وفارسية ، بينها حدود قائمة معروفة .

ثم لما جاء الإسلام وترك لها حرية العقيدة ، لم تلبث أن انضوت تحت لوائه ، وبدأت تتعرب من الجيل الأول بعد الفتح .

وامتزجت الدماء بالنسب والمصاهرة والقربى ، وانصهرت الأمزجة والعقليات فى شخصية جامعة . واندمجت العناصر والأجناس فى قومية مشتركة .

* * *

والتاريخ لا يجد تفسيراً لهذا التحول الحاسم ، سوى أن هذه الشعوب آمنت عن عقيدة وأسلمت عن طواعية ، بعد أن أرهقتها محاولات الإكراه على التخلى عن موروث عقائدها وقومياتها وتقاليدها ، وشهدت فترة ما قبل الإسلام اضطهاداً مريراً من السلطات الحاكمة ، لفرض عقائدها ولغاتها وتقاليدها . كان رد الفعل الطبيعى له ، أن واجهته الشعوب بالإصرار

على الرفض ، مدفوعة بالتحدى عن حدس الدفاع عن الذات . فلم يكن التحول انتقالاً من حكم الرومان والفرس واليونان إلى حكم العرب ، وإنما كان استجابة باهرة لعقيدة اقتنعوا بها . وقد وجدت الضمائر التى ظلت بمعزل عن تيارات الغزو ، ما تستريح إليه فى دين الفطرة المصدق لما بين يديه من الرسالات الدينية . وكان المبدأ الإسلامى فى إقرار حرية العقيدة وحظر الإكراه فى الدين ، هو الذى أطلقهم من موقف التحدى والرفض ، إذ ترك لهم فرصة الاختيار وحق التفكير دون قسر أو إرغام ، وهيأ لهم الفتح لدين يحترم حرية العبادة ويكفل للإنسان حقوق إنسانيته .

وثابت تاريخياً أن الصراع المذهبى الدينى بين روما ومصر قد وصل قبل الإسلام إلى حافة الحرب ، ثم إلى عزلة صارمة من رجال الدين المصريين الذين لاذوا بأديرتهم فى الصعيد وصحراء سينا ، رفضاً لسياسة روما فى فرض مذهبها الدينى على الشعب المصرى بالقسر والإكراه والاضطهاد . . .

وثابتٌ تاريخياً كذلك ، أن الرومان الذين حملوا المسيحية إلى الشمال الإفريقى ، عجزوا عن القضاء على الوثنية ، فظلت الآلهة المعبودة موضع تقديس ، وبقى لكهنة « بعل دوخ » بوجه خاص ، نفوذ مسيطر دفع الحكام الرومان إلى مطاردتهم وصلبهم فى القرن الثانى للميلاد . وإلى القرنين الرابع والخامس ، كانت المسيحية ما تزال تلقى مقاومة عنيفة من الوثنية ، بل إن الإسلام حين دخل المغرب . وجد الوثنية فى جبال الريف وغمارة . ولا شك فى أن الصراع المذهبى للطوائف المسيحية قد قوّى نفوذ الكهنة ، الذين لبثوا يمارسون سلطانهم العتيد على القبائل إلى المرحلة الأولى من الفتح الإسلامى ، فكانوا هم الذين تصدوا لمقاومة الكتائب الوافدة من الشرق ، إلى أن استقر الإسلام فى المنطقة ، وتتابعت القرون فلم تزده إلا رسوخاً وثباتاً ...

* * *

والسودان وإن تأخر دخوله رسمياً فى الدولة الإسلامية إلى القرن العاشر

الهجرى ، لم يلبث طويلا حتى غلب عليه المناخ الدينى ، وتوهجت نار القرآن فى البوادى والنجوع ، وازدهر التصوف تأثراً بطبيعة البيئة ومزاج الإقليم ، فكان لمشايخ الطرق سلطان لا يدانيه سلطان الملوك والحكام . . .

ومنذ دخل الإسلام هذا القطر الشقيق ، أخذ لواء القيادة للأحداث ؛ فكان العاملُ الدينى هو الموجه الأكبر لتاريخه شعباً ودولة .

وفى كل هذا ، لم يكن اتصال الشخصية الإسلامية العربية بالماضى الأجنبى القريب المرفوض من هذه الشعوب ، وإنما كان الاتصال بماضيها الأصيل العريق عبر فجوة من الزمن مداها ألف عام ، رفضت فيه قومياتِ الغزاة وثقافاتهم وعقائدهم ، إلا القدر القليل الذى فرضه طول المدى وأساغته شعوب المنطقة ، فتمثلتْه بروحها ومزاجها . وأقرب مثل لذلك مدرسة الإسكندرية التى هاجر إليها الفكر اليونانى بعد انطفائه فى أثينا ، فلم تقبله كما هو ، ولم تأخذه نقلا ، وإنما أعطته روح الشرق ومزاجه وصفاءه فصيرته هيلنيسيا بعد أن كان هيلينيًّا [1] .

* * *

ومن قصور الإدراك ، أن نتصور أن الشخصية الجديدة للأمة الإسلامية العربية ، هى نفس الشخصية العربية التى خرجت من الجزيرة العربية مع كتائب الفتح ، بكل ملامحها وسماتها وألوانها وظلالها وميراثها . فليس من طبيعة الأشياء أن تتعرض شخصية العربى لكل التيارات الجديدة الطارئة دون أن تنفعل بها .

كما ليس من المنطق أيضاً ، أن تتلقى الشعوب المتعربة جديدَها الوافد وقد انقطع كل ما يربطها بقديمها العريق الذى ناضلت عنه ضد كل الغزاة الذين تسلطوا عليها قرونا قبل الإسلام ، فرفضت أن تندمج فيهم أو تسالمهم .

---

(١) نجيب بلدى : مدرسة الإسكندرية .

بتلر : فتح العرب لمصر – ص ٥٥ وما بعدها ، الترجمة العربية لفريد أبو حديد ط ١٩٤٦ .

وإنما الصحيح هو أن شعوب المنطقة حملت معها تراثها الفكرى والحضارى ، واندمجت به فى جديدها الإسلامى العربى ؛ فنشأ عن الامتزاج والانصهار شخصية إسلامية الجوهر عربية اللسان ، وصبت كل الروافد فى المجرى المشترك لأمة موحدة ، مع ظواهر مميزة لكل قطر منها ، جاءت من طبيعة البيئة والسلالة ، والميراث المادى والمعنوى . .

* * * *

من هنا لا نرى وجهاً لما كثر فيه الجدل على قوميتنا بين أصولها القديمة ، فرعونية أو بربرية أو فينيقية أو أشورية وبابلية أو زنجية ، سامية أو حامية أو آرية ، وبين قوميتها الجامعة الموحدة ، منذ أربعة عشر قرناً .

وهو جدل تورط فيه عدد من المؤرخين الغربيين ، فتعثر منطقهم . مثل « جوستاف لوبون » الذى قال فى كتابه حضارة العرب :

« وسوف ترى أن المصريين الذين تمردوا على حضارة الفرس والإغريق والرومان ولغاتهم ، انتحلوا لغة العرب ودينهم وتمدينهم (؟!) وأن مصر غدت بذلك أشد البلاد التى دخلت فى دين محمد عروبة . وأنه مع كثرة توالد المصريين والعرب الفاتحين وظهور مثال جديد اختلف عن الأصل بعد جيلين أو ثلاثة ، أدى تفوق نسبة المصريين العددية ، من حيث النتيجة ، إلى تقلص أثر الدم العربى فى المصريين ، وأن الفلاح المصرى العتيد : العربى بدينه ولغته ؛ رجع ابناً لقدماء المصريين وصورة حية لهم ! »[1] .

وذلك عجيب من خلل المنطق وفحش الخطأ : يرفضه قانون الحياة وتأباه سنن الاجتماع . بل يرفضه المنطق الفطرى الذى لا يمكن أن يتصور أن كائناً بشرياً يحيا قروناً ، دون أن يتأثر بدماء اختلطت بدمه ، ولغة أعطته ذوقها ومزاجها وحسها : ودين اعتنقه وآمن به .

---

(١) ص ٨٠ وما بعدها ، من الترجمة العربية لعادل زعيتر – ط ٢ حلبى .

ولست أدرى فيم الجدل فى قوميتنا وقد مضى على عروبتنا الصريحة المشتركة أربعة عشر قرناً ، ولا أحد يسأل الأمريكيين اليوم عن أنسابهم القريبة الموزعة بين شتى الجنسيات والقوميات وأخلاط السلالات . ؟!

وقد انساق عدد من الكتاب العرب وراء هذا المنطق الشاذ ، فمضى بعضهم يجحد ماضينا كله ، ومضى آخرون منهم يجحدون واقعنا الحى ليردونا إلى أصول متناهية فى القدم .

ولهم جميعاً نقول : الجيل الأول بعد الفتح مباشرة ، امتزجت فيه الدماء العربية بالدماء الموروثة ، مهما يختلف عليها علماء الأجناس والسلالات . ثم تتابعت الأجيال والتعرب يزداد عمقاً ورسوخاً وتأصلا ، وعناصر الشخصية القومية لشعوب الوطن العربى الإسلامى تنصهر فى بوتقة البيئة ، المادية والمعنوية ، بحيث يتعذر على أدق جهاز علمى أن يميز ما فى عروقنا من الدم العربى الصريح أو الدم القديم الموروث .

وأيًّا ما تختلف أصولنا القديمة ، فنحن عرب مستعربة ، رسخت فينا العربية على تتابع أجيال طوال ، منذ أظلنا لواء الإسلام وجمعنا أمة واحدة .

مدخل لغوى

فى العصر الجاهلى ، كانت مخالطة لغوية بين قبائل العرب وشعوب المنطقة .

لكن حركة الفتوح الكبرى ، كانت المنطلق إلى الوحدة اللغوية ، فى اللسان المشترك لشعوب هذا الوطن الواحد ، منذ هجرت ألسنتها الأولى إلى لغة القرآن الكريم ، كتاب دينها .

وفى اللغة بوجه خاص ، نعرف أنه قد كان هناك اتصال لغوى قديم بين العربية ولغات الشعوب التى تعربت بعد الإسلام .

ولسنا نوغل بهذا القديم إلى الأصول البعيدة لما يُعرف باللغات السامية والحامية والآرية ، وإنما حسبنا أن نشير إلى المعروف من صلات العربية باللغات التى خالطتها فى الجاهلية[1] .

* * *

كانت الإمارتان العربيتان فى الحيرة والشام : على اتصال سياسى وحضارى وثقافى بالفرس والروم . ومعروف من تاريخ الأدب الجاهلى — وهو من أهم المصادر اللغوية للفصحى — أن أمراء المناذرة والغساسنة كان لهم شعراء عرب مختصون بهم ، وإلى هؤلاء الأمراء كانت رحلة الشعراء من الجزيرة العربية ، فمنهم من كانوا يؤثرون المقام فى بلاط الأمراء كالنابغة الذبيانى ، ومنهم من كان يكتفى بالوفود على الحيرة وغسان ابتغاء الصلة كالأعشى ، أو لعرض

---

(١) يركز المؤرخ اليهودى «إسرائيل ولفنسون» فى محاضراته بالجامعة المصرية عن (تاريخ اللغات السامية) كل اهتمامه فى تتبع أثر العبرية فى لغات العالم القديم الذى تعربت شعوبه وتعرب لسانه بعد الإسلام . والفكرة تبدو مسيطرة عليه تماماً ، على رغم محاولاته الملتوية فى مناقشة بعض آراء اللغويين من المستشرقين ، لإضفاء روح العلم والنزاهة ، على ما يثبت من فكرته .

وقد نقلنا فى المدخل التاريخى ،كيف انطلق ولفنسون من فكرة السامية—التى بذرها يهود العصور الوسطى فى الحقل اللغوى والسلالى لشعوب المنطقة—إلى حد ادعاء أن جزيرة العرب كانت الموطن الأصلى لليهود ، وأنهم هاجروا منها بلغتهم العبرية وأحدثت هجرتهم أثراً بعيداً فى التاريخ العام .

وهو يضيف إلى هذا كله ، أن الكنعانيين كان لهم التأثير الهام على العالم المتمدين، علمياً وصناعياً ودينياً (ص٥٣) وأن الكنعانية والعبرية ليستا فى الحقيقة سوى لغة واحدة (ص٥٥) وقد انقسمت جموعهم إلى كتلتين كونت الأولى منهما الممالك الكنعانية فى سورية، وكونت ثانيتهما دول الكنعانيين ومستعمراتهم فى جزر البحر الأبيض وفى شمال إفريقية (ص ٥٥) .

ومنطقه فى كل هذا، يقوم على دعاوى وفروض لا تحتمل مناقشة علمية ولا تثبت لنظرة تاريخية فاحصة .

قضايا قبائلهم كالحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم ، ومنهم من كانت الظروف تسعى به إلى الأمراء ، كطرفة بن العبد .

وهؤلاء الذين ذكرناهم ، على سبيل المثال ، معدودون من فحول الشعراء الجاهليين . وكلهم من أصحاب المعلقات ، وقد كانت دواوينهم من المصادر الأولى لجمع معجم ألفاظ العربية ووضع قواعدها فى النحو والصرف والعروض والبلاغة .

وعن هذا الطريق ، اتصلت عربية الجزيرة بلغات الشام والعراق ، وقد صارا بعد الإسلام ، من أكبر أقطار الوطن العربى .

وعرب الحجاز ، وفيهم لغة قريش ، كانوا على اتصال موسمى بالشعوب المجاورة جنوباً وشمالا فى رحلتى الشتاء والصيف ، وبمصر والسودان عن طريق سينا والبحر الأحمر . كما كان لعرب الجنوب صلاتهم التجارية ومخالطتهم اللغوية للشعوب الواقعة على الساحل الشرقى والشمالى لإفريقية . والساحل الجنوبى لآسيا ، عبر البحر الأحمر وخليج عدن وبحر العرب المفضى إلى بحر الهند .

ثم كان هناك بين قبائل العرب نفسها ، اتصال حيوى مستمر ، لعل أقواه ما كان فى الحجاز حيث العاصمة الدينية والاقتصادية والأدبية الكبرى لبلاد العرب ، وملتقى قبائلهم فى مواسم الحج التى كانت فى الوقت نفسه مواسم تجارية وأدبية .

ولا أحاول هنا أن أتتبع أسماء الذين ذكرت مصادرنا التاريخية للعصر الجاهلى أنهم كانوا يعرفون إلى جانب لغتهم العربية لغة أو أكثر من لغات الشعوب التى كان لها بالجزيرة العربية اتصال ، إذ مهما يكن عدد هؤلاء فإن كتب التاريخ لا تذكر عادة إلا ذوى الشهرة منهم كالشعراء والمترجمين الرسميين كعدى بن زيد ولقيط بن معمر ، ومن اشتهروا بالقراءة فى الكتب الدينية كورقة بن نوفل ، أو اكتتبوا قصص الشعوب وأساطيرها مثل سويد بن الصامت [1] .

---

(١) أخبارهم مبسوطة فى (السيرة النبوية لابن هشام وتاريخ الطبرى ، عصر المبعث) واقرأ الدكتور ناصر الدين الأسد فى (مصادر الشعر الجاهلى) ص ٤١ وما بعدها .

وكذلك الأمر فى عصر المبعث ، قبل حركة الفتوح : تقتصر كتب التاريخ عادة على ذكر ذوى المكانة ، مثل كُتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين كانوا يكتبون له إلى الملوك ويترجمون رسائلهم من اللغات الفارسية أو القبطية أو الحبشية ، وتجد أسماءهم فى (التنبيه والإشراف) للمسعودى .

فالذى لاشك فيه ، أن المسألة فى هذا لم تقف عند حالات فردية لأشخاص معروفين بأسمائهم، بل تجاوزتها إلى النطاق العام، فكان هناك عرب غير هؤلاء يعرفون لغة أو أخرى من لغات الشعوب التى كانوا يتعاملون معها ، كما كان هناك من أهل هذه الشعوب من يعرفون العربية .

ثم كانت هناك مخالطة لغوية بين هذه الألسن ، تأخذ طريقها من حيث يريد أهلها أو لا يريدون، وترون أثرها فيما دخل معجمَ العربية القديم ، من ألفاظ دخيلة أو معربة ، حاول بعض علماء العربية استقصاءها وردها إلى أصولها من لغات غير العرب ، كأبى منصور الجواليقى فى (المعرب) والشهاب الخفاجى فى (شفاء الغليل فيما فى ألفاظ العربية من الدخيل) وجلال الدين السيوطى فى الباب الذى عقده فى (المزهر) لما أخذت العربية من اللغات الفارسية والسريانية والعبرية والرومية والحبشية والقبطية .

ونقول هنا أيضاً ، إن الأمر لا يقتصر على ألفاظ بعينها يمكن تحديدها وحصرها ، وإنما كانت مناطقُ اتصال العرب بالأمم المجاورة ، مجالا لتأثير لغوى عام ، يكفى دليلا عليه ما نقرأ من حرص علماء اللغة ، فيما جمعوا من شواهد الفصحى ، على أن يتحاشوا قدر الإمكان ، الاستشهادَ بالمروى من شعر قبائل معينة ، لمخالطتها أمماً أخرى . وقد ذكرها « ابن جنى » فى (الخصائص) و« السيوطى » فى (المزهر)[١] وعدوا منها بوجه خاص :

— لخم وجذام : لمجاورتهم أهل مصر والقبط .

— الحيرة : لمخالطتهم أهل فارس .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ سعيد الأفغانى فى (الاستشهاد فى اللغة) ط دمشق .

قضاعة وغسان وإياد : لمجاورتهم أهل الشام .

تغلب : كانوا بالجزيرة مجاورين للروم .

بكر : لمجاورتهم للقبط والفرس .

عبد القيس وأزدعمان : كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس .

اليمن : لمخالطتهم للهند والحبشة .

كما حاول علماء اللغة فى عصر التدوين أن يتجنبوا «بنى حنيفة ، وسكان اليمامة ، وأهل الطائف وحاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب ؛ قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم »(١) .

والمحاولة وحدها تكشف عن مدى المخالطة اللغوية وما تركت من أثر فى القبائل العربية الصميمة .

ومهما يكن من جدوى هذه المحاولة التى شهدها عصر التدوين ، فالذى لا شك فيه هو أنها ما كانت لتستطيع أن تُحكِم الحصارَ على الحياة اللغوية بعد الذى كان من قديم مجاورة ومخالطة . والحياة اللغوية لم تكن محكومة بهؤلاء اللغويين فحسب ، وإنما كانت تحكمها قبل كل شىء ، عوامل اجتماعية واقتصادية ودينية ، لم يفلت منها فصحاء العرب فى المناطق المعتمدة من اللغويين ، إن لم يكن بطريق مباشرة ، فعن طريق الاتصال بالقبائل العربية التى خالطت الأمم المجاورة .

وحركة التدوين نفسها ، لم تصبر على قيود علماء اللغة الأقدمين لحصر مناطق الرواية والاستشهاد فى قبائل معينة . فالطبقة الأولى من الرواة الذين جمعوا تراث العربية ، لم ينبذوا تراث الشعراء الذين عاشوا فى غير المناطق المعتمدة من علماء اللغة .

خذوا مثلا : « عدى بن زيد اللخمى » الذى أتقن الفارسية وترجم

---

(١) السيوطى : المزهر ٢١٢ وما بعدها ط الحلبى .

لكسرى وللنعمان ، كان من الشعراء الذين ضرب عليهم علماء اللغة أشد الحصار . قال فيه الأصمعى فى (فحولة الشعراء) :

« عدى ، وأبو دؤاد الأيادى ، لا تروى العرب أشعارهما لأن ألفاظهما ليست بنجدية » .

ونقل المرزبانى فى (الموشح) رواية عن المفضل الضبى أنه قال : « كانت الوفود تفد على الملوك بالحيرة فكان عدى بن زيد يسمع لغاتهم فيدخلها فى شعره».

وقال ابن سلام فى (طبقات الشعراء) : « وعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه » .

وقال ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) : « وعلماؤنا لا يرون شعره حجة ، والعرب لا تروى شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية ، وكان نصرانياً من عباد الحيرة ، قد قرأ الكتب » .

ومع كل هذا ، تجد ديوان عدى قد جُمع ودُوِّن ، وكانت هناك نسخ منه فى عصر أبى العلاء . إحداها فى دار العلم ببغداد ، التمسها « أبو العلاء » فى رحلته المشهورة إلى مدينة السلام ، قال فى رسالة الغفران :

« وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافيّةِ عدى ابن زيد التى أولها :

بكر العاذلات فى غلس الصبح يعاتبنه أما تستفيق
ودعا بالصبوح فجراً فجاءت قينة فى يمينها إبريق

وزعم الوراق أن ابن حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة وطُلبت فى نسخ من ديوان عدى فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل استراباذ يقرأ هذه القافية فى ديوان العبادى ، ولم تكن فى النسخة التى فى دار العلم »[1] .

---

(١) رسالة الغفران – تحقيق عائشة عبد الرحمن ، ص ١٤٧ ، ط ٥ ذخائر .

و « أبو العلاء » قد احتفى بعدى بن زيد فى جنة الغفران ، وأنشد ثلاث قصائد من روائع شعره ، لا نجدها كاملة فى سائر المراجع الأخرى . و « ابن سلام » نفسه قد ذكر فى طبقات الشعراء لعدى بن زيد أربع قصائد جياد قال : إنهن « لا يفوقهن شعر » .

وجمع أبو الفرج الأصفهانى قدراً ذا بال من شعر عدى بن زيد ، فى ترجمته له بكتاب الأغانى ، وقلما يخلو كتاب من أمهات مراجعنا الأدبية ، من مختارات من قصائد عدى وأبياته ، بعد أن قيل فيه : « والعرب لا تروى شعره ! » .

بل إن معاجم اللغة ، تأتى بالشواهد من شعره دون تجريح لها أو تهوين منها ، وكأن أصحاب هذه المعاجم لم يلتفتوا إلى ما قال « ابن قتيبة » فيه :

« وعلماؤنا لا يرون شعره حجة » !

وكذلك رُويت قصائد أبى دؤاد ولقيط بن معمر الإياديين ، وتعرفون مكانة « طرفة والأعشى والحارث بن حلزة » وقد كانوا من قبيلة بكر المبعَدة عن الاستشهاد لمجاورتها للفرس . كما تعرفون مكانة « مهلهل وعمرو بن كلثوم » وقد كانا من تغلب ، ومنزلها بالجزيرة من مناطق المخالطة .

وأيّاً ما كان جهد اللغويين القدامى فى تحاشى الأخذ من تراث هذه القبيلة أو تلك ، ورفض اعتماد شعرها فى الشواهد اللغوية ، فالذى يعرفه التاريخ هو أن المخالطة اللغوية كانت واقعاً لا مفر منه ، وأن هذه القبائل المتجنَّبة ، كانت تخالط القبائل العربية فى المناطق المعتمَدة حجةً فى الفصاحة ، مما اضطر اللغويين إلى الاعتراف بالأمر الواقع فى تداخل لغات العرب ، ومنهم من رأى أن هذه اللغات كلها حجة ![1] .

* * *

على أن هذه المخالطة ، على أبعد مدى يمكن تصورُه . لا يجوز أن تُحمل

(١) السيوطى : المزهر فى علوم اللغة . ص ٢٥٧ ، ٢٦٣ — ط الحلبى .

على الخلط الذى لا تتميز فيه لغة عن أخرى ، أو تُطمس معالم الشخصية اللغوية فى اللسان القومى لشعب أو آخر . كما تصور بعض الدارسين المحدثين [١] .

كل ما فى الأمر أن الاتصال التجارى والسياسى بين شعوب المنطقة ، كان معه اتصال فكرى ولغوى تحكمه مؤثرات حيوية أخذاً وإعطاء ، فى حدود ما تقضى به ضرورات الحوار والتعامل ، على أى وجه كان .

وتضبطه فى الوقت نفسه ، عن قصد أو غير قصد ، عواملُ مضادة من حرص الشعوب على صيانة قومياتها ، ووعيها لما فى التفريط فى اللسان من مسخ للشخصية القومية وتفريط فى الذات .

* * *

وسترون فيما نتابع من سير الحياة بلغتنا ، أن العربية اضطرت فى عصر الفتوح إلى أن تتصل بلغات الأقطار التى وصل إليها مدُّ الفتح فى القرن الأول ، فاحتاجت إلى مترجمين ينقلون عنها وإليها ، فى المدونات والوثائق الرسمية ، وفى العقود والمعاملات التجارية ، وفى التفاهم الضرورى بين العرب وأهل الأقطار التى فتحوها وهاجروا إليها ، ريثما تمت حركة التعرب التى استغرقت جيلا أو أكثر بعد أن دخلت شعوب المنطقة فى الإسلام ، فكان المنطلَق إلى الوحدة اللغوية فى اللسان المشترك لشعوب هذا الوطن الواحد ، مع ملامح مميزة تفرضها البيئة المحلية بخصائصها الجغرافية والاجتماعية . . .

---

(١) انظر مقدمة إبراهيم الابيارى لكتاب (المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب) لابن أبى السرور الصديقى – نشر وزارة الثقافة بمصر .

وكتاب إسرائيل ولفنسون (تاريخ اللغات السامية) ص ١٦٨ .

الباب الأول

العربيّة وقانون التطوّر

١ — فى بيئتها الأولى بالعصر الجاهلى

٢ — مع حركة الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة

٣ — الفصحى ولهجاتها الإقليمية فى الأقطار المتعربة .

٤ — مع النهضة العلمية فى عصر الحضارة الإسلامية .

٥ — مع حركة الإحياء فى الغرب الأوربى .

العَربيّة في بيئتها الأولى

إذا كان العامل الديني هو الذي يعطي التفسير التاريخي لانتشار العربية ، فإن هذا لا يعني أنها لم تكن في ذاتها صالحة للبقاء . وإلا فقد كان حسبها أن تبقى لغة دينية . وتترك للغات الأصلية للشعوب المسلمة مجالَ الحياة العامة .

من حيث كانت الجزيرة العربية هى مهد اللغة المشتركة التى اتخذتها شعوب أمتنا لساناً قومياً لها بعد أن أسلمت ،

يكون من المجدى أن نلتفت إلى الأصل المشترك فى لغة العرب قبل أن تخرج من بلادهم ، ثم بعد أن انتشرت مع الفتوح الإسلامية من المشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى .

* * *

وإذا كان العامل الدينى هو الذى يعطى التفسير التاريخى لانتشار العربية فإن هذا لا يعنى أنها لم تكن فى ذاتها صالحة للبقاء ، وإلا فقد كان من المتصور أن تبقى لغة دينية ، وتترك للغات الأصلية لشعوب المنطقة مجال الحياة العامة ، على نحو ما حدث للغة القبطية التى ظلت لغة الكنيسة المصرية لمن اختاروا البقاء على نصرانيتهم من أهل مصر ، دون أن تتجاوز هذا النطاق الدينى المحدود إلى المجال العام .

* * *

وليس من الصحيح إطلاقاً ، أن اللغة العربية اعتمدت فى انتشارها على السلطة الحاكمة ، كما تصور بعض الدارسين فيما سموه « سلطان اللغة الغازية » ويعنون به القوة المستمدة من السلطان السياسى ، « فكلما كان للغازى سلطانه الذى لا يرد ، كان للغته هى الأخرى سلطان لا يرد . والشعوب المغلوبة تسعى دائماً إلى التقرب من الشعوب الغالبة تجاملها فى كل شىء وتحاكيها فى كل شىء ، وليست ثمة وسيلة للتقرب خير من اللغة . من أجل ذلك كانت الشعوب المغلوبة أسرع إلى التحلل من لغتها والدخول فى لغة الغالب »[1] .

لقد غزت المنطقة لغات أخرى قبل الإسلام ، مؤيدة بالسلطان

(١) من مقدمة إبراهيم الابيارى لكتاب (القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب ، لابن أبى السرور الشافعى) - وزارة الثقافة بمصر .

السياسى ، لكن الشعوب المغلوبة رفضتها متشبثة بقديمها محافظة على تراثها ، فانحصرت لغات الغزاة الغالبين فى الدواوين والرسميات ، لم تتجاوزها من قريب أو بعيد إلى اللغة القومية .

وفى عصر الاستعمار الحديث ، نرى الدول الغازية كان لها سلطان مسيطر على أقطار الوطن العربى ، وقد حاولت جهدها أن تفرض عليها « سلطان اللغات الغازية » فلم تبادر شعوبنا المغلوبة إلى التقرب من الغزاة الغالبين ومجاملتهم ومحاكاتهم فى كل شىء ، ولم تسع دائماً إلى التحلل من لغتها العربية ، بل ناضلت عن وجودها الوطنى ضد المسخ والسلخ ، وعن لسانها القومى ضد الغزو ، فانحصرت اللغات الغازية فى الدواوين ودور التعليم الخاضعة للغالب . وبقيت شعوبنا بمعزل عنها ، ترفضها فى عناد وإصرار [١] . فيما عدا قلة من المثقفين المتفرنجين . الذين استعاروا لغات الغزاة بالقهر والسلطة ، أو عن طواعية تقليد ومحاكاة وتقرب إلى الحكام . وهذه القلة من المتفرنجين لا يمكن أن تمثل وجدان الشعب وضميره ، ولا يجوز أن نحكم بسلوكها على الملايين من جماهير الشعوب العربية التى ما نعرف أنها تخلت قط عن لغتها القومية ، ولا سعت إلى التقرب من الغزاة ومحاكاتهم فأسرعت إلى التحلل من لغتها ودخلت فى لغة الغالب !

يصدق هذا على أقطار المشرق العربى . كما يصدق على أقطار المغرب التى امتحنت بأضرى غزو لغوى ، واجهته الشعوب بالرفض والسخط والإنكار ، وقاومت المسخ والسلخ فخاضت معارك التحرير .

وهذه قضية نعرض لها فيما بعد ، بما يلفتكم إلى ما ينبغى لكم من حذر

---

(١) انظر مثلا كتاب (الهلينية فى مصر لهارولد بل) ص ١٨ من الترجمة العربية للدكتور زكى على ط ١٩٥٩ .

واقرأ معه كتاب الدكتور عبد المجيد عابدين (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية فى مصر قبل الإسلام وبعده) ص ٣٢ ، ٩٥ – ط أولى ١٩٦٤ .

فى التسليم المهين لكرامتكم العقلية ، بدعاوى راجت وذاعت حتى بدت من البديهيات الضرورية والحقائق المقررة ! .

* * *

ونعود فنقول : لولا أن اللغة العربية فى ذاتها كانت صالحة للبقاء ، لانحصرت فى النطاق الدينى للشعوب المسلمة ؛ أو فى المجال الرسمى خضوعاً للسلطة السياسية .

والعربية التى وصلت إلينا فى تراث الجاهلية المعروفة لنا ، ومداه قرنان قبل الإسلام ، قد مرت فى قديمها بمراحل تهذيب وصقل وتصفية وانتقاء ، حتى بلغت مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة والتعبير ، استطاع معه العلماء من عصر التدوين وما بعده ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى ، قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وضوابط العروض ، وأحكام البلاغة وأساليب البيان .

لقد وصلت إلينا من قديم جاهليتها ، بعد أن أهملت الحوشىّ والغريب والثقيل ، وما تنافر فى حروف اللفظ أو كلمات الجملة ، وهذبت صيغها بالإعلال والإبدال والقلب والإدغام والحذف[١] .

واستقرت على ضوابطَ للتأنيث والتذكير ، وللإفراد والتثنية والجمع ، وميزت المعلوم من المجهول ، والمعرفة من النكرة ، وتصرفت فى المادة اللغوية بصيغ مطردة لكل منها دلالتها المحددة ، وتصرفت فى الفعل لضبط الزمن تحديداً للماضى المطلق والقريب والحاضر ، والمستقبل القريب والبعيد والمطلق ، واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة بدقة وإحكام ، للمتكلم والمخاطب والغائب ، مفرداً ومثنى وجمعاً .

---

(١) انظر : سر الفصاحة للخفاجى ، والمزهر للسيوطى (النوع التاسع) والعربية الفصحى لهنرى فليش : ٤٧ .

كما حكمت المعانى بصيغ المشتقات . ونسق الألفاظ وترتيبها فى الجمل ، وسياق العبارة ، وعلامات الإعراب .

وتوسعت فى الدلالات المجازية لكى تنمو وتلبى حاجات الحياة ، فنقلت الألفاظ من الاستعمال الحسى إلى الاستعمال المجازى والاصطلاحى .

وكذلك تطورت الأساليب العربية من قديم ، فخرجت عن أصل الوضع اللغوى إلى معان مجازية وأساليب بلاغية لملاحظ فنية جمالية ، كالذى تعرفون من خروج أساليب الخبر من دلالتها الأصلية إلى الدعاء والاسترحام والتفجع ، وأساليب الأمر والنهى والاستفهام عن معانيها اللغوية الأولى ، إلى الزجر والتقرير والإلزام أو الجحد والإنكار . والعدول فى التعبير عن أصل استعماله اللغوى ، بالاستعارة والمجاز والكناية .

ووصل إلينا الشعر الجاهلى بعد أن مر بمراحل طفولته ونموه ، محكمَ الإيقاع متسق النغم مرهف الحس. تمضى القصيدة منه حتى تجاوز مائة بيت عدًّا ، دون خلل فى نسق نظمه وضوابط إيقاعه وموسيقاه . . .

وكل هذا تعرفونه فيما صنف علماء السلف من علوم العربية ، وما أضاف المحدثون من دراسات لأسرار العربية فى الدلالات والأصوات وموسيقا الشعر وفن القول .

وما يزال كثير من أسرارها محجوباً عنا ، وما يزال الميدان يتسع لجديد مما غاب عنا من هذه الأسرار . أقول هذا وأنا أشتغل منذ سنين بخدمة النص القرآنى ، فألمح من أسرار دلالات الألفاظ وأساليب البيان ما ظل محجوباً عنا حتى اليوم . وأعتقد أن أجيالاً تأتى بعدنا ، تهتدى إلى ما لم نصل إليه نحن من حس العربية الدقيق المرهف ، وبيانها الذى وقفنا به عند قواعد علماء الصنعة .

* * *

وحددت العربية من قديم موقفها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتّاً في جمود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يغزوها ويمسخ أصالتها .

فبقدر ما توسعت في الاشتقاق والمجاز ، ضيقت باب الأخذ من الدخيل ، صوناً للسانها ، فاستغنت إلى أقصى المدى ، بتطويع الألفاظ الفصحى لكي تؤدى المعانى الجديدة على وجه التجوز ، ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية إما بالإلحاق ، أو بتغيير نطقه إشعاراً بتعريبه .

وقد استطاع علماء اللغة من عصر التدوين أن يستخلصوا قواعد لمعرفة المعرب[١] ، تشهد بأن الأمر لم يترك لفوضى عشوائية ، بل خضع لقواعد كانت العربية تجرى عليها فيما تأخذه من اللغات الأخرى[٢] .

من هنا جاز لبعض اللغويين أن يرفضوا القول بأن فى القرآن ألفاظاً غير عربية . لا يعنون بذلك أن هذه الألفاظ لم تكن فى أصولها من لغات رومية أو سريانية أو حبيشة أو فارسية ، ولكنهم يعنون أن العرب عربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القرآن الكريم وقد دخلت هذه الحروف فى كلام العرب .

° ° °

وكان عجيباً حقّاً أن يكون للغة بادية فى العصر الجاهلى ، ومع العزلة النسبية[٣] ، مثل هذه الضوابط والقوانين التى تسامى بها أرقى اللغات

---

(١) اقرأ باب (معرفة المعرب) من مزهر السيوطى : ص ٢٦٨ وما بعدها .

(٢) السيوطى : المزهر ٢٦٩ .

(٣) سبق القول بأن اتصال العربية بلغات الأمم التى خالطتها ، لا يمنع القول بالعزلة النسبية التى صانت بها لسانها من الخلط . وهذه العزلة تشتد فى المناطق البعيدة عن المخالطة . وكذلك القول فى بداوة العربية لا يعنى أن العرب كلهم كانوا بداة ، ولكن يعنى أن مناطق الفصحى التى آثرها علماء اللغة ، كانت فى الغالب منازل البدو . فضلا عن أن الجزيرة العربية فى الجاهلية المعروفة لنا ، كانت تعيش =

الحديثة ، في دقة الدلالة وضوابط التعبير وقوانين التصرف والمجاز والأخذ والنقل . . .

ومن اللغويين المحدثين ، من يفسر هذا بأنه « كان من حظ القبائل العربية القاطنة فى أصقاع الجزيرة أنها احتفظت بلغتها السامية الأصلية احتفاظاً ظاهراً حتى لم يطرأ عليها شيء كبير من التغير والتبديل ، إذ كانت هذه الأقوام بعيدة عن الأمم الأخرى وفى مأمن من التأثر بحضارتها كما تأثرت بقية الأمم السامية التى سكنت فى الجهات المعمورة . ومن أجل ذلك امتازت اللغة العربية ، لغة تلك القبائل ، عن اللغات السامية الأخرى بزيادة عدد غير قليل من الكلمات والصيغ القديمة »[١].

فهل يتصور عقل أو يقبل منطق ، أن تصل العربية إلى هذا المستوى من الدقة والحيوية بمحافظتها على لغة بدائية أولى وكلمات وصيغ قديمة ؟

« إسرائيل ولفنسون » الذى يتصور مثل هذا ويقرره ، لا يلبث أن يذهب فى الفقرة التالية مباشرة ، إلى أن المخالطة اللغوية بين العربية ، هذه المنعزلة ، وبين لغات أخرى قد وصلت إلى حد الامتزاج « فقد كانت العرب الراحلة تتصل بأمم سورية والعراق من أقدم الأزمنة التاريخية اتصالا متنوع الأسباب ، فقد يكون للغزو وقد يكون للتجارة وتبادل الغلات والمرافق أو لطلب الكلأ والمرعى . ونجم عن ذلك تبادل أدبى وعلمى أيضاً . . . وقد امتزجت قبائل جمة آرامية وعبرية بالعرب فى الجزيرة العربية أو تخومها وتركت فيها آثاراً ظاهرة ، إذ كانت من الوجهة الفكرية أرقى من عرب شمال الجزيرة »[٢].

= عصر بداوة بصفة عامة ، ومظاهر التحضر فى القرى العربية ، لم تخرج بها حينذاك عن عصر الناقة .

انظر كتاب الدكتور ناصر الدين الأسد فى (مصادر الشعر الجاهلى) وقابله على الفصل الموجز لعصر الخنساء ، فى كتابى (الخنساء) ط المعارف سنة ١٩٥٧ .

(١) بنص عبارة « إسرائيل ولفنسون » فى (تاريخ اللغات السامية) ص ١٦٢ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٢٩ .

(٢) المرجع السابق .

ثم ما هذه السامية الأصلية التى يقول إن العربية احتفظت بها ولم يطرأ عليها شىء كبير من التغير والتبديل ؟

أليست هى التى قرر فى أول تأريخه للغات السامية أن « من العسير أن نتخيل ما كانت عليه اللغة السامية الأصلية ومقدار كلماتها ، بل من العبث إطالة البحث فى أمر غامض مجهول نشأ ونما فى عصور سبقت العصور التاريخية ؟ »

ومع ذلك ، فهذه المجهولة الغامضة ، هى ما يزعم هنا أن العربية احتفظت بها !

دعونا إذن من تلك اللغة السامية الأصلية ، البدائية المجهولة التائهة فى ضباب ما قبل التاريخ ، والتى لا يمكن أن نتصور أن العربية التى وصلت إلينا ، قد احتفظت بها من طفولتها الأولى .

فهل كانت العربية تدين برقيها إلى لغات قبائل جمة آرامية وعبرية ، امتزجت بالعرب فى جزيرتهم أو على تخومها ، وكانت من الوجهة الفكرية أرقى من عرب شمال الجزيرة ؟

لا نسأل : فلماذا لم تنتصر الآرامية والعبرية وتفرضا سيادتهما حيث سادت العربية ؟ وإنما نتابع قول « ولفنسون » فى الفقرة التالية ، فنرد به عليه :

« ولكن يجب ألا يبالغ الباحث فى مسألة تأثير الآرامية والعبرية فى العربية الشمالية ، إذ ينبغى أن يحترس من الخطأ فى نسبة بعض الكلمات العربية إلى أخواتها السامية ظنًّا منه أنها منقولة منها ، فقد يوجد عدد كبير من الألفاظ له رنة آرامية أو عبرية وهو فى الواقع كان يستعمل عند العرب قبل أن يحدث الاتصال بين هذه اللغات . ثم إذا علمنا أن شمال الجزيرة قد امتزج بعناصر كثيرة من الآراميين والعبريين فقد يحدث أن تتغلب الصيغة الجديدة فى نطق كثير من الكلمات »(١) .

والأمر بعد ، ليس مجرد كلمات فى هذه اللغة أو تلك ، وإنما القضية المعروضة للنظر ، هى قضية المستوى العالى الذى بلغته العربية فى العصر

---

(١) تاريخ اللغات السامية : ص ١٦٣ .

الجاهلي المعروف لنا : من دقة الدلالة ورفاهة الحس ولطف الملحظ ، واطراد ضوابطها فى التصرف والاشتقاق ، وإحكامها فى الصياغة والأداء : وملاحظها الفنية فى الأساليب.

وما تزال القضية تنتظر رأياً مقنعاً ، يشق علينا أن نصل إليه ، لأن مراحل طفولة هذه العربية ونموها وتطورها قد غابت عنا . ويطمئن بعض علماء فقه اللغة من مستشرقى الألمان ، إلى القول بأن العربية فى هذا التطور كانت تعتمد على ما يسمونه التطور الداخلى ، يعنون به أنه يأتيها من ذاتها لا من خارج .

وأياً ما كان الأمر ، فهذه العربية التى تلقانا فى أخريات الجاهلية ، على ماعرفتم من مستواها ، كانت فى تلك المرحلة المعروفة لنا تاريخاً وتراثاً تمارس حركة تطور هامة تتجه إلى استصفاء لغة مشتركة شبه رسمية ، تلتقى عندها القبائل العربية فما يجاوز نطاق القبيلة . تلك كانت لغة قريش ، لا نعنى بها لسان أجدادهم ، وإنما نعنى هذه اللغة المختارة التى اتصلت بلغات القبائل واستصفت منها ما رأته ملائماً .

ذلك أن قريشاً بحكم مركزها فى العاصمة الدينية والتجارية الكبرى للعرب ، كانت تتلقى وفود القبائل فى موسم الحج الذى كان فى الوقت نفسه موسماً للتبادل التجارى واللغوى. فأتاح لها هذا المركز نفوذاً لغوياً ، أيده تفتحُها لتقبل ما تستصفى من لغات سائر القبائل .

نقل « ابن فارس » فى كتابه (الصاحبى ، فى فقه اللغة) :

« أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم : أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة . .

« كانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحا كمون إلى قريش فى دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى

كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طُبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب » .

ونقل السيوطى فى (المزهر) :

« وقال الفارابى فى أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما فى النفس » .

وهذه الخطوة الهامة نحو اختيار لغة مشتركة ، كانت لها دعامة من اتصال وثيق بين لغات القبائل ، بدأ من قديم بهجرة القحطانية إلى الشمال وغلبة العدنانية ، ثم قواه تلاقى القبائل فى المواسم الدينية والتجارية والرحلات، وما يتبع ذلك كله من اتصال ومخالطة .

ولم تكن لغات قبائل الجنوب فى اليمن وحضرموت ، أو القبائل الضاربة فى تهامة وساحل البحر الأحمر وفى المنطقة الواقعية بين نجران والجوف اليمنى ، بمعزل عن الاتصال بلغة الحجاز ، بل كانت هناك علاقات متواصلة بينها لا يعوقها اختلاف اللهجات[١] .

* * *

هل وصل هذا الاتصال بين لغات القبائل على الزمن الطويل فى الجاهلية إلى أن صارت قبل ظهور الإسلام لغة واحدة ، ابتلعت كل اللغات الأخرى أو جمعت بينها فى لغة مختلطة هى مزيج من كل اللغات التى انهزمت وبادت ؟

هل كان كما تصور بعضهم : « أن الواحدة من اللجهات كانت تبتلع الأخرى أولا ثم تتكون من الاثنتين لهجة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وهذه اللهجات الجديدة تمتزج بأخرى ، وهكذا ظل هذا التدرج ينتقل فى أزمنة طويلة فى أثناء الجاهلية حتى ظهر الإسلام » ؟

---

(١) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربى – ص ٢٧ ، ٢٨ من الترجمة العربية للدكتور إبراهيم الكيلانى – ط دمشق ١٩٥٦ .

كلا ، فالذى بين لغة قريش ، ولغات القبائل العربية الأخرى ، لم يكن ابتلاعاً ولا اندماج لغات فى واحدة قد التهمتها وتغذت بها ، وإنما كان على ما نقل « ابن فارس » من قول أئمة علماء اللغة ، نوعاً من الاصطفاء اختارت به اللغة العليا ما رضيته من لغات القبائل ، وتحاشت ما كرهته منها ، دون أن تفنيها أو تقضى عليها ، بل اكتفت بالمجال العام المشترك وتركت لغات القبائل للمجال الحيوى الخاص بكل قبيلة .

ولا مفر من التسليم بأنه قد كانت هناك لغة عليا مشتركة ، ولغات محلية للحياة اليومية ، خضوعاً للطبيعة الاجتماعية للحياة اللغوية التى تقضى بوجود لغة للفن والثقافة والفكر ، غير اللغة المستعملة فى الحياة اليومية . وهذا ما فات أصحابَ دعوى انتحال الشعر الجاهلى ، وقد رابهم من أمره أن جاء من قبائل متعددة بلغة واحدة لا تحمل أثراً لاختلاف اللهجات . وشعراء العربية اليوم يتكلمون بلهجات متعددة شتى ويعيشون بها فى ديارهم وأقطارهم ، لكنهم فى الشعر يستعملون الفصحى المشتركة ، ولسنا مع ذلك ننكر أشعارهم أو يريبنا منها أنها لا تمثل لهجاتهم الإقليمية المختلفة .

والراجح أن القبائل العربية فى العصر الجاهلى ، لم تلتق على اللغة العليا فى الحياة الأدبية فقط ، بل كانت تستعملها أيضاً فى المجال الدينى حين تفد إلى مكة فى موسم الحج ، حيث بقى لنا من تلبياتهم ما لا نكاد نلمح فيه أثر اختلاف لهجاتهم (١) ، وإن كنا لا ننسى أن من مظاهر الاختلاف فى اللهجات ، ما يبدو فى النطق لا فى الكتابة . وتراث الجاهلية قد وصل إلينا مخطوطاً من عصر التدوين ، غير مسجل على أجهزة صوتية لم تكن قد اخترعت بعد .

ومع كل هذا ، بقيت آثار اختلاف اللهجات فى كثير من الشواهد النحوية واللغوية ، وفيما يلقانا فى معاجم العربية من اختلاف اللغات والصيغ ، وحشد المترادفات التى تتوارد على المعنى الواحد .

---

(١) انظر الفصل الذى أملاه « أبو العلاء » عن تلبيات العرب فى الجاهلية ، فى (رسالة الغفران) — ص ٥٣٤ ، الطبعة الخامسة ، ذخائر .

ونزول القرآن الكريم كان الخطوة الجليلة الحاسمة فى الوحدة اللغوية ، ومع ذلك بقى أثر اختلاف اللهجات فى الأحرف السبعة ، وفى القراءات ، إلى جانب بقاء اللهجات فى نطاق التعامل والحياة اليومية للقبائل ، ثم فى اختلاف لهجات الشعوب التى تعربت ، وتأثرت بلهجات القبائل العربية التى خالطتها ، على ما سوف نعرض له فى متابعة سير الحياة بهذه اللغة التى خرجت من جزيرتها قوية حية ، تواجه أكبر حركة تحول لغوى عرفها تاريخ المنطقة ، مستجيبة بكل مرونة وحيوية لمطالب الحياة الجديدة، وواعية لدورها الجليل فى تلبية حاجات الحياة اللغوية لأمة قوية منتصرة ، وشعوب ذات عراقة فى الحضارة والفكر والثقافة .

العربية في أقطارها الجديدة مع الفتوح الإسلامية

من حيث وقف التاريخ مبهوراً يرصد حركة التحول اللغوى بعد الفتح الإسلامى ، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التى عصيت من قبل على الغزو اللغوى ،

وقف أصحاب العربية يشفقون عليها من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهفون سمعهم لالتقاط ما لم يكن منه بد ، من شوائب العجمة وعثرات اللحن .

نزل القرآن الكريم كتاباً عربيًّا مبينـًا ، معجزة رسولٍ بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ففرض إعجازه على العرب فى عصر عزّ الفصحى وأصالتها ونقائها .

وأخذ مكانه من عصر المبعث : كتاب الإسلام الخالد ، وكتاب العربية الأكبر ، فى ذروة أصالتها وباهر بيانها .

وقد تقبلت العربية من عصر المبعث زاداً سخيًّا من أساليب البيان القرآنى المعجز ، ومن الدلالات الإسلامية التى وضعها القرآن لألفاظ من العربية ، كالإيمان والكفر والإسلام والهدى والضلال والنفاق ، والصلاة والزكاة ، والساعة والبعث والقيامة والجنة والنار والصراط ..[1].

وتهيأت العربية لتطويع ألفاظها للدلالة على ما استحدثت الحياة الإسلامية من جديد المعانى وما واجهت من آفاق ..

لكنها فى الوقت نفسه واجهت مشكلات صعبة مع العرب أنفسهم فى حياتهم الجديدة ، ثم مع الشعوب التى تعربت بعد أن أسلمت .

* * *

خرجت العربية من الجزيرة مع كتائب المسلمين الفاتحين الذين حملوا القرآن معهم لواء عقيدة ، وكتابَ لغةٍ عليا وبيانٍ معجز ، لكنهم حملوا معهم كذلك لهجاتهم ، واتصلوا بشعوبٍ تنطق بغير لسانهم ، واستقروا بعد الفتح فى أقطار يختلف مناخها المادى والمعنوى ، ومسلكها اللغوى ، عن مناخ الجزيرة العربية .

وظهرت بوادر التأثر على العرب الخُلَّص أنفسهم قبل سواهم من أبناء الأقطار التى فتحها الإسلام ، فكانت فى تقدير أصحاب العربية أزمة لا بد

(١) انظر الألفاظ الإسلامية فى (المزهر للسيوطى) ص ٢٩٤ و (الصاحبى فى فقه اللغة) لابن فارس : ص ٤٤ وما بعدها .

أن تحسم، حفاظاً على لغة الدين والدولة، ولسان قوميتهم التى لا يحل التهاون فيه .

* * *

من عصر الفتوح ، كان أخطر ما بدا من بوادر الأزمة ، ما يتصل منها بلغة القرآن الكريم ، لواء الكتائب الفاتحة ، وكتاب الإسلام الذى يقدم أصول الدين وشريعته وهداه .

والعرب الذين خرجوا مع الإسلام إلى الأقطار المفتوحة ، كانوا من مختلف القبائل القحطانية والعدنانية، قرشية وغير قرشية . وقد جاءوا بلهجاتهم من منازلهم فى شتى بقاع الجزيرة العربية ، وما كان لأحد أن يحجر على حريتهم فى التعامل بها لولا أن الأمر اتصل بكتاب الإسلام نفسه ، من حيث كان من العرب مَن يقرءون القرآن بلغاتهم ،وهم يروون حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، وقد أذن لهم فى القراءة بها . قصداً إلى التيسير.

والمشهور فى هذه الأحرف السبعة أنها لغات العرب الفصحاء التى جرت ألسنتهم عليها ، وبينها خلاف فى الألفاظ كالعهن والصوف ، وعَجِّل وأسرع وهلم وتعال .. وفى وجوه الإعراب كالذى فى خبر (ما) التميمية والحجازية ... وليس من الضرورى أن كل كلمة كانت تقرأ على سبعة أحرف ، بل السبعة مفرقة فيه ، بعض الألفاظ بلغة هذيل ، وبعضها بلغة هوازن وأخرى بلغة تميم أو خزاعة[١] .

ومن عصر المبعث إلى خلافة عمر بن الخطاب ، كان المسلمون العرب يقرءون القرآن على ما تيسر لهم من الأحرف ، فلايبدو الأمر مشكلا ، فهى معان متفق مفهومها مختلف مسموعها ، ولا وجه يخالف آخر ، خلافاً ينفيه أو يضاده . كأن يقرأ بعضهم آية البقرة :

---

(١) اقرأ باب (الأحرف السبعة) فى كتاب (الإتقان فى علوم القرآن) للسيوطى . ص ٥٦ وما بعدها ، ط القاهرة .

« يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه » ، ويقرأ غيرهم: « كلما أضاء لهم سعوا فيه » .

أو أن يقرأ بعضهم آية الحديد :

« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم » ويقرأ آخرون : أنظرونا ، أو : أمهلونا .

حتى استقروا فى البلاد التى فتحت للإسلام ، فكان اختلاف المسلمين فى قراءة كتابهم الدينى ، مظنة أن يُحمَل من غيرهم على محمل مريب ، فيتصور من يتصور أن المسلمين يبدلون فى كلمات الله ، مما اقتضى الموقفَ الحاسم من الخليفة « عثمان بن عفان » : جمع المصحف على حرف واحد هو المصحف العثمانى أو المصحف الإمام . ونسخت منه نسخ معتمدة وُزعت على الأمصار ، وأُمر المسلمون بالاقتصار عليها ، وإحراق ماعداها من مصاحف كتبت على أحرف أخرى .

وبقيت آثار اللهجات بعد ذلك ، فيما يحتمله اللفظ الواحد فى المصحف الإمام ، من وجوه القراءات المتعددة فى المد أو القصر ، والهمز أو التخفيف والإدغام أو الفَكّ ؛ وفى الروم والإشمام والإمالة ، والترقيق أو التفخيم ... واستقر الأمر على سبع قراءات اختيرت لسبعة من أئمة القراء، وتجدون الحديث عنها وعنهم مفصلا فى كتاب : (غاية النهاية فى طبقات القراء) لشمس الدين محمد ابن محمد الجزرى . ت ٨٣٣ هـ[١] .

* * *

هذا من ناحية القرآن الكريم ، كتاب الإسلام وقمة الفصحى .

فماذا عن الفصحى ، اللغة العليا المشتركة ، على ألسنة العرب الأصلاء الذين خرجوا من منازلهم فى الجزيرة ، فكانت لغة الشعراء منهم والخطباء والكتاب الرسميين وغير الرسميين ؟

---

(١) طبع السعادة بالقاهرة ، بعناية المستشرق برجشتراسر .

عصرَ الفتوح ، وقبل تعرب الشعوب الداخلة فى الإسلام ، كان خروج العربية من بيئتها الأصيلة وبعدها عن مهدها الأول ، مَدرجة إلى شىء من الخروج على بعض سننها فى القول . فظهر اللحن على ألسنة بعض العرب الخُلَّص قبل منتصف القرن الأول للهجرة .

والمعروف فى تاريخ النحو ، أن اللحن ظهر على ألسنة الجيل الأول من المولدين ، أبناء الفصحاء ، ففى الخبر أن أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » قال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة الأعاجم . وقال « زياد بن أبيه » لأبى الأسود الدؤلى : إن هذه الحمراء – يعنى الأعاجم – قد كثرت وأفسدت ألسن العرب .

ثم فشا اللحن من بعد ذلك بحيث اضطر أمراء البيت الأموى إلى إرسال بنيهم إلى البادية أو استقدام مؤدبين لهم من البداة ، يقوِّمون ألسنتهم ويأخذونهم بالنطق الصحيح .

وكان من اللافت أن الشعراء الكبار ، وهم من أمراء فن القول ، لم يسلموا من اللحن : فالفرزدق ، كبير الشعراء الإسلاميين ، وهو من بيت عربى صميم ، يخطئ فى اللغة ثم يضيق بمن يؤاخذونه على الخطأ . يروون فى تاريخه أنه حين أنشد بيته :

وعَضُّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يَدعْ ... من المال إلا مُسحتاً أو مُجلَّف

سأله أبو عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى : على أى شىء رفعت مجلفاً ؟ قال : على ما يسوؤك !

وسمع ابن أبى إسحاق ، قول الفرزدق فى مدح يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمالَ الشام تضربهم ... بحاصبٍ كنديفِ القطن منثورِ
على عمائِمنا تُلقى وأرحلنا ... على زواحفَ تزجَى ، مُخُّها ريرِ

فقال ابن أبى إسحاق : أسأت ، إنما هو : ريرُ .

ولما ضاق الفرزدق بتتبع عبد الله ابن أبى إسحاق الحضرمى لعثرات لسانه ، هجاه فقال :

فلو كان عبدُ الله مولى هجوتُه ولكنَّ عبدَ الله مولى مواليا

إذ كان عبد الله مولى آل الحضرمى ، حلفاء بنى شمس بن عبد مناف. وقد ضاق بقول الفرزدق : « مولى مواليا » أكثر مما ضاق بهجوه إياه ![1] .

وحين نقرأ فى تاريخنا الأدبى أن اللغويين كانوا يُكبرون فصاحة بشار فيقول مفتخراً : من أين يأتينى اللحن وقد نشأت فى فصحاء بنى عقيل ، ورُبيت فى حجور نسائهن وهن أفصح من الرجال ؟ ونقرأ مع ذلك أن « الأخفش »[2] طعن على بشار فى قوله :

والآن أقصر عن سُمية باطلى وأشار بالوَجلَى علىَّ مشيرُ

وفى قوله :

على الغزَلى منى السلام فربما لهوت بها فى ظل مُخضَرَّة زُهرِ

وقال : لم يُسمع من العرب الوجَلَى والغَزَلى ! قاسهما « بشار » من الغزل والوجل ، فيما يُقتصر فيه على السماع دون القياس .

وطعن عليه كذلك فى قوله يصف السفينة :

تلاعب نينانَ البحور وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

وقال : لم يُسمع من العرب نينان ، جمع نون .

فبلغ ذلك بشاراً فقال متوعداً : « ويلى على القصار ابن القصارين ! متى كانت اللغة والفصاحة فى بيوت القصارين ؟ دعونى وإياه ! » فبلغ ذلك

---

(١) الموشح للمرزبانى فى مآخذ العلماء على الشعراء : ٩٩ وما بعدها ط السلفية ١٣٤٣ .

(٢) ذكر المرزبانى فى الموشح (ص ٢٤٦) أن الخصومة اللغوية كانت بين بشار والأخفش. ونقل أبو العلاء أنها كانت بين بشار وسيبويه : (رسالة الغفران) ص ٤٢٩ ، ط ٥ ذخائر .

الأخفش فبكى ، وذهب أصحابه إلى بشار فكذبوا عنه وسألوه ألا يهجوه فقال : وهبته للؤم عرضه . فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعر بشار ، ليبلغه ذلك فيكف عنه .

وبلغ بشاراً عن « سيبويه » شيء من ذلك فهجاه وأفحش فى هجائه ، فيقال إن سيبويه تحاشى بعد ذلك إغضابه ، واحتج بشواهد من شعره[١] .

حين نقرأ هذا ومثله ، مما جمع « المرزبانى » جملة منه فى كتابه (الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء) ندرك مدى ما طرأ على ألسنة الجيل العربى الذى ولد وعاش بعيداً عن مهد العربية الفصحى .

* * *

وإذا كانت عثرات الألسنة العربية بحيث يتتبعها اللغويون ، فإن المشكلة بدت أشد تعقيداً ، على ألسنة الشعوب التى تعربت بعد الإسلام .

فمنذ استقر الإسلام فى الأقطار التى فتحها ، انتصرت العربية على اللغات الأجنبية المفروضة على شعوب المنطقة ، ثم بدأت تواجه اللغات الوطنية لهذه الشعوب .

ولم تجد العربية أدنى مشقة ، فى اكتساح اللغات الأجنبية الدخيلة التى فُرضت على المجال الرسمى ، وظلت بمعزل عن الشعوب المحتلة ، سواء فى المشرق أو فى المغرب ، ويكاد المؤرخون الغربيون أنفسهم يجمعون على أن هذه اللغات صُفيت من المنطقة ، فى القرون الأولى للإسلام :

« إن خمسة قرون من الاحتلال الرومانى — لأقطار المغرب — لم تستطع أن تترك ما يصمد أمام العقيدة الإسلامية واللغة العربية »[٢] .

وفى مصر حيث استغرقت عهود السيطرة الأجنبية أكثر من ألف ومائة

---

(١) رسالة الغفران : ص ٤٢٩ ذخائر . وقابله على ما فى الموشح ص ٢٤٦ .

(٢) ابراهيم حركات : (المغرب عبر التاريخ) ص ٧٥ ط السلمى بالدار البيضاء .

عام قبل الفتح العربى ، لم تُجْدِ الجهود التى بذلها الغزاة على ذلك المدى الطويل لفرض لغاتهم وثقافاتهم عليها ، ولم تصمد اليونانية التى كان استأثرت بالمجال الثقافى والرسمى ثلاثة قرون قبل الميلاد (٣٣٣ : ٣٠ ق م) وثلاثة أخرى بعده (٢٨٤ : ٦١٦ م) أمام اللغة العربية[١] .

ولم يبد أن العربية واجهت فى أى قطر من المنطقة ، مقاومة من هذه اللغات الأجنبية المرفوضة ، وإنما كانت المواجهة مع اللغات الوطنية للشعوب التى دخلت فى الإسلام .

وحركة التعريب لم تبدأ مع الفتح الإسلامى وإنما انتظرت ريثما اطمأنت شعوب المنطقة إلى الدين الجديد ، ثم اتجهت إلى التعرب لكى تتعلم لغة القرآن ، كتاب دينها .

وكان من المتصور أن تجمع هذه الشعوب بين العربية لغةَ دين ، وبين لغاتها القومية التى صانتها طويلا ضد الغزو ، لغةَ حياة . ولكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربيةَ اللسانَ المشترك لشعوب أمة واحدة ، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك ، كما لم يكرهها مكرِه على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام ، بل تُركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة فى الإسلام .

والعربية هى لغة الدين والدولة .

وكذلك كانت الرومانية واليونانية والفارسية والبيزنطية .

ولكن الحواجز التى صمدت قروناً ضد تلك اللغات الغازية ، ما لبثت أن تهاوت أمام اللغة العربية .

وغير مقبول ما تصوره بعض الدارسين من أن العربية انتصرت بمجرد

---

(١) هارولد بيل : الهيلينية فى مصر – ص ٥٥ ، ترجمة د . زكى على (١٩٥٩) .

كونها لغة الغالب ، وإنما كانت مع ما يؤيدها من جلال القرآن وسلطة الدولة ، قادرة على أن تنتصر على اللغات القومية التى ضعفت لطول ما تعرضت له من حملات الغزو ، وطول ما عُزلت عن المجال الحيوى للثقافة والتعليم والدواوين. وإذا كانت قد احتفظت بمكانها الشعبى ، فإن المثقفين الوطنيين انحاز بعضهم إلى الثقافة الدخيلة ، وانعزل أكثرهم ، وهم قادة الشعب الروحانيون ، فى نطاق الفكر الدينى بعيداً عن أى مجال ثقافى آخر (١) .

ولم يكن موقف الشعوب من لغة العرب أن فرطت فى ألسنتها فجأة ، أو أكرهت على التخلى عنها بحد السيف كما ذهب المؤرخ « فيليب حتى» فى تاريخه الكبير ، ولا صدرت به قوانين ملزمة من الدولة ؛ وإنما مر الصراع اللغوى فى مراحله الطبيعية التى تحكمها سنن الاجتماع ، فبدأ بمرحلة عزلة تفاوتت بين قطر وآخر باختلاف طبيعة الإقليم قرباً وبعداً ، وميراثه الفكرى والحضارى ومسلكه الصوتى واللغوى ؛ وفى تلك المرحلة كانت العربية تتعامل مع أهل الأقطار المفتوحة عن طريق التراجمة ، وكُتُب التاريخ الإسلامى تذكر أشخاصاً منهم بأسمائهم كانوا يؤدون وظيفة المترجمين من العربية وإليها ، فى الدواوين والمعاملات ومجالس القضاء . وبعض هؤلاء المترجمين كانوا من العرب الذين يعرفون اللغات الأخرى ، وأكثرهم كانوا من أهل هذه الأقطار الجديدة ممن تفصحوا بالعربية .

ولم تطل مرحلة العزلة اللغوية ، والقرآن الكريم هناك يفتح للعربية قلوب من أسلموا ، وتعريب الدواوين يجذب المثقفين الذين يبادرون عادة إلى تَعلُّم اللغة الرسمية التماساً لوظائفها ، وانتقال القبائل العربية إلى الأقطار المفتوحة يأخذ شكل هجرات جماعية استقرت فى مواطنها الجديدة . وألحق العرب الوافدون

---

(١) د . عبد المجيد عابدين : (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية فى مصر قبل الإسلام وبعده) ص ٣٤ .

بتلر : فتح العرب لمصر — ٦٥ من الترجمة العربية ، فريد أبو حديد .

فى (الديوان) بأهل الإقليم ، وخالطوا أبناءه وعاشوا بينهم وأصهروا إليهم ، حتى اندمجوا فيهم فما عادوا يتميزون عنهم[١] .

ويكفى لأخذ فكرة عن حجم هذه الهجرات الجماعية أن نقرأ فى تاريخ مصر الإسلامية مثلا : كتاب المقريزى (البيان والإعراب عمن بمصر من الأعراب) ، و (خططه) التى حدد فيها منازل القبائل العربية بمصر .

وكتاب (فتوح البلدان) ، لابن عبد الحكم (والنجوم الزاهرة) لابن تغرى بردى ، و (حسن المحاضرة) للسيوطى .

وفى دراسة جامعية حديثة ، استخلص الدكتور « عبد الله خورشيد البرى » من هذه الكتب وغيرها من المصادر التاريخية ، القبائلَ العربية التى استقرت بمصر بعد الفتح ، وقد أحصى منها ستين قبيلة من القبائل العدنانية وبطونها ، ومائة واثنتين وسبعين قبيلة من القبائل القحطانية وبطونها[٢] .

ومع هذه القبائل الوافدة ، نفذت العربية إلى مواطنها الجديدة متغلغلة فى الحضر والبوادى ، فى السواحل والريف والجبال .

وفى هذه المرحلة ، كانت العربية تتعامل مع اللغات الوطنية مباشرة دون مترجم أو وسيط ، على أوسع نطاق غير محدود بالمجال الرسمى أو الدينى . تَطُوع حيناً وتتساهل لكى تلتقى مع لغة الجماهير ، وتجذبهم أحياناً بقوتها وحيويتها فيأخذون منها قدر طاقتهم . ثم ما لبثت العربية أن اجتازت مرحلة التبادل أخذاً وعطاء . تأثراً وتأثيراً ، لتنتصر على اللغات الوطنية التى تركت المجال لهذه اللغة القوية المنتصرة المستجيبة لحاجات حياتهم اللغوية فى يسر وسخاء ، الواعية لدورها الجليل فى تعريب ألسنة شعوب عريقة فى الحضارة والتاريخ . .

* * *

(١) المقريزى : البيان والإعراب : ص ١٨ .

(٢) القبائل العربية فى مصر ، فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة : ص ٥٩ . ط دار الكاتب العربى بالقاهرة ١٩٦٧ .

هل تأخرت حركة التعريب ؟

فى مصر مثلا ، يرى « يوهان فلك » أن الفصحى رجحت كفتها فى مجال الرسميات والتعبد ، وأن لهجات القبائل رجحت فى التعامل اليومى ، فى نهاية القرن الثالث ، وأخذت اللغة الوطنية تتراجع إلى سهول الريف والمناطق البعيدة حتى تلاشت تماماً فى القرن السادس للهجرة[1] .

ولكن هذا التحديد موضع نظر :

فتأخر رجحان العربية إلى القرن الثالث ، وانتصارها إلى القرن السادس لا يكاد يثبت أمام ما يعرفه تاريخ مصر فى أوائل عصر الولاة .

فنحن نقرأ فى تاريخ مصر ، فى أول العصر الأموى أن « معاوية بن أبى سفيان » أحدث فى مصر وظيفة (القاصّ الرسمى) لمواجهة الفتنة بها ، إذ كان لخصوم الأموية قُصاص يجمعون الناس حولهم فى المساجد أو الطرق يعظونهم ويسلونهم بالقصص والحكايات وأخبار الأمم الماضية ، ويبثون فى ثناياها آراءهم السياسية والمذهبية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

والقصص لا يكون لها تأثير على الوجدان العام ، إلا إذا كانت حركة التعريب قطعت شوطاً ذا بال .

والقاص الرسمى فى دولة عربية إسلامية ، لا يمكن أن يتحدث بغير العربية . فهل كان الذين يحضرون مجلسه ويستمعون إليه من مهاجرة العرب دون المصريين ؟ أو كان هناك من يترجم تلك القصص إلى المصريين ؟

والخطب الدينية المنبرية فى المساجد التى انتشرت من بداية عصر الفتح ، والخطب السياسية للولاة ، كانت بلا شك تلقى بالعربية فى مصر وسائر الأقطار الإسلامية ، فماذا عن جمهور المستمعين لها من غير مهاجرة العرب ؟

ونقرأ فى تاريخ إفريقية والمغرب ، أن جيش طارق بن زياد كان فيه

---

(١) العربية . ص ٢٢ — ترجمة د . عبد الحليم النجار ، ط ١٩٥١ .

عشرة آلاف من قومه البربر ، معهم ألفان من العرب ومتعربة المشرق . وقد خطب فيهم زياد بالعربية ، فهل كانت خطبه موجهة إلى العرب دون قومه البربر وهم الكثرة فى جيشه ، أو أنه كان يلقى الخطبة مرتين : إحداهما بالعربية والأخرى بالبربرية ؟

كل هذه الأسئلة تجعلنا نتردد فيما قيل عن طول المرحلة التى استغرقها تعرب الشعوب التى دخلت فى الإسلام .

وإذ نمضى فى التماس الجواب عنها نجد أن تاريخ علوم العربية والإسلام عرف أعلاماً من المتعربين من عصر مبكر : فعلم النحو يدين « لسيبويه » وهو فارسى الأب ، بـ (الكتاب) الإمام ، ومدرسة أبى حنيفة فى الفقه نهض بها رجال من العراق فى الطبقة الأولى من أصحاب المذهب . وجديدُ مذهب الإمام الشافعى ، حمله رجال مدرسته والطبقة الأولى منهم مصريون ، هجرةً أو تعرباً . وفقه الإمام مالك ، دوّنه « سحنون » حامل المذهب إلى المغرب . .

والقراء السبعة الذين انتهت إليهم الأمة فى قراءة القرآن ، ورجال الطبقة الأولى من القراء الذين تسلسل فيهم السند إلى الأئمة السبعة ، أكثرهم من الموالى ، لا من العرب الخلص. والموالى فى المصطلح التاريخى ليسوا العبيد الأرقاء وإنما هم من أبناء الشعوب المفتوحة الذين فرضت عليهم الدولة الأموية أن يلتحقوا بالقبائل العربية ولاء[1]..

وكل رجال الطبقة الأولى بعد الأئمة السبعة[2] ، الذين نجد فيهم إلى جانب العربى الصميم ، المصرىَّ والمغربى والخوارزمى والكوفى والفارسى ، من أعلام القرن الثانى للهجرة ، مما يشهد بأن العربية التى أخذت مكانتها من عصر الفتح لغةَ دين ودولة ، استقرت فى أقطارها الجديدة من الأجيال التالية للفتح الإسلامى مباشرة ، لغةَ ثقافة وأدب رسمى وشعبى ، مبتدئة من جيل

(١ ، ٢) الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء .

الذين ولدوا فى هذه الأقطار ، من العرب أو من نسب مشترك ، أو من أصول غير عربية .

وأيًّا ما كان الأمر ، فإن القرون التالية لهذا الاستقرار ما لبثت أن تلقت علماء من أبناء الشعوب المتعربة ، كانوا من أعلام المؤلفين والمصنفين ، لا فى العلوم الجديدة على العربية فحسب كالمنطق والطبيعيات والرياضيات ، ولكن فى علوم اللغة والبلاغة كذلك ، وفى علوم الإسلام : الحديث والرواية والفقه والمغازى والسير والقراءة والتفسير والتصوف . فنقرأ من طبقات النحاة واللغويين بعد سيبويه والكسائى أسماء : السجستانى ، والسيرافى ، وابن دستوريه ، وأبى على الفارسى . والأصفهانى ، والسرخسى ، والكرمانى والأنبارى ، والرازى . وابن خالويه . . .

ونقرأ فى طبقات المفسرين إلى القرن الخامس الهجرى ، أسماء : النيسابورى والبلخى والمصرى والإدفوى ...

وفيهم أئمة حملوا ألقاب : حبر الأمة ، وإمام العصر ، وشيخ المذهب ، وحامى السنة ، وتاج العلماء . .

والتاريخ الذى قدم كل هؤلاء الأعلام ، هو الذى صمت فى عصور ما قبل الإسلام ، لم يقدم إلينا عالماً مغربيًّا أو أديباً مصريًّا بالرومانية ، أو فقيها شاميًّا بالفارسية أو الرومية .

* * *

والسؤال الذى يواجهنا هنا : هل يمكن أن تظل العربية على حالها الأولى بعد أن اتسع مجالها فصارت لسان الشعوب الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ؟

لقد مر بنا ما كان من أثر المخالطة والجوار فى العصر الجاهلى الصميم ، ثم ما كان من تأثر العرب الخلص فى عصر الفتوح بالبيئات الجديدة التى

هاجروا إليها من منازل قبائلهم فى الجزيرة . ولا بد أن تكون المخالطة أعمق أثراً وأعم شمولا ، على ألسنة الشعوب المتعربة من وراء النهر إلى ساحل المحيط الأطلسى . . .

* * *

لو أن العربية كانت لغة الدين والدولة فحسب ، لما كان هناك مجال لأن تختلف فى مشرق عن مغرب ، أو تتفاوت فى الحواضر عن البوادى والريف والجبال . لكنها كانت كذلك لغة الثقافة والعلم والأدب والتأليف فى الأقاليم المختلفة ، وكانت لغة الحياة لجماهير الشعوب التى لا يصلها باللغة العليا غير القرآن الكريم .

ومرة أخرى ، تواجهنا هنا عقدة الإقليمية التى أشرنا إليها فى المدخل التاريخى ، بما شابها من خطأ الفهم وضلال المقاييس منذ اتخذ منها الاستعمار ذريعة تفرقة وأداة تمزيق لوحدتنا الجامعة . وقد ألقت العقدة ظلها على الدراسات العلمية التى تبحث فى الملامح المميزة للشخصية العربية فى كل قطر من أقطارها ، وترصد التيارات المؤثرة فى المناخ الروحى أو الفكرى واللغوى والأدبى ، لمناطق وطننا العربى الكبير . وصار من اليسير أن يُتهم أصحاب هذه الدراسات بالإقليمية ، فى مفهومها الخاطئ الشائع .

ويبدو غريباً أن الدراسة الفقهية تحررت من هذه العقدة ، وشُغلت بلمح الخصائص الإقليمية المميزة لبيئات المذاهب وشخصيات الأئمة ، فلا يجد عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، أدنى حرج فى أن يتحدث عن « جغرافية المذاهب الفقهية » ويؤيد « دراسة الفقه الإقليمى » ويعنى بها « تأثير الأقاليم الإسلامية فى هذه المذاهب التى استوطنتها وعاشت فيها » ثم يمضى فى الشرح قائلا :

« والواقع الذى لا مرية فيه . أن الفقه المذهبى قد تحلل فى كثير من

الأحيان من تلك القيود النظرية التى كانت للفقهاء الأول ، إلى مناهج قد تأثرت بالأقاليم التى انتشرت فيها المذاهب ، والمناطق التى استقر بها العمل فيها ، حتى اتخذ طابعاً إقليميا خاصاً فى تلك البلدان والأمصار ، شأنه فيه ككل كائن حى يخضع لعوامل الزمان والمكان . ومن أمثلة ذلك : القديم والجديد من مذهب الإمام الشافعى ، فالمشهور أن القديم هو ماقاله بالعراق إفتاء وتصنيفاً ، والجديد ما قاله بمصر .

« ومثل ذلك يقال عن المذهب المالكى ، فهناك طريقة للعراقيين وطريقة للمغاربة ، وأخرى للقرطبيين بالأندلس ، وطريقة رابعة لإقليم مصر ممزوجة من الأقاليم الأخرى .

« وفى العصور المتأخرة ، يختلف الفقه الشافعى فى مصر وجزيرة العرب عنه فى الملايو وإيندونيسيا ، اختلافاً بينا ، تبعاً للعادات والبيئات التى يعيش فيها المذهب . . . . .

« وإنه لمن الأوفق وثوقاً والأوثق توفيقاً ، التفكير فى تصنيف الفقه إلى مناطق تمثل كل منطقة منها وحدة جغرافية اجتماعية ، تقوم على أساس أن لكل منطقة مميزاتها فى نطاقها الاجتماعى والثقافى ، تبعاً للعادات والملابسات النفسية والاقتصادية والسياسية ، وأحوالها الطبيعية والجغرافية »[1]

وأضيف : إن تاريخ الفقه يعرف هذه الفروق الإقليمية ، فى مذاهب الفقهاء الأئمة الأولين ، لا فى المناطق التى انتقلت إليها فحسب . فمذهب الإمام أبى حنيفة اتجه إلى الرأى والقياس تأثراً بالبيئة ، وأخذ الإمام مالك بالأثر لوجوده فى المدينة التى عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة بعد الهجرة . والإمام الشافعى قرأ (موطأ الإمام مالك)

---

(١) انظر مقدمة الدكتور على حسن عبد القادر ، لكتاب أحمد تيمور (نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الفقهية الأربعة) ط لجنة نشر المؤلفات التيمورية ١٩٦٥ .

فى المدينة ، ثم تلقى مذهب أهل الرأى فى العراق ، على محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة ، ثم أقام بمصر ، فعدل عن الرأى إلى الحديث ، مع ميل إلى التحليل وحرية النظر ورد فروع المسائل إلى أصول ، وحصر الجزئيات فى كلية [١] .

* * *

أما الدراسة الأدبية واللغوية فما تزال تحمل أثراً من هذه العقدة التى تحررت منها الدراسة الفقهية ، برغم سبق القدامى من المؤرخين والنقاد ، إلى تقديم دراسات متخصصة فى أدب الأقاليم بالمشرق أو المغرب ، مثل « يتيمة الدهر » للثعالبى ، و « خريدة العصر » للعماد الأصفهانى ؛ و « الذخيرة » لابن بسام ، و « نفح الطيب » للمقرى التلمسانى .

وكان للمحاولة الجليلة التى قدمها أستاذنا « أمين الخولى » [٢] فى تحرير نظرية الإقليمية فى فهم الأدب وتاريخه من الظلال التى شابتها ، أثرها الهام فى توجيه هذا الجيل من الجامعيين إلى الدراسات المتخصصة فى آداب الأقاليم العربية ومناطق كل قطر منها .

فلا حرج علينا إذ نحن مضينا فى لمح العوامل الإقليمية التى أثرت فى لغتنا من قديمها المعروف لنا إلى عصرنا الحاضر .

* * *

ليس من السهل أن يتتبع الراصد سير العربية فى أقطارها الجديدة . فالحياة اللغوية تخضع لمؤثرات شتى قديمة وطارئة ، مناخية ومزاجية وبيولوجية ، متشابكة فى نسيج معقد .

ويمكن مع هذا أن نجمل القول فى سير الحياة بلغتنا ، فنراها كانت

---

(١) انظر الجزء الأول من كتاب (مالك بن أنس : ترجمة محررة) للأستاذ أمين الخولى. ط الحلبى بالقاهرة . وكتاب (الإمام الشافعى) ، للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٢) فى كتابه : فى الأدب المصرى . ط المعارف بالقاهرة .

محكومة بتيارين متقابلين : أحدهما يشدها إلى أصيلها القديم ويرى فى أى خروج عليه ظاهرة فساد ونذير خطر ، بل يعد الزمن نفسه عدواً لها !

ويشدها تيار آخر إلى مجرى الحياة الدائب المتدفق ، منطلقاً بها مع الزمن لا تتوقف .

والتياران . على بعد ما بينهما ، يحدثان نوعاً من الاتزان بين قديم يحمى الأصالة ، وجديد يمدها بالحيوية ويساير بها الزمن ، ويقاوم الجمود ، عدو الحياة . .

* * *

ومن حيث وقف التاريخ يرصد حركة هذا التحول اللغوى الخطير ، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التى عصيت من قبل على أى غزو لغوى خارجى . وقف أصحاب العربية يشفقون عليها من هذه المخالطة المباشرة .

ومن حيث أرهف الزمن سمعه ليصغى إلى العربية ينطق بها فى ريف مصر والعراق والمغرب ، وعلى سفوح لبنان وقاسيون والأطلس وأوراس . والبداة فى الصحارى المنعزلة بعيداً عن السواحل والوديان ، أرهف حماة العربية سمعهم لالتقاط أى لحن أو شائبة من عجمة تشوب هذا اللسان الشريف الذى نزل به القرآن الكريم . كتاب الإسلام ومعجزة نبيه عليه الصلاة والسلام .

واللغة العربية ماضية فى حركتها تتسع وتنمو وتتلقى جديد الروافد فى مرونة سخية . وحراسها ساهرون عليها لحماية أصالتها .

وأخذت الحياة اللغوية مجراها فى جانبين :

الفصحى العالية المشتركة . لسان العربية دينا ودولة وثقافة وعلماً وأدباً .

ولهجاتها الإقليمية على ألسنة الشعوب المتعربة .

أما الفصحى . فكانت الحركة المضادة لاختلاط الألسن وتيارات الغزو

الشعوبى . هى حركة الجمع والتدوين التى ازدهرت فى القرن الثانى الهجرى وأخذت وضعاً دينيًّا وقوميًّا بالغ الخطر . وقد استطاعت حركة الجمع أن تأتى بقدر كبير من تراث الجاهلية ، حيث العربية فى وطنها لم تختلط بالألسن ولم تشبها شائبة عجمة . وشد الرواة رحالهم إلى البادية والمناطق البعيدة نسبيًّا عن التيارات الوافدة ، ليأخذوا من أفواه الأعراب ما وعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد . ولم يفت أولئك الرواة ما لحق بالشعر من آفات الوضع والانتحال . غير أن الحركة كان لها من الحرمة ما يصونها إلى حد كبير من عبث الأهواء وتزييف المرتزقة من الرواة ، ويخضعها لرقابة دقيقة صارمة كشفت عن أكثر الزائف والمنحول ، وميزت رواة عرفوا بالضبط والثقة والأمانة ، وجرحت آخرين بالتهاون أو الكذب والوضع . ذلك لأن حركة الجمع والتدوين قُصد بها أول ما قصد ، إلى حماية لسان الأمة وخدمة كتاب الإسلام وفهم ألفاظه وتوجيه إعرابه ولمح أسراره فى التعبير والبيان ، وقامت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة على أيدى رُواة أئمة ، من الخبراء ذوى البصر بالشعر « يعرفون صحيحه من زائفه كما يعرف الجوهرى والصيرفى صنوف الدرهم والدينار » بنص عبارة ابن سلام فى مقدمة (طبقات الشعراء) .

والذى فات أولئك الخبراء كشفُه من المنحول ، كان من مهارة التقليد بحيث يحمل خصائص الأصل[(١)] .

واستطاعت هذه الحركة التاريخية أن تستخلص للفصحى معجم ألفاظها وقواعد نحوها واشتقاقها وخصائص أساليبها وضوابط شعرها . والقرآن الكريم فى قمته العليا ، يجلو العربية فى ذروة نقائها ومعجز بيانها .

ومعروف أن علماء اللغة حاولوا أن يقفوا فيما يعتمدون من شواهد

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، الفصل الأول .

واقرأ معه الفصل الأول من (تراثنا بين ماض وحاضر) مطبوعات المعهد ١٩٦٨ .

لغوية ، عند تراث العصر الجاهلى وصدر الإسلام ، وتحاشوا الأخذ عن المولدين ولو كانوا فى مثل فصاحة بشار . لكن العربية لم تجمد عندما أراده لها اللغويون ، بل تابعت نموها وتوسعها لتفى بحاجات الحياة اللغوية للدولة الإسلامية الكبرى ، وفرضت على المعجميين أنفسهم ألا يقفوا عند رصيدها الذى جاءت به حركة الجمع .

* * *

والفصحى كانت اللغة العليا المشتركة ، لشعوب تباعدت أصولها واختلفت أقاليمها وتفاوتت أمزجتها وميراثها الفكرى والثقافى والحضارى .

فهل كانت فى المجال الثقافى والأدبى ، محصنة بمناعة تحميها من التأثر بالعوامل الإقليمية ؟

أشرنا فى المدخل التاريخى إلى أن الشعوب المتعربة حملت معها تراثها الثقافى والحضارى .

كما كان للمزاج المحلى والتراث الروحى أثره فى الفرق الإسلامية والاتجاهات الروحية ، فتأثر مناخ العراق مثلا بتراثه القديم وبالتيارات الوافدة من الشرق الأسيوى ، واستقر به المذهب الشيعى بما دخل عليه .

وظهرت الصوفية فى مصر متأثرة بمزاجها الدينى الصافى ، ووجدانيتها المتوهجة.

وفى المجال اللغوى تميزت مدارس معروفة فى النحو والبلاغة ، فى الكوفة والبصرة وبغداد ومصر . واضطلع المغرب بدور جليل فى الدراسات الإسلامية لموقعه الهام على تخوم دول مسيحية .

واتسعت العربية لهذه الآفاق المترامية ، فكانت لغة العلم والثقافة والأدب لشعوب الدولة الكبرى .

وسبقت الإشارة إلى أن العربية فى آفاقها الجديدة كانت محكومة بتيارين من المحافظة والتجديد ، يكفلان لها نوعاً من الاتزان ، على بعد ما بينهما .

وقانون حفظ الذات ، يرفض التخلى عن أصيل العربية كما عرفته فى عصر نقائها .

وقانون الحرص على البقاء يستجيب لكل دواعى النمو والتطور ، ولو كان ذلك على حساب ما هو أصيل وعريق .

ولقد استطاعت العربية بمرونة فائقة ، أن تتحاشى أزمة موقفها بين القديم الأصيل والمحدث الطارئ ، بتطويع دلالات الألفاظ والتوسع فى المجاز ، لكى تؤدى المعانى الجديدة التى لم يكن للعرب عهد بها من قبل . وكانت تجربتها التى أثْرَتْها بالمصطلحات والألفاظ الإسلامية من عصر المبعث إلى عصر الفتوح ، قد نجحت تماماً فى هذا التطويع للغة الجاهليين الوثنيين ، دون أن تجد مشقة أو عسراً لتكون لغة الأمة الإسلامية(١) .

والقرآن الكريم قد تكفل بالقدر الأكبر من تطويع ألفاظ العربية للدلالات الإسلامية ، فسار المسلمون فى العهد الأول على الهدى القرآنى ، فوضعوا مصطلحات علوم السنة والحديث والفقه والأصول والمذاهب والنظم الإسلامية . كما طوعوا ألفاظ الفصحى الجاهلية للدلالات الاصطلاحية التى احتاجت إليها علوم النحو واللغة والعروض والبلاغة وسائر علوم العربية .

وكان الاتجاه السائد فى تلك المرحلة ، الاستغناء بالمجاز والتوليد والاشتقاق عن الدخيل إلا عند الضرورة . وكانت العربية كلما احتاجت إلى الدخيل ، سارت على نهجها فى تعريب ما تأخذ منه ، بتغيير اللفظ أو الصيغة ، وإلحاقه بآخر عربى ، كى تضع على المعرّب طابعها وتتصرف فيه بالإعراب ، واشتقاق الأفعال والمصادر وسائر المشتقات ، وإجراء الصيغ العربية عليه فى التثنية والجمع والتذكير والتأنيث والتصغير والنسب . . .

وبلغ من دقة ضوابط التعريب ، أن استطاع اللغويون استخلاص القوانين التى كانت العربية تجرى عليها فى تعريب الدخيل وإلحاقه

---

(١) السيوطى : المزهر فى علوم اللغة — ص ٢٩٤ وما بعدها .

والتصرف فيه . كما استطاعوا من العصور الإسلامية الأولى ، استنباط قواعد لمعرفة المعرب والدخيل ، والقيام بمحاولات إحصائية لحصر ألفاظهما وردها إلى أصولها من اللغات الأخرى[1] مما يشهد بأن حركة الأخذ والتعريب فى مراحلها المتقدمة كانت محدودة المجال والنطاق ، لا سيما فى اللغة الفصحى المشتركة المعترف بها على مستوى الدولة ، فى الأدب والعلم والتأليف.

* * *

لكن اتساع الدولة الإسلامية وتدفق الدماء الجديدة فى شرايينها ، جعل من الصعب أن يظل الأمر على ما كان من حصر الدخيل أو المعرب فى النطاق الضيق . فالأمم التى أسلمت وتعربت ، كان لها ميراث فكرى وعلمى احتاجت إليه الدولة ، وفرضه تطور النظم الإدارية والسياسية فى الحكم ، مع سيادة العربية واستقرارها لسانا للشعوب التى هجرت ألسنتها الأولى إلى لغة القرآن .

وبدا من الضرورى أن تتوسع العربية فيما ضيقت من باب الدخيل والمعرب. وتقدم أبناء الأقطار الإسلامية ممن تعلموا العربية ، ينقلون إليها ذخائر التراث القديم للأمم العريقة فى العلم والحضارة ، فى علوم جديدة تماماً على العربية ، لم تكن قد مارستها أو اتصلت بها قبل الفتح .

وحركة النقل بدأت مبكرة فى العصر الأموى برعاية أمير مستنير مثقف من الأسرة الحاكمة ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » ثم نشطت الحركة فى العصر العباسى الأول تحت رعاية الدولة ولحسابها ، وتحمل بيت المال النفقات الباهظة لحركة الترجمة التى أخذت وضعاً رسمياً بالغ التنظيم والدقة ، واستكملت أجهزتها من الخبراء والمترجمين والمراجعين والخطاطين والنساخين . ولم تدخر الدولة وسعاً فى التماس كنوز المعرفة القديمة من مظانها . فنقرأ

---

(١) تجد هذا كله بتفصيل ، فى كتب : المعرب للجواليقى ، وشفاء الغليل للخفاجى ، والباب التاسع عشر من (المزهر) للسيوطى .

فى تاريخ عصر الرشيد أنه ألف هيئة علمية بإشراف « ابن ماسويه » مهمتها تقدير التعويضات التى تدفعها الدول المهزومة من ذخائر كتبها . ونظم « المأمون » مجمعاً علمياً للترجمة ، فيه أعلام المترجمين والخبراء فى الفلسفة والرياضة والطبيعة والفلك والطب وسائر العلوم التى عرفها القدماء [1] .

وسايرت العربية هذه الحركة التاريخية ذات الأثر البعيد فى الحياة الفكرية واللغوية والحضارية ، فاستوعبت تراث الأمم القديمة لم تكد تدع منه شيئاً ذا بال :

ولا أطيل الوقوف عند الجدل الذى أثير حول ملكية هذا التراث العلمى الفكرى . وقيل فيه إن التاريخ لم يعرف للعرب قديماً فى الحضارة والعلم [2] ، بل يكفى أن ألفت إلى الحقيقة التاريخية التى تجعل من تراث الشعوب المتعربة تراثاً للأمة العربية المكونة من هذه الشعوب . وأن ماضيها الحضارى هو ماضى الأمة الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . ثم إن تراث اليونان نفسه . مدين لتراث الشرق القديم حيث قامت حضارات عريقة رائدة ، هى فى الواقع التاريخى ميراثنا جميعاً ، نحن الذين عرّفنا التاريخُ أمةً واحدة من القرن الأول للهجرة .

الذى يعنينا هنا ، هو أن العربية استوعبت ذلك التراث العلمى كله ، وتمثلته ، وأدته إلى الإنسانية فى لسانه العربى وروحه الإسلامية . كما أضافت إليه رصيد علماء الدولة الإسلامية الذين تتابعوا على الميدان بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة بين العلم والدين . فقدموا جديداً من العلوم الطبيعية والرياضية . ودخلوا التاريخ العلمى رواداً لآفاق لم يستشرف لها مَن قبلهم .

وتلقت المكتبة العربية أوليات الكتب العلمية التى ألفها الرواد فاستطاعت

---

(١) يمكن أن يعد « الفهرست لابن النديم » مرجعاً قريبا لثمار حركة الترجمة الكبرى .

(٢) عرض الدكتور توفيق الطويل لهذه القضية فى الباب الأول من كتابه (العرب والعلم) النهضة العربية ١٩٦٨ .

أن تؤدى كل مصطلحات العلوم الرياضية فى الحساب والجبر والفلك والملاحة . وأن تستوعب المصطلحات العلمية فى الطب والطبيعة والكمياء والجغرافيا والصيدلة والنبات ، فى مثل مؤلفات جابر بن حيان وابن يونس والبيرونى والخوارزمى والحسن بن الهيثم وابن البيطار والشريف الإدريسى ، وأبى بكر الرازى وابن سينا والزهراوى والفرغانى والبتانى ونصير الدين الطوسى والإدريسى وأحمد بن ماجد ، ومن لا أحصى من علماء عصر النهضة الإسلامية التى أخذت الدور القيادى للحضارة الإنسانية فى العصر الوسيط .

وفى كتاب « كشف الظنون » لحاجى خليفة ــ ط استانبول ١٩٤٢ ــ ما يعطيكم فكرة وافية عن مدى الطاقة التى مكنت للعربية من أن تترك مثل ذلك الرصيد الضخم من المؤلفات فى شتى فروع العلم والمعرفة والأدب ، مع تقدير أن هذا الذى فى الكتاب ، هو ما بقى لنا إلى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى من ذخائر تراثنا ، بعد أن لقى أكثره مصيره الفاجع فى حروب الصليبيين وغزو التتار ، وفى الصراع السياسى والدينى والمذهبى الذى ألقى بكنوز المكتبة العربية والإسلامية وقوداً لنار الحقد والتعصب والجهل . . .

* * *

ومن الخطأ الفاحش ، أن يُرَدَّ علماءُ الأقطار الإسلامية إلى أصولهم البعيدة التى كانت شعوبهم تنتمى إليها قبل الإسلام ، أو إلى سلالاتهم الأولى من عهد سام وحام ويافث !

وهى دعوى خاطئة تسللت إلى فكرنا المعاصر من الغرب المستعمر ، كما تسللت إليه قبلها فكرة السامية التى ألقى اليهود بذرتها فى العصور الوسطى .

فمنذ حط الغربيون أعينهم على بلادنا راحت مطابع الاستعمار من القرن الماضى تخرج مؤلفات لسلخ علماء الدولة الإسلامية من قوميتهم العربية الجامعة ، وردهم إلى أصول قديمة فارسية أو يونانية أو هندية أو مغربية ، وهى الأصول التى قرر التاريخ أن عناصرها ذابت جميعاً فى شخصية واحدة وقومية مشتركة للأمة الإسلامية .

وفى أقصى الطرف المقابل ، وقف آخرون يخلعون عن الحضارة الإسلامية صفتها الحقيقية ويردونها إلى العربية[١].

والحق التاريخى أن هذه الحضارة العلمية كانت إسلامية شاركت فيها كل شعوب الدولة ، واستطاعت اللغة العربية أن تستوعبها وتؤديها باقتدار .

والمسألة هنا لا تقف عند الثراء اللغوى ، بل تمتد أبعادها إلى الفكر والثقافة والحضارة ، وقد اتسعت العربية لهذه الآفاق المترامية ، وتلقت من الأقطار الإسلامية ثماراً خصبة شارك فيها العلماء من مشرق ومغرب .

وما كان يمكن أن تنهض بكل هذا لولا مرونة طبيعية فيها استجابت بها للحياة ، وحيوية سخية حمتها من الجمود وأعانتها على القيام بدورها الجليل ، فلم تتحرج من إضافة معربات جديدة واقتباس أساليب محدثة وتحقيق الوجود اللغوى لشعوب اختلفت أقطارها وتفاوتت بيئاتها وتناءت أصولها البعيدة .

وعلى المدى الطويل ، ما بين العصر الجاهلى والعصر الوسيط ، جَدَّ على العربية ما جد من مقتضيات التطور وسير الزمان ، وهُجرت ألفاظ وصيغ من صميم الفصحى لم تتقبلها الحياة ، واستُحدِثت دلالات جديدة لألفاظ من الفصحى دخلت من الباب الواسع للمجاز . وتأثرت الأساليب فى التعبير والبيان بالمناخ المعنوى والمادى ، على اختلاف الزمان والمكان ، واستُحدِث الأسلوب العلمى والفلسفى إلى جانب الأسلوب الفقهى والأدبى .

* * *

وعلى ذلك المدى الطويل أيضاً ، كان علماء اللغة ساهرين على حراستها يشتدون فى رقابتهم على الأقلام والألسن . وإذا كان العصر الأموى قد شهد نوعاً من هذه الرقابة على الشعراء المولدين من العرب ، فإن الخرق اتسع

---

(١) د . توفيق الطويل : « العرب والعلم » ص ٢٠ : ٢٥ .

على الراقع بعد أن قويت المخالطة اللغوية وصارت العربيةُ اللسانَ القومى للأقطار المتعربة ، دولة وشعباً . ولم يسلم خاصة اللغويين أنفسهم ، من أعلام الطبقات الأولى ، من عثرة لسان أو زلة قلم [١] .

ولم يدعُ هذا إلى اليأس من الرقابة أو التخفيف منها ، بل لعلها زادت حدة وصرامة مع تدفق مجرى الحياة اللغوية . حتى صار الأمر إلى خصومة حادة بين حراس الفصحى وبين المؤلفين والأدباء .

ومن عصر التدوين بدأت المكتبة العربية تتلقى مؤلفات فى مآخذ علماء اللغة ، على أقلام الخاصة وألسنتهم .

وكتاب « الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء » للمرزبانى ، يتتبع هذه المآخذ على ألسنة الشعراء وهم من خاصة أصحاب فن القول ، لا يقف عند المولدين منهم ، وقد سبقت الإشارة إليهم ، بل يمضى مع الشعراء المحدثين من بشار بن برد إلى ابن الرومى .

والمرزبانى توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة (٣٨٤ هـ) والعربية ماتزال فى أوج نهضتها ، والدولة الإسلامية لم تدخل بعد فى عصر الضعف والهبوط .

وفى تراثنا ، من كتب الرقابة على الخاصة من المؤلفين ، رواة ومحدثين وأدباء :

« تهذيب اللغة » لأبى منصور الأزهرى .

« تهذيب الأسماء واللغات » ليحيى النووى .

« إصلاح المنطق » لأبى يوسف يعقوب بن السكيت .

« إصلاح غلط المحدثين » لأبى سليمان الخطابى .

« تصحيف المحدثين » و« شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » لأبى أحمد العسكرى .

« تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » لصلاح الدين الصفدى .

---

(١) اقرأ مثلا من ذلك ، ترجمة الكسائى فى (طبقات المفسرين للسيوطى) ومشهد المحاكمة اللغوية لأبى على الفارسى فى المحشر ، برسالة الغفران – ص ٢٥٤ – ط ٥ ذخائر العرب .

« التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الأصفهانى .

« التنبيهات على أغاليط الرواة » لعلى بن حمزة البصرى .

« التنبيه على أوهام أبى على القالى فى أماليه » لأبى عبيد البكرى .

« درة الغواص فى أوهام الخواص » للقاسم بن على الحريرى .

« تثقيف اللسان » لابن مكى الصقلى – من لغويى القرن الخامس للهجرة ، ت ٥٠١ هـ – ومن أبوابه : "باب ما خالفت فيه الخاصة العامة وجميعهم على غلط" وأبواب فى لحن الخاصة ، منها : "باب غلط قراء القرآن ، وأهل الحديث والفقه ، وأهل الوثائق ، والطب ، والسماع "(١) .

والأمر مع ذلك ، يفوت الاستقصاء ، فقاموس الفيروزابادى عليه حاشية للشيخ نصر الهورينى ، تصحيحاً واستداركاً .

وابن سيده فى (المحكم) لا يكاد يدع مادة تمضى دون تتبع أغلاط اللغويين فيها وقذفهم بالجهل والغفلة . وكتب الشروح والحواشى النحوية مليئة بالطعن والتجريح . وكتب المفسرين اللغويين والبلاغيين – كالبحر المحيط لأبى حيان ، والتفسير الكبير للفخر الرازى – تحمل آثار الخلاف الحاد بينهم ، يخطئ بعضهم بعضاً ويرد بعضهم على بعض .

وكتب المدارس النحوية والبلاغية ، تكاد تقوم على الجدل بينهم فى أوجه الخلاف ؛ وكتب النقد الأدبى ، تضع فى ميزان الترجيح بين الكتاب والشعراء ما أُخِذَ عليهم من سقطات لغوية ، وخروج على سنن الفصحاء فى الأساليب !

ويكفى لبيان صرامة هذه الرقابة اللغوية ، من حراس الفصحى فى تتبع عثرات الألسنة وسقطات الأقلام ؛ أن نجد من اللغويين أنفسهم مَن

---

(١) من باب ٣٥ : ٤٠ فى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٥٦ تحقيق د . عبد العزيز مطر .

تصدوا للرد عليهم ، وألفوا كتباً فى تصحيح ما عدوه خطأ، أو التماس وجه للصواب فيه .

فكتاب الحريرى (درة الغواص فى أوهام الخواص) رد عليه ابن الخشاب وابن برى ، وألف «الشهاب الخفاجى» — وهو من معاصرى الحريرى، ت٥١٦هـ — كتاب (شرح درة الغواص)[١] لبيان أوهام الحريرى فى أوهام الخواص !

ثم جاء العلامة « الألوسى » ، فأخذ فى كتابه (كشف الطرة عن الدرة) موقفاً وسطاً بين الحريرى والشهاب الخفاجى : أقر من درة الغواص بعض أوهام الخواص ، وسلم ببعض ما ردّه الخفاجى منها فى شرح الدرة .

وما ذكره « ابن مكى الصقلى » فى (تثقيف اللسان) من أغلاط الخواص ، رد عليه « ابن هشام اللخمى » ، — وهو قريب من عصره ، ت ٥٧٧ هـ — فى كتابه (المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان)[٢] .

ونوشك أن نقول إن مدار أكثر الخلاف بينهم ، كان على القواعد التى وضعها النحاة أكثر مما كان على سنن الفصحى ذاتها ، كما يبدو بوضوح فى كتاب (الإنصاف فى مسائل الخلاف) لابن الأنبارى و (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبى .

* * *

وما من شك فى أن تشدد اللغويين فى رقابتهم ، كان ضرورياً لكبح التهاون فى الفصحى أو الخروج على سننها ، وقد كانوا يمثلون التيار المحافظ الذى لم يكن منه بُدٌّ لكى يحمى أصالة العربية .

فى الوقت الذى مضت اللغة فيه تساير الزمن وتستجيب لتجدد الحياة واتساع آفاقها ، كى تبقى ولا تموت .

---

(١) ط الجوائب ، سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢) مخطوط بمكتبة الإسكوريال ، ومنه بمصر نسختان مصورتان بعنوان (الرد على كتاب لحن العامة للزبيدى ، وتثقيف اللسان) .

وما كان يبدو من صدام بين التيارين ، هو الذى حفظ التوازن لهذه العربية الفصحى التى حققت وجودها اللغوى متصلة بأصيلها النقى العريق ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء .

* * *

ومن ناحية أخرى ، أخذت لغة الحياة والتعامل حريتها فى الحركة والتوسع ، فتخلت عن كثير من قيود الإعراب مستغنية عنها بنسق التركيب ودلالة السياق ، وطوعت الصيغ لمواجهة عوامل صوتية جبرية فرضتها طبيعة الأجهزة الصوتية لشعوب تفاوتت مسالكها اللغوية وميراثها فى الأداء . مع اتصالها فى الوقت نفسه بالفصحى العليا لغة القرآن الكريم . ومن ثم أتيح للعربية هذا الانتشار الواسع وطاعت بها ألسنة الشعوب المتعربة مستغنية عن الدرس والتلقين .

فلنُلْقِ على العربية ولهجاتها الإقليمية نظرة متأنية تزيد القضية وضوحاً وبياناً .

العَربيّة ولهجاتها الإقليميّة

أخذت الشعوب المتعربة لسان عربيتها عن القبائل العربية المختلفة التى خالطتها، وكان للعوامل الإقليمية الخاصة أثرها فى كل اللهجات الشعبية المحلية .

لكنها ظلت مع ذلك تتصل بالفصحى العليا فى القرآن الكريم الذى حفظ لجماهير الشعب سليقتها اللغوية ، وأرهف ذوقها ببيانه المعجز .

من أين أخذت الشعوب المتعربة لغتها الجديدة ، فى البوادى والحضر والريف والجبال ؟

الطبقات المتعلمة ، هى التى التقت فى الفصحى لغةَ دراسة وتأليف ، أما عامة الشعوب المتعربة فأخذت اللغة عن القبائل العربية التى نزحت إلى الأقطار المفتوحة فى هجرات جماعية ، واستقرت فيها وخالطت أهلها وامتزجت بهم .

ولم يكن استقرار الهجرات العربية فى مواطنها الجديدة يمضى فى عشوائية مرتجلة ، بل كان يخضع لنظام دقيق يحدد لكل جماعة خطتها حيث تنزل وتقيم ، كما كان يحدد للكتائب المرابطة منازلَ ارتباعِها داخلَ البلاد .

والتوزيع والتخطيط ، قاما أساساً على نظام القبيلة ، وهو المبدأ الذى استقر عليه الوضع من بداية الفتح . فى مصر مثلا نقرأ فى (النجوم الزاهرة)[1] أن عمرو بن العاص لما بنى الفسطاط تجمع أبناء القبائل — كل قبيلة على حدة — وراحت تتنافس على اختيار مواضعها فى المدينة الجديدة ؛ فبادر « عمرو » وعين أربعة من كبار الصحابة ، من قبائل مختلفة ، مشرفين على عملية توزيع القبائل على منازلها « فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل » .

وكذلك فى مرتبع الجنود المرابطين ، كان الجنود من كل قبيلة يخرجون فى الربيع إلى منازل معينة حُددت لهم ، على ما ذكر « ابن عبد الحكم » فى (فتوح مصر)[2] .

ثم إن القبائل كانت تتنافس على بناء مساجد لها ، إلى جانب المسجد الجامع . وفى (خطط المقريزى) أن عمر بن الخطاب لما افتتح البلدان كتب إلى ولاة البصرة والكوفة ومصر ، يأمر كلا منهم « أن يتخذ مسجداً للجماعة ، وتتخذ القبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة » .

وكان لكل قبيلة عريفها ، يشرف على أمورها العامة . ونقرأ فى كتاب (القضاة

---

(١) لأبى المحاسن ، ابن تغرى بردى : ١ / ٦٥ ط دار الكتب المصرية .

(٢) ذكر مرتبع الجند — ص ١٣٩ .

والولاة ، للكندى) أن القاضى عبد الرحمن بن معاوية بن خديج — ت ٨٦هـ — جعل أموال اليتامى على أيدى عرفاء القبائل ، وجعلهم مسئولين عنها .

وليس ههنا مجال الحديث المفصل عن هذا الوضع وآثاره السياسية والاجتماعية (١) ، وإنما الذى يعنينا هو أن ندرك أثر هذا الوضع على حركة التعرب ، من حيث أخذت الشعوب المتعربة لسان عربيتها من مئات القبائل الموزعة على الأقطار الإسلامية . والقبائل قد هاجرت بلغاتها إلى منازلها الجديدة فكان أن اختلفت اللهجات المحلية للمتعربين باختلاف لغات القبائل التى نزلت بينهم وأصهرت إليهم وامتزجت بهم .

وأكثر ما بين لهجات العربية من اختلاف ، يرجع أصلا إلى اختلاف لهجات القبائل ، ثم كانت هناك عوامل إقليمية لا يمكن تجاهلها ، تركت آثارها فى لهجات الشعوب المتعربة ، على النطاق الواسع من قلب الشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى والأندلس ، فأخذت حريتها فى التعبير بلسانها العربى على سجيتها دون أن تلتزم قيود الفصحى فى الإعراب والاشتقاق والتصريف . وكل هذه اللهجات تطور مستحدث تعربت فيه ألسنة العامة بقدر ما واتتها طبيعتها وأسعفتها حناجرها ، وتطلبت حياتها .

غير أنه لاينبغى أن يغيب عن بالنا ، أنه بقدر ما كانت هناك عوامل إقليمية تختلف بها لهجات الشعوب العربية ، كان هناك عامل موحد مع كل هاتيك المؤثرات المحلية ، يحقق نوعاً من الاتصال بين الفصحى ولهجاتها من ناحية ، وبين اللهجات المختلفة ، بعضها ببعض ، من ناحية أخرى :

كان هناك القرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً ، على اختلاف لهجاتهم وأقاليمهم وتفاوت بيئاتهم المادية والمعنوية ، يتلونه فى صلواتهم ، ويسمعونه يتلى عليهم فى المساجد والبيوت ، فى الحواضر والثغور وفى نجوع البوادى وقرى الريف والجبال ، فيلتقون فيه على الفصحى فى أنقى أصالتها وأعلى بيانها .

---

(١) تقرأ هذا بتفصيل فى كتاب (القبائل العربية فى مصر) للدكتور عبد الله خورشيد البرى .

وما من أثر إقليمى استطاع أن يعطل نفوذ هذا الكتاب الجامع الموحد ، أو يحول دون اتصال لهجة محلية ، مهما تكن عزلتها ، بكتاب العربية الأكبر .

لا يقتصر الأمر فى هذا الاتصال على الألفاظ الدينية التى دخلت فى كل اللهجات الشعبية ، وإنما يمتد إلى إلف المتعربين للغة القرآن لطول ما يتلونه أو يتلى عليهم ، بحيث صار فى استطاعة أى متعرب ، من العراق إلى المغرب ، أن يسمع اللغة الفصحى فى المحافل والمنابر والمواسم الدينية ، فلا يحس غربة عنها أو جفوة لها .

والأمر هنا أيضاً لا يقتصر على المتعلمين ممن تفصحوا بالعربية ، بل يتجاوزهم إلى عامة الأمة ، فى جماهير الأميين الذى لم تنقطع صلتهم قط بالفصحى العليا : القرآن الكريم ، قمة الفصحى ومعجزة البيان .

وإذا كان اللغويون قد حاولوا تتبع ما فى عاميات العربية من لحن ، كما فعل الكسائى ، وأبو بكر الزبيدى فى (لحن العامة) ، وابن مكى الصقلى فى بعض أبواب من كتابه (تثقيف اللسان) ، فالمحاولة فى ذاتها تشهد بأن عاميات العربية كانت مرجوة لديهم لأن تخضع للرقابة فلا تخرج على سنن الفصحى [1] .

والذى سبقت الإشارة إليه من مآخذ علماء اللغة على الخواص ، يجب أن يوضع فى التقدير حين تلقانا كتب القدامى فى لحن العامة .

ولم يخل الميدان كذلك من محاولات للرد على اللغويين فيما عدوه من أغلاط العامة وأوهامهم ، كالذى فى كتاب ابن هشام اللخمى (الرد على الزبيدى فى لحن العوام) وكتاب (المدخل إلى تقويم اللسان) فى الرد على ابن مكى الصقلى . وابن مكى نفسه ، قد ساق فى كتابه أبواباً فى لحن العامة والخاصة ، كما عقد أبواباً أخرى لافتة إلى :

" ما تنكره الخاصة على العامة ، وليس بمنكر " .

---

(١) نشر الأستاذ المحقق حسن حسنى عبد الوهاب ، عام ١٩٥٣ رسالة لمؤلف تونسى مجهول من القرن التاسع الهجرى ، عنوانها : (الجمانة فى إزالة الرطانة) المعهد الفرنسى بالقاهرة .

" ما خالفت فيه العامةُ الخاصةَ ، وجميعهم على غلط " .

" ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحَهما " .

" ما العامة فيه على الصواب ، والخاصة على الخطأ " .

كما ظهرت محاولات لرد العاميات إلى أصولٍ من اللهجات العربية ، أذكر منها فى لغة مصر مثلا :

(رفع الإصر عن كلام أهل مصر) ليوسف المغربى . وقد اختصره ابن أبى السرور الصديق الشافعى - ت ١٠٨٧ هـ - فى كتابه :

(القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مِصر من لغات العرب) [١] .

وتابع المحاولةَ ، فى الألفاظ والبلاغة والأمثال : الأستاذ سليمان محمد سليمان فى كتابه (العامية فى ثياب الفصحى) [٢] الذى يقدم أدلة من الشواهد والنصوص ، على أن كثيراً مما يبدو لنا من أخطاء العامية المصرية ، يرجع فى الغالب إلى اختلاف فصحى قريش عن لغات القبائل العربية التى أخذ منها المصريون فى مرحلة التعرب ، لسانَ عربيتهم .

كما نجد فيما قدمه « ابن مكى الصقلى » مما يخطئ فيه الخاصةُ : والعامةُ على صواب ، شاهداً على أن جماهير العامة سَلِمَتْ لهم إلى حد ما ، سليقتهم اللغوية بفضل اتصالهم بالقرآن الكريم ، وإن لم يأخذوا العربية تلقيناً وصنعة ،

ويبدو من دراسة اللهجات المحلية للعربية ، أنها فيما مارست من حرية التطويع والتصرف ، لم تُترك لفوضى عشوائية . بل كانت هذه اللهجات من حيث تدرى أو لا تدرى ، حريصة بقدر الإمكان على ألا تخرج عن العربية الأم ، وقد وجدت فرصتها فى اختلاف لهجات القبائل العربية الوافدة إليها ، فمارست نوعاً من الاختيار التلقائى لما يناسبها من تلك اللهجات .

* * *

(١) نشرته وزارة الثقافة المصرية فى سلسلة (تراثنا) تحقيق السيد إبراهيم سالم .

(٢) مطبعة الفكرة بالقاهرة ، ١٩٣٩ .

خلاصة ما ألفت إليه فى هذه المحاضرة عن العربية فى أقطارها الجديدة . هو أن الشعوب المتعربة أخذت لسان عربيتها من لغات القبائل المختلفة التى خالطتها ، وكان للعوامل الإقليمية الخاصة أثرها فى كل لهجة من اللهجات المحلية ، لكن القرآن الكريم كان يجمع هذا الشتات المتفرق عند لغته العليا التى مكنت للفصحى من أسماع هؤلاء المتعربين وألسنتهم ، وأعطتهم العربيةَ سليقة لغوية مرهفة الحس .

ولم تحل اللهجات الشعبية دون فهم العامة لما يسمعون من نصوص الفصحى فالجماهير التى تصلى الجمعة فى المساجد الإسلامية على الساحة الكبرى ، كانت تفهم خُطب الأئمة والوعاظ دون شرح ، وقادة الجيوش فى المعارك الإسلامية كانوا يخطبون فى جنودهم باللغة الفصحى : وشعراء الحروب الصليبية وخطباؤها ، ألهبوا وجدان الجماهير بقصائدهم وخطبهم بالفصحى ؛ ودعاة المذاهب والفرق كانوا يتصلون مباشرة بالعامة ، ويؤثرون فيهم بالكلمة ، وما كانوا يتكلمون إلا باللغة العربية المبسطة .

* * *

ومهما تختلف اللهجات المحلية ، فقد بقيت العربية الفصحى اللغةَ العالية المشتركة . وقد كانت هناك رقابة شديدة صارمة لحمايتها ؛ لكنها لم تتوقف لحظة عن الحركة والنمو فى عصور نهضتها ، ولم تجمد عند قديمها معاندة للتطور ، بل استجابت لدواعى الحياة فكانت لسانَ الأمة فى الدولة الإسلامية الكبرى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . ولغةَ فكرها الحى الناضج وكتاب علومها الأصيلة والمستحدثة ، وأداة اتصالها بقديم التراث الإنسانى . كما كانت أداة اتصال الغرب بالحضارة الإسلامية التى استوعبت ثمار العلوم والمعارف من أقدم العصور إلى فجر عصر النهضة والإحياء . ولو صح ما يقال عن جمودها ، لاضمحلت وماتت بحكم قوانين الحياة وسنن الاجتماع اللغوى .

الباب الثانى

لغتنا ومشكلاتها فى العصر الحاضر

- العامية والفصحى
- الغزو اللغوى ومعركة التعريب
- العربية وعلوم العصر
- تعليم العربية ورأى فى أزمتنا اللغوية

العامّية والفصحى

وجود لغة عليا للفكر والأدب مع لهجات محلية للتعامل ، ظاهرة طبيعية عرفتها العربية من قديمها الجاهلى ، وتعرفها الدنيا فى سائر اللغات الحية .

لكن الاستعمار استغل هذه الظاهرة الطبيعية ليحارب الفصحى بلهجاتها الشعبية تمزيقاً لوحدتنا اللغوية والفكرية والمزاجية ، فراجت دعاوى تتهم الفصحى بالعقم والبداوة وتلقى عليها مسئولية تخلفنا ، وتدعو للعامية فتزعم لها القدرة على الوفاء بحاجات وجودنا اللغوى الحديث ، وترى فيها المفتاح السحرى لتقدمنا العلمى والحضارى ! والوسيلة الميسرة لتثقيف الجماهير وتعليم الأميين !

أطلت عليكم فى متابعة سير الزمن بلغتنا العربية من قديمها الجاهلى إلى عصر الحضارة الإسلامية ، وآن لنا أن ننظر فى حياتنا اللغوية اليوم وما تواجه من أزمات ومشكلات .

وعصرنا وريث عصور مظلمة من التخلف ، تدهورت فيها حياتنا العامة حضارياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً ، فأسلمت الأمة ، إلى محنة الاستعمار . وغشيها ليل طويل ريثما استجمعت قوتها وخاضت معركتها لتحطيم الأغلال . وما كان يمكن أن تنجو لغتنا مما أصاب الحياة العامة من تخلف وانحطاط .

ثم لما استردت شعوب الوطن العربى استقلالها فى النصف الثانى من هذا القرن العشرين ، بدأت تواجه مشكلات وجودها اللغوى فيما تواجه من مخلفات ليل المحنة .

* * *

منها ، مشكلة الفصحى والعامية التى ارتبطت بالوجود الاستعمارى فى وطننا العربى ، مع أنها فى أصلها ظاهرة طبيعية ، تعرفها الحياة فى وجود لغة عليا للفكر والأدب والثقافة ، ولهجات محليات التعامل .

وقد عرفت العربية هذه الظاهرة ، من قديمها البعيد حين كانت فى مهدها بالجزيرة لم تخرج منه . وظلت اللهجاتُ المحلية تعيش إلى جانب الفصحى العالية المشتركة فى العصر الإسلامى الأول قبل تعرب الشعوب الإسلامية . ومهما يكن من اقتدار العربية الرسمية على تطويع ألسنة هذه الشعوب ، فإن اللهجات المحلية اتصلت بلغات القبائل التى خالطتها ، وخضعت لمؤثرات صوتية وعوامل إقليمية وميراث لغوى ، يختلف فى قطر عن قطر ، وفى بيئة عن أخرى من القطر الواحد ، وعاشت هذه اللهجات على الزمن الطويل لغةَ تعامل شعبى وتفاهم محلى ، لم تَجْـرُؤْ على الفصحى التى بقيت لغة الأمة ديناً ودولة ، ومناطَ وحدتها الذوقية والوجدانية ، واللغة العليا للتعليم والتأليف والثقافة والحضارة.

ومهما يكن من تفاوت اللهجات المحلية وحريتها فى الخروج على قيود الفصحى وقواعد اللغويين والنحاة ، فإنها لم تَعْدُ أن تكون لهجاتٍ شعبية للعربية، وليس من المتصور أن تُحمل أى لهجة منها على لغة لها قديمة قبل العربية . وكل هذه اللجهات تطور مستحدث تعربت فيه ألسنة العامة بقدر ما أسعفتها حناجرها وتطلبت حياتها وحكمت ظروفها . وقد تناءت بهذا التعرب عن لغاتها القديمة المهجورة . فحين نقول العامية المصرية ، أو الشامية والعراقية ، أو السودانية أو المغربية ، فليست إلا العربيةَ على ألسنة أهل هذه الأقطار .

ومهما يكن من بقايا المصرية القديمة فى عربية أهل مصر (١) ، أو بقايا البربرية فى لهجة المغاربة (٢) ، فإن هذه البقايا لا تنفى انتماء اللهجتين إلى العربية ، إلا عند من يتصورون إمكان فهم الشعب المصرى أو المغربى ، للغاتِ أسلافه قبل الفتح والتعرب !

وسبق القول بأن اللهجات العامية لم تَحُلْ دون فهم عامة الجماهير لفصحى العربية ، لا فى كتابهم الدينى فحسب ، ولكن فيما يسمعون كذلك من قصائد وخطب ومواعظ وأناشيد .

وقد يُظن أن أجهزة الإعلام الحديثة هى التى وصلت جماهير العامية بالعربية الفصحى ؛ ولكن خطأ هذا التصور يبدو بوضوح إذا ذكرنا أن الفصحى كانت جِدّ قريبة إلى الجماهير من الأميين ، قبل اختراع أجهزة الإذاعة ووسائل الإعلام المحدثة . فحتى القرن الماضى كانت منشورات المهدى مثلا بلغتها الفصحى ، تلهب حماس الجماهير فى الشعب السودانى ، وينفعل بها أبناء البلد وسكان البوادى على السواء . ولم يكن المذياع قد اخترع ، حين كان خطباء الثورة العرابية يقودون الشعب للنضال عن حريته ، وكانت الجماهير تحتشد لسماع خطب مصطفى كامل وتتجاوب بها من شمال

---

(١) راجع كتاب « قواعد اللغة المصرية » للدكتور صبحى .

(٢) اقرأ مثلا ، كتاب : « ألفاظ مغربية ورحلة إلى المغرب » للشيخ محمد رضا الشبيبى .

الدلتا إلى أعالى الصعيد . وسعد زغلول — خطيب عصره — لم يكن جمهوره من المثقفين وحدهم ، بل كان أكثرهم من الأميين . وكذلك الأمر فى خطب جمعية علماء الإسلام بالجزائر وأناشيد شعرائها ، كانت تجد صداها المثير لحماسة الشعب الجزائرى الباسل ، فى الريف والبوادى والجبال .

لأن عامياتنا لا تعدو أن تكون لهجات عربية ، تتفاوت وتختلف ، وتظل أبداً متصلة بالفصحى العليا فى القرآن الكريم الذى حفظ سليقتها اللغوية ، وفى الخطب المنبرية والسياسية ، وبالمحافل الدينية والأعياد الإسلامية . وفيما يشدو به أئمة الطرق من أناشيد صوفية ، وفى حماسيات للخطباء والشعراء قادت حشود كتائبنا فى المعارك التى عرفها تاريخنا الطويل .

* * *

لم تكن ظاهرة الثنائية اللغوية إذن طارئة محدثة ، بل هى ظاهرة طبيعية فى حياتنا اللغوية منذ كانت . ففيم إذن ارتبطت الظاهرة بالوجود الاستعمارى فى المنطقة ؟

ارتبطت به على وجه يجعل من العاميات سلاحا ضد الفصحى ، ويقف بهما فى موقف الخصومة والعداء .

لقد استغل الاستعمار هذه الظاهرة الطبيعية ليحارب الفصحى بلهجاتها المتعددة . ووجد فى اختلاف اللهجات الإقليمية ذريعة للقضاء على اللغة الواحدة المشتركة التى تربط المشرق والمغرب بأواصر التفاهم والتجاوب ، وتجعل من أقطار وطننا الكبير وحدة فكرية ومزاجية ، ينتقل بها الكتاب العربى من ساحل الخليج ووادى الرافدين إلى ساحل الأطلسى . ومن أعالى الفرات فى قلب آسيا إلى بوادى دارفور وكردفان فى قلب إفريقية ، رسولَ فكر وثقافة وأدب ، وآصرةَ قربى ووحدة ، فى الفكر والمزاج .

* * *

وسارت خطة العداء للفصحى فى اتجاهين :

بدأت حملات مسعورة ، تكشف من ناحية عن جمود الفصحى وتعقدها وبداوتها وتخلفها عن حاجة العصر ، وتلقى عليها مسئولية ما كان من تخلفنا وانحطاطنا .

وتدعو من ناحية أخرى للعامية ، وتضيف إليها مزايا من الفصاحة والسهولة والمرونة ، والقدرة على التعبير عن مطالب الحياة العصرية ! وترى فيها الوسيلة لتثقيف جماهير الشعب وتعليم الأميين !

* * *

بدأت الحملة على العربية إثر ثلاثة قرون من الحكم التركى ، تدهورت فيها الحياة العامة وانحدرت اللغة إلى غاية السقم والضعف ، مجهدة بصراعها مع التركية التى فرضها العثمانيون لغةً رسمية الدواوين والتعليم ، فلم يبق لهذه العربية المستضعفة سوى « الأزهر » فى مصر ، و « الزيتونة » فى تونس ، أما فى المغرب الأقصى الذى لم يخضع للحكم العثمانى ، فكانت « جامعة القرويين » المنار لعلوم العربية والإسلام .

وفيما كان الغرب يتربص بالرجل المريض الموتَ ليتقاسم تركته ، بدأت بذور القضاء على اللغة العربية تلقى فى أرضنا ، مسخاً للشخصية القومية وعزلا للأمة عن ماضى تاريخها وتراثها ، وتمزيقاً لوحدتنا اللسانية التى تربطنا على تنائى الديار واختلاف الأقطار .

وكان الاتجاه الاستعمارى ، إلى إحلال لغاته محل العربية ، فإن تعذر هذا فلتكن اللهجات العامية هى السلاح الذى يقضى على عربيتنا الواحدة .

ويبدو أن الجزائر ، بحكم سبق الاستعمار إليها ، كانت حقلَ التجربة للغزو اللغوى فى قلب المغرب ، وأن مصر ، فى قلب المشرق ، كانت ميداناً لتجربة تمزيق الوحدة اللغوية ، بإحلال العامية مكان الفصحى المشتركة .

ونرجىء الآن الحديث عن التجربة الاستعمارية لفرنسة اللسان الجزائرى وننظر فى قضية العامية والفصحى بمصر ، من حيث يمكن أن تتكرر فصولها بصورة أو بأخرى فى غيرها من أقطار المشرق .

بدأت الدعوة إلى نبذ الفصحى تتسلل إلى أفق مصر فى عهد أزمتها بالتدخل الأجنبى فى عصر إسماعيل .

ففى عام ١٨٨٠ على التحديد ، وصندوقُ الدَّيْنِ يدفع بمصر إلى براثن الاحتلال العسكرى السافر ، نشر « الدكتور ولهلم سبيتا ، مدير دار الكتب المصرية » كتاباً باللغة الألمانية فى (قواعد العربية العامية فى مصر) وقد تنبأ بمصير العربية الفصحى إلى الموت ، كما ماتت اللاتينية . ولعل « سبيتا » لم يتجه إلى خدمة الاستعمار مباشرة ، بل إن من الصعب أن نتصور أن هذا المستشرق الألمانى كان يعمل لحساب الاحتلال الإنجليزى الذى مالبث أن جثم على مصر. كل ما فى الأمر أن مشكلة الثنائية اللغوية شغلت هذا المستشرق ، وقد اتصل بالفصحى فى نصوصها الرسمية والأدبية الهابطة المسفة ، واتصل بالعامية لغة الحياة والأدب الشعبى ، وقارن هذا الوضع بما كان من أمر اللاتينية التى أماتتها اللغاتُ الفرعية التى كانت تشبه لهجاتٍ محليةً لها ، فتصور أن العربية صائرة حتماً إلى مثل هذا المصير ، ووقف إلى جانب العامية التى توقع لها أن تخلُف الفصحى ، وفى ظنه أن هذا الوضع المتوقَّع ، يجدى كثيراً فى محاربة الأمية والفقر الثقافى ، وما ينشأ عنهما من انحطاط سياسى وتخلف اجتماعى . وإذ كانت العامية لغةً منطوقة غير مكتوبة ، شغل نفسه بدراسة قواعدَ للعامية كى تأخذ مجالها الحيوى للتعليم والثقافة والأدب ، على أن تُكتب بحروف لاتينية !

وكان عذر « سبيتا » فيما ذهب إليه من إلقاء تبعة انتشار الأمية والتخلف الفكرى والسياسى ، على العربية الفصحى ، وتصوره أن العامية تصلح لأن تكون لغة كتابة تروج بها الثقافة ، أن المرحلة كانت تعرف مؤلفات ومجلات بهذه العامية تلقى رواجا فى جماهير الشعب ، وكُتابها لم يكونوا غير مقتدرين على الفصحى ، لكنهم آثروا العامية ليصلوا إلى الجماهير .

من هذه المدونات ، ما كان للفكاهة والإضحاك ، مثل (هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف) للشيخ يوسف الشربينى ، وأزجال الشيخ حسن الآلاتى . ولكن منها كذلك ، ما كان للتوعية والتثقيف ، وقد كان

دخول « عبد الله النديم » هذا الميدانَ ، لافتاً ومثيراً ، فالنديم من قادة الفكر والرأى وأعلام الكتاب والخطباء ، واستخدامه للعامية فى مقالاته السياسية — وهو من رُوَّاد اليقظة — شاهد على مدى الحاجة إلى العامية فى إيقاظ الوعى الشعبى ، وشاهد فى الوقت نفسه على كونها تصلح للكتابة . وقد أصدر النديم مجلته (أبو نظارة) عام ١٨٧٨ ثم (التنكيت والتبكيت) عام ١٨٨١ فلم يتهمه أحد بالعداء للفصحى أو العجز عنها ، ولقيت المجلتان رواجاً منقطع النظير ، وغزت مقالات النديم الإصلاحية ، قرى الريف ونجوع الصعيد ، وآزر قادة اليقظة القومية هذا الاتجاه ، وقدروا جدواه على وعى الشعب وتثقيف الجماهير . وتعبئة الوجدان الشعبى وإرهاف الضمير العام ،وذلك ما نعرض له بمزيد تفصيل بعد أن نفرغ من نبوءة « سبيتا » وصداها .

* * *

وفى مثل هذا الوضع الذى بدت فيه الحاجة إلى العامية ضرورة قومية لتثقيف العامة ، لا تبدو لى محاولة « سبيتا » — كما بدت للزميلة الدكتورة نفوسة زكريا — داخلة فى إطار المخطط الاستعمارى للقضاء على اللغة القومية[1] . وقد كان نشر المحاولة باللغة الألمانية ، يُبعدها عن مجال التأثير فى المجال الفكرى لمصر .

لكن الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وجد فى مثل هذه الدعوة بذرة صالحة يمكن أن يتعهدها حتى تثمر ثمرتها المشئومة . وقد كانت الحجج التى ساقها « سبيتا » لتأييد فكرته ، تعطى من يريدون استغلالها ، ذرائعَ مقنعة لهجر الفصحى التى حُمِّلت أوزارَ ما صارت إليه الأمة من ضعف وتخلف وانحطاط .

لقد مضت دعوة « سبيتا » دون أن تجد لها صدى فى المناخ الشعبى البعيد عن الفكر الأجنبى ، وظل قادة اليقظة على موقفهم من تأييد استخدام

---

(١) تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر : الباب الأول ، ط الإسكندرية ١٩٦٤ .

العامية فى الصحافة الشعبية لتوعية الجماهير وتثقيفهم ، وظل « عبد الله النديم » يثير الوجدان الشعبى والضمير القومى بمقالاته الثورية فى (التنكيت والتبكيت) حتى إذا تمت التعبئة الثورية وَجنَّدت قيادة الثورة العرابية « عبد الله النديم » ليكون الناطق الصحافى بلسانها ، اقتضى الموقف أن يعدل عن العامية إلى الفصحى ، وصدر قرار رسمى من « أحمد عرابى » بأن تحل جريدة (الطائف) الناطقة بلسان الأمة محل (جريدة التنكيت والتبكيت) اعتباراً من عددها التاسع عشر : ١٨٨١/١٠/٢٣ .

فى الشهر التالى مباشرة ، نوفمبر ١٨٨١ ، ظهرت مجلة المقتطف بدعوة إلى كتابة العلوم بالعامية ، لغة الحديث :

والتوقيت لافت ، يربط الدعوة بهذا التحول فى لغة الصحيفة الرسمية للقيادة الثورية الشعبية ، أكثر مما يربطها — كما رأت الدكتورة نفوسة زكريا — بدعوة « سبيتا »[1] التى كان قد مضى عليها نحو عامين ، فى المكتبة الألمانية .

وبظهور الدعوة فى الأفق العربى ، بدأ صراع بين دعاة العامية ، وحماة الشخصية القومية ، لم يلبث أن احتدم فى أعقاب الثورة العرابية التى تآمر عليها القصر والاستعمار ، وسيطر الإنجليز على المراكز الحيوية للثقافة والتعليم ، فعزلوها عن اللغة القومية .

وفيما كانت محاولة الغزو اللغوى تأخذ مجراها للتمكين للغة الإنجليزية من اجتياح اللغة العربية ، بدأت الدعوة إلى العامية تأخذ مجراها ، فى حياتنا الثقافية ومناخنا الفكرى .

لقد صدر القرار الوزارى ، عام ١٨٨٩ ، يقضى بأن تكون لغة التعليم فى المدارس المصرية هى اللغة الإنجليزية ، ووُجهت كل البعثات التعليمية إلى إنجلترا ، وأغلقت مدرسة الألسن . وفى عام ١٨٩٣ قام المهندس الإنجليزى للرى المصرى « ويلكوكس » يحاضر فى نادى الأزبكية داعياً إلى

---

(١) عبد الله النديم ، بين العامية والفصحى : ١٣٣ ط الدار القومية ١٩٦٦ .

إحلال العامية محل الفصحى فى الكتابة والتأليف . كان موضوع محاضرته هذا السؤال المثار : « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين إلى الآن ؟ » وكان جوابه أن العربية الفصحى ، ولا شيء غيرها ، هى التى أماتت قوة الاختراع فينا ، ولا أمل فى إحيائها إلا إذا اتخذنا العامية لغة كتابة وتأليف .

ومستمعو المحاضرة عادة : قلة من المثقفين ، وقد تمضى الدعوة مع الريح بعد انصرافهم من نادى الأزبكية ، ومن ثم حرص « ويلكوكس » على أن يسجلها فى العدد الأول من (مجلة الأزهر) التى آلت إليه بعد أن تخلى عنها محرراها « إبراهيم مصطفى وحسن رفقى » وكانا قد تابعا إصدارها لنشر المقالات الأدبية والعلمية ، إلى ديسمبر ١٨٩٢ . فأخذها ويلكوكس ليجعل منها منبراً للدعوة إلى العامية وإماتة الفصحى .

وأعلن أنه يفسح صدر المجلة للعلماء ، على أن يكتبوا بحوثهم باللغة العامية الحية التى يعرفها الشعب ، لا بالفصحى الميتة التى لا يعرفها إلا قلة من المتخصصين .

وكان عجيباً حقاً ، أن يراد للعامية أن تترك مجالها الحيوى فى الأدب الشعبى وثقافة الجماهير ، إلى بحوث علماء الهندسة والفلك والرياضيات !

وهو منطق لم يسغ العلماء المصريون شذوذه . فوقفوا من (مجلة الأزهر) موقفاً أرغمها على الصمت والاحتجاب بعد صدور عشرة أعداد منها فحسب !

لقد أصدر نفر منهم مجلة علمية مضادة للأزهر ، هى (مجلة المهندس) لنشر البحوث العلمية والرياضية باللغة الفصحى التى زعم ويلكوكس أنها لا تصلح لغة للعلوم . ونرجئ الحديث عن (المهندس) إلى مكانه من قضية " الفصحى والعلوم الحديثة " ونتابع الحديث عن مقاومة العلماء المصريين لمجلة الأزهر حيث لبى عدد كبير منهم دعوة « ويلكوكس » فأرسلوا بحوثهم لتنشر فى مجلة الأزهر ، لكنهم أصروا على كتابتها بالفصحى : تحدياً وإنكاراً لشذوذ إقحام العامية على المجال العلمى . ولم يجد ويلكوكس مفراً من الإقرار بالهزيمة فكتب فى العدد العاشر من المجلة (أكتوبر ١٨٩٣) يعلن احتجابها . بعبارات تنضح بالغيظ والسخط :

« ولقد افتتحتُ " الأزهر" وأردت أن أشحنه بالمسائل الرياضية المفيدة بعدما وقفت على شدة عوز المصريين لهذه الفنون ، وأن السبب الوحيد فى تأخر العلوم إنما هو تأخر لغة التأليف وعدم إقدام المؤلفين على تصنيف كتبهم باللغة الحية المستعملة التى يعلمها و يتكلم بها كل مصرى ، ضناً منهم على أبناء جلدتهم بالمعلومات النافعة . فأخذوا يضعونها فى لغة غير مشهورة لا يعلمها إلا القليل ، ولذلك أضحت دائرة هذه العلوم ضيقة وأصبحت شمسها لا تسطع إلا على أفراد يُعدون على الأصابع ؛ والباقون فى ظلمات الجهالة يعمهون .

« فحملنى حب نشر العلوم وميلى لتنوير المصريين ، أن أسير فى هذه المجلة سيراً وطيداً عاماً ، ولذلك افتتحتها بمقالة حرضت فيها المصريين وخصوصاً المهندسين على وضع أفكارهم فى اللغة الحية المستعملة ، رغبة فى فائدة العموم وحباً فى نشر العلوم ، فأبوا إلا أن يترجموا عن أفكارهم بلغة غير مشهورة ، وأخذوا يرسلون بها الرسائل العديدة بغية رصدها بالجريدة ، فما كان يسعنى فى ذلك الوقت إلا قبولها والتشكر لهم مؤملا أنهم ربما يخلعون نعل الخوف ويلبسون رداء الحرية والإقدام ، فيعبرون عن معلوماتهم باللغة الحية . وحيث إنهم استمروا على الطريقة الأولى ولم يهتدوا إلى الطريقة المفيدة العامة ، فلا حاجة للاستمرار فى إصدار الجريدة إذ أن الفائدة قاصرة على القليلين الذين يعلمون هذه اللغة التى استولى حبها على المؤلفين . . .

« والأزهر سيحجب عن الظهور بعد هذا العدد — أكتوبر ١٨٩٣ — لأن فكرى ، ولا يشترط صحته لدى الآخرين ، أوعز إلىّ أن هذه العلوم لا يمكن ظهورها وانتشارها إلا إذا عُرضت فى اللغة المستعملة ، وهناك يجنى عموم المصريين الفوائد العظيمة ، ولكن أبى الله إلا الاستمرار على ما كان متبعاً قبلا ، مما له فائدة قليلة قاصرة لا تسوغ لمثلى أن يستمر فى التحرير ، وأن يداوم على إصدار الجريدة » .

وفى الطرف المقابل ، تصدى « عبد الله النديم » للنضال عن لسان الأمة ، فى صحيفة (الأستاذ) التى أصدرها فى عام ١٨٩٢ ليجاهد بها فى المجال القومى بعد

أن وئدت الثورة عسكرياً وسياسياً. كتب فى (الأستاذ) يرد على وليم ويلكوكس:

« إننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألفُ داع بل مئات ألوف من دعاة أوربا لاستعمال لغة تميت لغة القرآن ، ما وجدوا آذاناً سامعة » .

وبعد أن تساءل عما عسانا نصنع بكتبنا وتراثنا إذا كتبنا بالعامية ، أنحرقها أم نترجمها إلى العامية ؟ وماذا عسانا نصنع بالقرآن ؟ هل نقرؤه باللغة العامية ، والمسلمون يعتقدون أن تغيير حرف منه كفر ؟ أشار إلى محاولة مجلة ويلكوكس فقال :

« أظن أن الأزهر - المجلة - قصد أن يختبر المسلمين ، فاخترع لهم هذا الباب ليرى رسوخ قدمهم فى حب لغتهم وتنبههم لأصولهم الدينية ؛ حتى إذا رأى منهم ميلا لأفكاره واستحساناً لاختراعه ، ذمهم وبكتهم وشنع عليهم فى مجامع أوربا ، وقال إنهم قوم لا يعرفون قدر جنسيتهم ولا حق وطنهم ولا فضل لغتهم ولا شرف دينهم ؛ فهم همل لا لغة لهم ولا دين » .

واستطرد يقول فى سخرية لاذعة وتحذير قاس :

« أما ذمُّه المصريين بعدم قدرتهم على الاختراع وعدم إقدامهم وعدم قولهم الحق ؛ فأمر تعودنا سماعه من الأوربيين ؛ ولكن يعز علينا أن نسمع مثله من رجل من رجال دولة تريد أن تهذب المصريين وترقيهم إلى المدنية وتحب لهم الخير فى كل عمل تقدمه لهم أو تدعوهم إليه ! فإن صدور مثل هذا الشتم منه ربما دلنا على أن ما نسمعه من النصح والوعظ وَهْم ؛ فنتهم غيره بما نتهمه به . . » ثم رجاه « أن يرجع عما يملأ قلوب المصريين بغضاً ، فإنه بمثل هذه الأهاجى القبيحة يضيع أتعاب رجاله عشر سنين ؛ فإنهم بذلوا جهدهم فى جذب المصريين إليهم ، وصانعوا الفلاح والصانع وداخلوا الأعيان والأمراء والوجهاء استجلاباً لقلوبهم ودفعاً للنفور الذى يحدثه سلبُ الغير للحقوق ، والتعدى بما لا منفعة فيه . ولم نُذكره بذلك تعرضاً منا لأمور سياسية ليست من شأن جريدتنا ؛ وإنما ناديناه بلسان جريدة علمية تناظر جريدة علمية أخرى » .

والواقع أن العربية كانت فى ذلك الحين ، تواجه من خطر الغزو اللغوى من الإنجليزية فى المجالين العلمى والتعليمى ، أكثر مما كانت تواجهه من الدعوة إلى العامية التى أقحمت على الميدان العلمى فى معركة خاسرة .

لكن عقدة الموقف فى الصراع بين دعاة العامية وحماة الفصحى . أن هؤلاء المناضلين عن لسان الأمة ، كانوا يقدرون الحاجة إلى هذه العامية لتوعية الشعب وحماية وجدانه من الغفلة والتخدير . وتتمثل هذه العقدة الباهظة فى حيرة « عبد الله النديم » نفسه ، وتردده بين استعمال العامية التى يحارب بها الاستعمار لسانَ الأمة ، وبين التزامه الفصحى التى ينبغى أن يُحمى لها مجالها الحيوى : لغة ثقافة وتعليم ، ولساناً مشتركاً للأمة العربية على تتابع الأجيال وتعدد الأقطار .

بدأ فخصص باباً للعامية فى صحيفة الأستاذ من عددها الأول (٢٣/٨/ ١٨٩٢) شارحاً الضرورة الملجئة إليها ، ومحدداً لها مجالها الذى لا يحل أن تتجاوزه . ثم لما أحس خطر الحملة على الفصحى ، كتب فى العدد العاشر من الأستاذ (٢٥ / ١٠ / ١٨٩٢) محاورة بين عدد من الأميين ، أنطقهم فيها بما تطوع به ألسنتهم من فصحى سهلة ، بعد أن ارتقت مداركهم وراجت فيهم صحف يومية تكتب بفصحى ميسرة . وكانت هذه المحاولة إيذاناً بإغلاق باب العامية فى (الأستاذ) ، لكن الرأى العام الشعبى عارض هذا الموقف وألح فى المطالبة بحق عامة الجماهير فى بابهم من صحيفتهم الوطنية ، وشارك الخاصةُ من الوطنيين فى مطالبة النديم بإرجاع باب العامية ، وأيدوا موقفهم بحجج لم يملك النديم إلا أن يعلنها فى العدد الحادى عشر (١٠/١١/١٨٩٢) ويعلن معها نزوله على رغبة الرأى العام ، وخلاصة ما قالوه :

" أن إغلاق باب العامية سيحرم كثيراً من قراء الأستاذ، من الاستفادة من آرائه الإصلاحية القيمة ، والتى كان لها من النفوذ الشعبى أن العامى كان يشترى الصحيفة ، وهو لا يعرف القراءة ، ويلتمس من يقرؤها له " .

ـ أن العامية وُجدت بجانب الفصحى منن القرن الأول الهجرى ، دون أن تضار الفصحى بوجود العامية .

ـ أن اختلاف عبارة العلماء والكتاب عن عبارة العامة ، أمر جارٍ مألوف فى كل أمة لها لغة مستقلة .

ـ أن معلمى العربية أنفسهم ، يحتاجون أحياناً إلى شرح دروسهم بعبارات عامية لتقريبها إلى أذهان التلاميذ ، كما أن الفنون الشعبية : كالمواليا والزجل والقوما ، تكتب وتقرأ بعربية ملحونة أو بألفاظ عامية ؛ وقد طال العهد عليها وهى مستعملة متداولة ، ولم تضار بها اللغة الصحيحة . بل إن من العلماء من كتبوا فى الفقه والنحو والتفسير بالزجل ، تسهيلا للعامة ، ولم يؤثر ذلك فى الفصحى ، لجريان التعليم والتأليف والكتابة الرسمية على اللغة الصحيحة .

ـ أن الضرر الذى يُخشى على الفصحى لا يتأتى إلا من طريق نقل العلوم والتعليم فى المدارس ومجامع العلماء ، إلى اللغة العامية . وهذه نقطة لا نصل إليها إلا إذا عاد الكون إلى الهمجية ، وعودته كذلك محالة . فاستعمال العامية فى التعلم والكتب العلمية محال " .

ولكن الذى بدا له محالا ، دعا إليه ويلكوكس فى مجلة الأزهر ، فى مطلع عام ١٨٩٣ ، فتصدى له النديم بالرد ، ثم صمم على إغلاق باب العامية فى صحيفة الأستاذ ، وكتب فى العدد الثامن والعشرين (٢٨/ ٢ سنة ١٨٩٣) " محاورة بين حنفى ونديم " أصر فيها على إنطاق حنفى الأمى ، بالفصحى السهلة . وظل « النديم » على موقفه إلى أن أغلقت (صحيفة الأستاذ) بأمر السلطة ، بعد عددها الثانى والأربعين : ١٨٩٣/٦/٣ [١] .

وبعد أربعة أشهر ، أغلق ويلكوكس مجلة الأزهر ، لا بأمر السلطة ، ولكن تحت ضغط المقاومة التى تحدته وأكرهته على الصمت أعواماً جاوزت

---

(١) للزميلة « الدكتورة نفوسة زكريا » دراسة مفصلة لموقف « عبد الله النديم بين الفصحى والعامية » تستوعب ما يضيق المجال هنا عن استيعابه .

ربع قرن ، ترك فيها المحاولة للقاضى الإنجليزى « سيلدون ولمور » الذى نشر فى عام ١٩٠١ كتابه (العربية المحكية فى مصر) .

* * *

ويتوارى الأجانب زمناً من ميدان الصراع بين دعاة العامية وحماة الفصحى ، موجهين اهتمامهم إلى التمكين للغة الإنجليزية من مناطق النفوذ والسيطرة على المجال العلمى والتعليمى ، إلى أن عاد « وليم ويلكوكس » إلى ميدان الصراع الأول ، بعد أن غاب عنه نحو ثلاثين عاماً ، فترجم الإنجيل إلى العامية سنة ١٩٢٥ ، ونشر فى عام ١٩٢٦ رسالة بالإنجليزية ادعى فيها أن « سورية ومصر وشمال أفريقية ومالطة ، تتكلم البونية لا العربية ! » ثم ألف كتاباً بالعامية عنوانه (الأكل والإيمان) ظهرت منه ثلاث طبعات إلى سنة ١٩٢٩ .

ولست أدرى ما إذا كانت عودته إلى محاربة الفصحى بالعامية عن يأس من قهر الإنجليزية للغة العربية التى ظلت لغة الثقافة والصحافة والتأليف والأدب على رغم عزلها عن التعليم والعلوم العصرية ؟ أم كانت تلك العودة إصراراً على موقفه القديم وعجزاً عن التخلى عنه ؟

وأيًّا ما كان الأمر ، فإن فكرته وجدت دعاة من الكُتّاب المصريين أنفسهم فترك الأمر لهم ، عن يقين بأنهم يستطيعون أن ينجحوا حيث فشل هو ورفاقه الأجانب فى المعركة اللغوية ، إذ يكفى أن تصدر الدعوة إلى نبذ الفصحى من أجنبى ، ليأخذ الشعب منها موقف الحذر والشك والرفض . . .

* * *

ولعل الفصحى لم تجد من يخاصمها فى الربع الثانى من القرن العشرين ، مثل « الأستاذ سلامة موسى » الذى جند قلمه الطيع وأسلوبه الليِّن ومنطقه السهل ، للدعوة إلى نبذ الفصحى التى ورثناها من بدو الجاهلية فى عصر الناقة ، ويراد لنا أن نتعامل بها فى عصر الطائرة !

والأستاذ سلامة موسى كاتب مشهور له قراؤه ، وله مدرسته ومريدوه

وتلاميذه ، وليس أجنبيًّا غريباً مثل المهندس ويلكوكس والقاضى ولمور ، وليس مجهولا من عامة المثقفين مثل الدكتور سبيتا . وقد ربط دعوته إلى هجر الفصحى بدعوته العامة إلى إصلاح المجتمع وتقدم الأمة ، ومن هنا كانت مظنة أن تنال من الفصحى ما لم تنله كل الحملات السابقات لدعاة العامية .

* * *

فى مقدمة كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) قرر أن سلوكنا فى البيت والشارع والحقل والمصنع هو قبل كل شىء سلوك لغوى ، لأن كلمات اللغة تقرر لنا الأفكار والانفعالات وتعين لنا السلوك كما لو كانت أوامر . « بل نستطيع أن نقول إن سيادة البريطانيين على الهنود ، أو المتمدنين على المتوحشين ، هى إلى حد ما سيادة لغوية : أى مجموعة خصبة وافية من كلمات المعارف والأخلاق تحدث براعة فى الفن وتوجيها فى السلوك يؤديان إلى السيادة وأحياناً إلى العدوان .

« وحين تحرم لغتنا من كلمات الثقافة العصرية تحرم أيضاً الأمة المعيشة العصرية . فنحن مازلنا نعيش بكلمات الزراعة ولـمّا نعرف كلمات الصناعة . ولذلك فإن عقليتنا عقلية قديمة جامدة متبلدة تنظر إلى الماضى ، حتى إننا نؤلف فى ترجمة " معاوية بن أبى سفيان " فى الوقت الذى يجب أن نؤلف فى ترجمة عن " هنرى فورد " عبرة الصناعة فى عصرنا ، أو عن الذرة وعبرتها للمستقبل . . .

« وإنى أعتقد أن ٩٠ بل ربما ٩٩ فى المائة من كتابنا سلفيون . وهذه السلفية هى نتيجة لحرمان الأمة من الرقى الصناعى وقصرها على الزراعة وعرقلة ، بل عرقبة كل تقدم صناعى حاولته الأمة فى السنين الستين الأخيرة ، لأن المجتمع الصناعى كان جديراً بأن يحدث مجتمعنا مستقبليا ، يكتب مؤلفوه بلغة الشعب ، وتنتقل اهتماماتهم الذهنية من التأليف عن قدماء العرب إلى التأليف عن مشكلاتنا العصرية . وإنى بالطبع لا أغفل هنا عن ارتباط

اللغة بالتقاليد والعقائد ، وأن هذا الارتباط من أسباب الكراهة للتطور اللغوى . أعنى أن العقلية الكلاسية فى اللغة،عقلية التقاليد التليدة ، قد أحدثت لنا مزاجاً أدبيًّا اجتماعيًّا هو النظر إلى الماضى ومحاولة استرداد الأمس ، والتبلد والتجمد ،فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى أن نشق طريقنا إلى المستقبل » .

وصرح بأنه أراد بتأليف الكتاب ، أن يساعد على الرقى بتجديد اللغة ، وأن حسبه من هذه المساعدة أن يشخص الداء ويومئ إلى الدواء وينبه الغافلين وينصح للمعاكسين .

وأعظم هؤلاء المعاكسين فى رأيه :

« هم الذين تخصصوا فى درس اللغة العربية مثل خريجى دار العلوم . فإن تخصصهم حال بينهم وبين دراسات بشرية عديدة فضاقت آفاقهم وصاروا ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة فى المعابد لا ينبغى تغيير كلمة ، أو حتى أسلوب التعبير فيها ، أو خطها .

« زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادى ووجدان طبقى ينهضان على استبقاء العربية فى جمودها الحاضر . ولذلك يخشون التغيير ويرون فيه هجوماً على مصالحهم الاقتصادية . ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة الأمة يجب أن تعلو على مصالح أية طبقة فيها »

* * *

وهكذا أُدخِلت الطبقية الاقتصادية فى المعركة ، سلاحاً ضد اللغة الفصحى ، ووُضعت تقاليدنا الدينية وميراثنا التاريخى ، مع عوائق التطور والتقدم والتحضر !

ولا نسأل الداعية المصلح ، لماذا لم تضار السيادة اللغوية التى أتاحت للإنجليز العدوانَ على المتوحشين ، بعلماء لغتهم الذين يعكفون على فقه أسرارها وأصولها القديمة ، ويكونون طبقة من المتخصصين متميزة عن العامة ؟ ولماذا

لم يحل دون السيادة السياسية المرتبطة بالسيادة اللغوية ، وجودُ خاصة من العلماء الإنجليز فى الفلسفة والاجتماع والتاريخ والطبيعيات والرياضيات ، عِلمُهم غير مبذول لجماهير الشعب ولا هو مما يعرفه عامة المثقفين ؟

وفى الإنجليز متخصصون فى اللغة الكلاسيكية ، وفى براجمهم التعليمية دراسة نصوص قديمة وأدباء من العصور الخالية ، وبين مؤرخيهم من يؤلفون فى أسلافهم ، بل فيهم كذلك مستشرقون تخصصوا فى دراسة لغتنا وتاريخنا ، وألفوا فى شعراء الجاهلية ، وفى معاوية بن أبى سيفان وغيره من أعلام الشرق العرب والإسلام ! !

لا نسأل الداعية المصلح عن هذا ومثله ، بل نتابع عرضه لمشكلاتنا اللغوية ، فنراه فى فصل عن " اللغة والتطور البشرى " يبدأ بتقرير أن من أسباب تطور الإنسان وسيادته على الحيوان « أن ضخامة دماغه قد أعدته للتفكير السديد » ٤ [1].

[وأظنكم تعلمون أن من الحيوان ، كالفيل والخنزير والتيس والبغل والحمار ، ما هو أضخم دماغاً من سيده الإنسان] [2].

ولكن الكاتب لا يرى هذا ، ويمضى فى الحديث عن الحيوان اللغوى – الإنسان ذى الدماغ الضخم – لينتهى إلى « أن كثيراً من التفكير الحسن بل أحياناً من العبقرية ، يعود إلى أن اللغة التى نستعمل كلماتها قد بلغت من الرقى درجة عالية ، لأن الكلمات فى هذه اللغة تحمل المعانى الأنيقة الدقيقة التى لا توجد فى كلمات لغة أخرى متخلفة . ويتضح هذا عندما نقارن بين اللغة الألمانية وبين لغة متخلفة من لغات أفريقيا السوداء ، فلو أن "جيته" وُلد فى قبيلة أفريقية لما استطاع أن ينتج الثمرات الزكية التى نقطفها من مؤلفاته ، لأن اللغة القبلية لم تكن عندئذ لتسعفه بالكلمات التى تؤدى معانيه ،

---

(١) الرقم هنا وفيما يلى من فقرات منقولة بنصها من كلام الأستاذ سلامة موسى ، يشير إلى موضع الفقرة من كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) الطبعة الثانية – المطبعة العصرية بالفجالة .

(٢) القوسان المربعان [ ] يميزان ما أعلق به على ما أنقل من كلام المؤلف .

بل كانت تبقى هذه المعانى أجنة تؤلمه بالمخاض ولا تجد المخرج من ذهنه ، أو تخرج جهيضة » — ٦

[ولا أدرى من أين بجيته ، لو كان قد ولد فى أفريقية السوداء ، هذه المعانى والأفكار التى يريد أن يعبر عنها فلا تسعفه اللغة الإفريقية بالأفكار] بعد أن قرر الأستاذ سلامة موسى نفسه ، فى الفقرة السابقة مباشرة على عبقرية جيته واللغة الإفريقية :

« إننا نفكر بالكلمات . وصحيح أننا نستطيع التفكير الساذج البدائى بلا كلمات كما يحدث فى الأحلام ، ولكن التفكير الذى تتداخل فيه العوامل وتنبسط ساحته يحتاج إلى كلمات . ويكاد يكون من المستحيل أن نفكر بذكاء أو منطق فى أى موضوع بلا كلمات . وليس بعيداً أن يكون التفكير فى صميمه كلمات غير منطوقة كما يقول واطسون »

ثم يقرر فى فصل تال « أننا نفكر بالكلمات . . . والكلمات هى التى تكسبنا اتجاهاً أخلاقيا أو تكون لنا مزاجاً فنيا » — ١٧

ويتحدث الأستاذ بعد ذلك عن " الأنثربولوجية واللغة العربية " وأعذره فيما غاب عنه من أسرار العربية وهو يخوض فى دقائق من الاشتقاق والترادف وتطور الدلالات . وقد أرى أن ماأعوزه من فقه ذلك كله ، هو الذى أسلمه إلى القول فى بدائية لغتنا :

« إن اللغة هى بمثابة المصنع الذى يعيش فى عصرنا ، ومع ذلك يجمع فى مستودعاته فأساً من الحجر كانت تستعمل قبل ثمانية آلاف سنة ، وإبرة من الشوك كان أسلافنا يستعملونها قبل مائة ألف سنة ، وسيفاً من البرونز كان يستعمل قبل أربعة آلاف سنة ، وبين مصنوعات أخر مثل الرديوفون والمصباح الكهربائى والسولفانيلاميد . ومن هنا هذا الارتباك الذهنى الذى يؤدى إلى قلة الفهم أو اختلاطه . ذلك لأننا نستعمل أدوات قديمة كى تؤدى لنا خدمات جديدة » — ١٤

ومن الأمثلة التى ساقها على بدائية لغتنا ، وارتباك ذهننا من أستعمال لفظ قديم لدلالة جديدة ، أننا نستعمل الفعل « أحصى » بمعنى عد ، فإنه مشتق من الحصا أى صغار الحجر . وذلك لأن الإنسان البدائى كان يجهل العد بالأرقام فكان إذا شاء مثلا أن يعرف ما عنده من خراف ، وضع فى جعبته عن كل خروف حصاة » ١٣

[حين يذكر فى الوقت نفسه ، أن الأمر لا يختلف عن هذا فى الفعل الإنجليزى (Calculate) بمعنى حسب ، وهو مأخوذ من اللفظ الرومانى القديم (Culculus) بمعنى الحصاة أو الحجر ، وقد كان الرومان يستعملون الحصا فى العد والحساب منذ آلاف السنين .

وكنا نؤثر له أن يذكر أيضاً أن اللغة الإنجليزية لا تزال تستعمل فى عصرنا ألفاظ الفأس والإبرة ، مع الراديوفون والجرامفون !]

وحشد الأستاذ سلامة موسى منطقه وقلمه : ليدخل فى صميم المعركة بين العامية والفصحى ، إذ « يجب ألا يكون للمجتمع لغتان ، إحداهما كلامية أى عامية ، والأخرى مكتوبة أى فصحى ، كما هى حالنا فى مصر وسائر الأقطار العربية . لأن نتيجة هذه الحال أن اللغة المكتوبة تنفصل من المجتمع فتصبح كأنها لغة الكهان التى لا تتلى إلا فى المعابد ، وينقطع الاتصال الفسيولوجى بينها وبين المجتمع فلا تتطور . . .

« واللغة الحية هى الجهاز العصبى للمجتمع أو الشبكة التليفونية التى يتخاطب ويتفاهم بها أفراده . فإذا عجزت عن تأدية هذا التخاطب والتفاهم فهى خرساء، أى بمثابة الشبكة التليفونية المقطوعة أو التالفة، ويجب السرعة فى ترميمها .

« وقد عرفنا هذا الخرس فى كثير من شئوننا الثقافية : فإن المسرح مثلا لم يرتق ، لأننا لم نستطع تأليف الحوار باللغة الفصحى بين أشخاص الدرامة . لأن الكلمة الفصحى ليست جَوِّية ، أى أنها لا تنقل إلينا جو الحديث ، لأننا ألفنا أن يكون الحديث باللغة العامية ، فترجمته إلى اللغة

الفصحى يصدمنا ويشعرنا بأن هذه الكلمة ليست فى مكانها أى ليست فى جوها الاجتماعى .

« ولغتنا خرساء — والخرس هنا أوضح وأخطر — من حيث إننا جعلناها مثل لغة الكهان جامدة لا تتغير .

« فالتفاعل القائم الآن بين لغتنا ومجتمعنا ليس تفاعلا صحيًّا . فإن هناك انفصالا يحول دون إيجاد الدورة اللغوية كاملة به ، ولذلك حدث المرض من هذا الانفصال ، وهو الجهل لنحو مائة علم وفن لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا ونطقنا بلغة أخرى » — ٢٣

ونظر الداعية المصلح إلى مظاهر التخلف فى مجتمعنا ، فردّها كلها إلى عقم لغتنا الخرساء . ودخلت قضية الديمقراطية فى الموضوع ، فإذا لغتنا هى المسئولة عما يعوزنا من العدالة الاجتماعية ، لأنا ورثناها من مجتمع كان أتوقراطيا أرستقراطيا (ص ٢٤) كما دخلت قضية المرأة فى المعركة فإذا اللغة مسئولة كذلك عن رواسب تخلفها واستعبادها « فقد ألغى المجتمع العربى القديم المرأة من الحياة الاجتماعية إلغاء يكاد يكون تاما ، أما نحن فقد رددنا الاعتبار للمرأة المصرية ، ولكن مازلنا نستعمل الكلمات القديمة فنقول : أم فلان أو حرم فلان ؛ ولا نذكر الاسم مع أن الاسم جزء من الشخصية وإهماله هو سبة المرأة . . وإهمالنا لاسم المرأة هو تراث لغوى قديم يحمل إلينا عقيدة اجتماعية يجب أن نكافحها »

[وعجيب هذا حقا ، فإن المرأة الإنجليزية ، وكل نساء الغرب الحديث الراقى ، يتزوجن فلا يعرفن بغير حرم فلان ! ونحن هنا نحتفظ بأسمائنا بعد الزواج ، ونتعامل فى الحياة بأسمائنا وذواتنا ، فأبسط معلمة فى مدرسة ابتدائية تعرف باسمها لا باسم زوجها ، على حين تُعرف العالمة الغربية الكبرى باسم « مدام كورى » ! وتعرف حرم رئيس الولايات المتحدة ورئيس الجمهورية الفرنسية ، ورئيس الدولة الألمانية ، ورئيس وزراء إنجلترا ، بأسماء أزواجهن ، فهن : « مسز نيكسون ، ومدام ديجول ، وفراو لوبكه ، ومسز نيلسون » !

ولا يمكن أن تكون هذه المجتمعات الراقية ، قد ورثت عنا هذه السُّبَّةَ ، لأن المجتمع الإسلامى القديم أبرأ المرأة من إسقاط اسمها الذى هو — أى الإسقاط — سبة ، تستوى فى ذلك سيدات بيت النبوة : يعرفن بأسمائهن ، فيقال : خديجة بنت خويلد ، وعائشة بنت أبى بكر ، وفاطمة الزهراء ، وسكينة بنت الحسين . .

وأصغر معلمة فى مدرسة ابتدائية أو ممرضة فى وحدة صحية بإحدى قرى الريف أو نجوع الصعيد] .

* * *

وماذا عن " الأحافير اللغوية " التى يراها الأستاذ أغلالا معوقة لرقينا ، « لأننا نستعملها فنحمل المجتمع عبئاً باهظاً ، على حين تعرف معاجم اللغات الأخرى أحافير من الكلمات لا تجرى على لسان أو قلم ، وإنما تحتفظ بها للدراسة كما تحتفظ المتاحف بأحافير الدينصور وغيره » ؟

« أطفالنا ينشئون وهم يستمعون إلى كلمات العفاريت والجن والنجوم ، فتنغرس فيهم عقائد يعجزون عن التخلص منها حتى وهم فى الخمسين أو الستين من أعمارهم » — ٢٥ .

[فهل تخلو قصص الطفولة فى المجتمعات الغربية ، من مثل هذه الألفاظ؟ وهل انتهى عهدهم بمثل ذات الرداء الأحمر وسند رلا ، وعبارة الأميرة النائمة ؟ بل هل تخلص الأدب الإنجليزى من مثل ساحرات ماكبث وغابة « جيمس بارى » فى : عزيزى بروتس ؟] .

« ونحن نقول : علا نجمه أو أفل نجمه » (٢٦)

[فهل تخلى المجتمع الغربى الراقى ولغاته ذات السيادة ، عن مثل عبارة « نجوم المجتمع » و « كواكب السينما » ؟]

ومن أسوأ أحافيرنا اللغوية الكبيرة الضرر على مجتمعنا ، « كلمتا شرق

وغرب ، توحيان إلينا أننا ننتمى إلى آسيا وأفريقيا ، وكأننا على عداء مع أوربا وأمريكا » (٢٦) .

[فهل حذفت اللغات الأوربية كلمتى شرق وغرب ، بمثل دلالتهما فى لغتنا العربية ؟ وإن كانت قد حذفتهما دون أن ندرى ، فماذا صنعت بالواقع الجغرافى والقاموس الدولى ؟]

ومن أحافيرنا اللغوية : كلمات الدم والثأر والعرض ، تؤدى إلى قتل نحو ثلثمائة امرأة ورجل فى بعض مديريات الصعيد كل عام ، وسكان الوجه البحرى لا يقتلون مثل هذا العدد من الرجال والنساء لأجل العرض والثأر لأنهم لا يستعملون هاتين الكلمتين فى حديثهم (٢٧)

[فهل صحيح أن سكان الوجه البحرى لا يستعملون هاتين الكلمتين من الأحافير اللغوية ؟ بل هل أخرجت كلمات الدم والثأر والعرض من الاستعمال اللغوى فى المجتمعات الغربية الراقية ؟]

أسئلة لم يشغل الكاتب المصلح باله بها ، وكل ما عناه هو آن يصل من هذا العرض لأحافيرنا اللغوية ، إلى نتيجة وهدف :

« اللغة التى تلابس مجتمعنا هى لغة السوق والبورصة والمصنع والنادى والبيت والكتاب والجريدة والمجلة والمنبر والمدرسة ، أما إذا انفصلت واقتصرت على الكتاب وهجرت المجتمع فصار لنا لغتان ، فإن لغة المجتمع ستبقى حية ، ولكن لا تجد العناية التى يستحقها الحى فهى تعيش فى وكس وضعف ، وتبقى اللغة الأخرى كأنها أحافير تحفظ وتصان كما تصان لغة الكهنة فى المعابد عند المتوحشين » ٢٧ .

[وهنا أيضاً ، لم يشغل الكاتب باله بالسؤال عما إذا كان مفكرو الغرب وفلاسفته وعلماؤه وأعلام أدبائه ، يكتبون حقا بلغة السوق والبورصة والمصنع والنادى والبيت] ؟

بل مضى يتابع البحث فى " ضرر اللغة " علينا ، فإذا عقدة بلاغتنا

العربية أنها تخاطب العواطف دون العقل « وإذا جعلنا المنطق أساس البلاغة العصرية فإننا عندئذ نجعل قواعد المنطق ونظريات إقليدس مما يدرس للتفكير الحسن ، وهو الغاية الأولى للبلاغة . ونبين قيمة الأرقام فى التفكير الحسن » ٣٠ .

[ولى اتصال ببعض ما يدرس من البلاغة فى الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، ولا أعلم أنهم أسقطوا العواطف من مجال البلاغة ، أو استبدلوا بأسرار فن الجمال وفن الكلمة ، نظريات إقليدس وحساب الأرقام ، أو ألغوا الوجدان لتتجرد بلاغتهم لمخاطبة العقل وحده ! !

وإنما الذى أعلمه أن فنية البلاغة قيمة جمالية لا علمية رقمية ، وأن الأسلوب الأدبى لا يختلط عندهم بالتقارير الإحصائية ونظريات أينشتاين وإقليدس ، وأن التأثير فى العواطف والنفاذ إلى الوجدان ، ما يزالان غاية منوطة بفن الكلمة وسائر الفنون الجميلة !]

على أن هذا الذى ذكره الكاتب المصلح من ضرر لغتنا ، يهون بالقياس إلى ما نلقاه بعد ذلك من تحميل اللغة الغربية مسئولية الجنون والإجرام ! وهذا جديد لم يُسبق إليه الأستاذ سلامة موسى ، فيما أعلم !

فجرائم الدفاع عن العرض التى تذكر لنا صحفنا كل يوم جريمة أو اثنتين منها « هى جرائم لغوية لا أكثر . . . وحرادث الجنون تتكرر فى مصر بسبب اللغة .. والشاهد على ذلك أن السيدة الأنيقة تجد توعكاً أو توتراً فى سن الثامنة أو التاسعة والأربعين . فتستشير الطبيب فيقول لها إن حالتها تعد طبيعية فى سن اليأس .. والواقع أن جميع نسائنا يضطربن لهذه الكلمة وقد يزيد الاضطراب بسبب الضرة أو الحماة أو الخوف من الطلاق فيصير جنوناً أو على الأقل شذوذاً يلفت النظر ويحتاج إلى العلاج » ٣٦ ، ٣٧ .

[وأرى الكاتب نسى هنا بلاغة الأرقام فلم يحاول أن يقدم لنا إحصائية عن عدد المجنونات من نساء مصر ، لمجرد سماعهن كلمة سن اليأس ؟ كما نسى أن الجمهرة الغالبة من نساء الشعب المصرى ، يمضين عمرهن كله دون أن يسمعن كلمة سن اليأس من طبيب معالج ، أو يفقهن دلالتها !

بل نسى كذلك أن يحدثنا عن نجاة الغربيات من هزة هذه الفترة من العمر ، لأن لغاتهن أعفتهن من كلمة سن اليأس التى هى عندنا ذريعة الجنون والخبال والشذوذ ، فخلت منهن عيادات الأطباء ومصحات الأمراض النفسية !

بل نسى كذلك أن كل لغات الدنيا ، فيها كلمات الفضائل والرذائل وفيها كلمات المنطق والخبال ، وليست العربية بدعاً بين اللغات ، لتستجيب إلى دعوة الأستاذ سلامة موسى ، فتلغى من معجمها كلمات الرذائل والجريمة والخبال ، ولا تبقى-فيه إلا كلمات الفضيلة والمنطق ، هذا لنكون شرفاء مهذبى السلوك] قال :

« على قدر كلمات الفضائل فى لغتنا نكون فضلاء

وعلى قدر كلمات الرذائل فى لغتنا نكون أرذالا

وعلى قدر المنطق فى كلماتنا نكون منطقيين فى سلوكنا .

وعلى قدر الخبال فى لغتنا نكون مخبولين فى سلوكنا » ٣٨ .

[ولو صح ما ذهب إليه من أن إسقاط هذه الكلمات من معجم لغتنا ، يخلص مجتمعنا من أمراض الجنون والإجرام ، لكان المجتمع الأمريكى أحوج منا إلى هذا الإجراء اللغوى ، لينجو مما يشكوه من انتشار الجرائم والأمراض العقلية والنفسية .

ولو صح ما قرره من أن « الأمم ارتقت بكلمات ذاتية مثل مروءة وشرف وشهامة وحياء وأنفة ، كما انحطت بكلمات ذاتية أخرى مثل شماتة وكفر ونجاسة — ٤٢ » ، لكان للأمة العربية أن تتحدى برقيها كل دول الغرب ، لكثرة ما فى معجمنا وأساليبنا من كلمات المروءة والشهامة والأنفة ، التى رآها الأستاذ سلامة موسى نفسه ، مسئولة عن كل جرائم العرض والثأر] .

* * *

ونمضى مع الداعية المصلح ، لنسمع مقترحاته فى بلاغتنا العصرية ، وأغلالها اللغوية .

إنه يقترح أن نقول مثلا : يبلغ ذكاء هذا الصبى ١١٥ درجة ، بدلا من أن نقول : هذا الصبى ذكى !

وأن نقول : بلغت الدرجة المئوية للحرارة أمس ٣٩ درجة ، بدلا من أن نقول : كان يوم أمس حارًّا مرهقاً .

[فهل هكذا يقول الإنجليز فى لغتهم اليومية فضلا عن أساليبهم البلاغية ؟ وهل بمثل هذا يقيسون بلاغة شعرائهم وكتابهم ، وعبقرية حكمائهم وفلاسفتهم ومفكريهم ، من شوسر وشكسبير وملتن ، إلى ديكنز وشلى وبرونتى وبرناردشو وإليوت ، وولز وراسل وتوينبى ؟ . . .]

ويبهر الأستاذ سلامة موسى من الإنجليز « أنهم يفرقون بين نوعين من الحب باستعمالهم love أو like ، على حين لا نجد فى لغتنا غير كلمة " أحب " نطلقها على الحب البيولوجى ، وحب الملوخية ، والعلاقة بين الأم وأطفالها ، وحب الإنسان لله . . . نطلقها عليها جميعاً لأننا كالمتوحش حين يسمى ما زاد على العشرة : كثير » — ص ٤٤

[وودت لو أننى أرحت الكاتب الكبير من " عقدة المتوحش " هذه ، فقلت له إن لغتنا العربية تميز بين معانى الحب بحس مرهف ، ونحن الموصومين عند الأستاذ بالتحجر والتبلد ، ندرك فروق الدلالة لكلمات : الحب ، والعشق ، والاشتهاء ، والرغبة ، والتعلق ، والمودة ، والحنان ، والبر والإيمان والوجد . . وهذه الفروق فى الدلالة اللغوية ، هى ما التبست عند الكاتب المصلح بالمترادفات فحسبها « ثرثرة صبيانية يضيع بها الوقت ، واللغة الحسنة تتوقى المترادفات » ص ٢] .

ويسخر المؤلف بمصحح شيخ ، عرفه فى إحدى الجرائد كان يشرف على اللغة ويمنع تسرب الأخطاء ، فكان يعارض فى كلمة " ماهية " الموظف ويضرب عليها ويضع بدلا منها مرتباً أو أجراً ، فكان المخبر الذى كتب الخبر يرى عقب طبع الجريدة أن وكيل الوزارة أو رئيس القلم قد زيد أجره ، فيهرول إلى الشيخ ويصرخ ويهيج ، ولكن الشيخ يصر على أن كلمة ماهية لم ترد

قط فى المعاجم بمعنى أجر ، ولاعبرة باصطلاح الحكومة على المعنى الجديد لها (ص ٤٧) .

[وأقول لداعية الاشتراكية والعصرية ، إن كلمه « ماهية » التى أعجبته بديلا من الأجر ، ليست إلا من رواسب (تراب الميرى) ولوائحه المهينة التى كانت لاتعرف ماهية الإنسان العامل إلا بأجره . فهل تقبل كرامتنا العصرية هذه الدلالة المهينة على ماهية الإنسان العامل منا ، بالأجر الذى يتقاضاه نظير عمله ؟ !

لقد كان المصحح الشيخ أهدى حسا ، حين أصر على أن وكيل الوزارة أو رئيس القلم إنما يتقاضيان أجراً عن عمل ، وهذا هو مفهوم الاشتراكية التى دعا إليها الأستاذ سلامة موسى ، ثم تعثر هنا فى أول كلماتها ، فجعل ماهية الإنسان فيما يقبض من مال ، واختار وكيل الوزارة ورئيس القلم لبيان بشاعة استعمال الأجر معهما ، والأمر معهما لا يختلف عما يتقاضاه سائق سيارة الوكيل وحاجب رئيس القلم . من أجر العمل !

وإذ يرى الكاتب أن « الكلاسية داء الأدب العربى ، وأن داء اللغة العربية فى جميع الأقطار العربية هو داء الكلاسية الرجعية التليدة » يقدم لنا مثلا أعجبه من قول شكسبير فى رواية هاملت : « فما تحرك فأر » ويرى أن إنجلترا التى ألف فيها شكسبير ولم يأنف من ذكر الفأر فى درامة عالية مثل هاملت ، لم تكن رجعية ، بل كانت قد استقرت فيها الحرية والبرلمانية بعد قطع رأس تشالس الأول . . .

[وفى مثل هذا أعتذر له ، فإنه بحيث لايدرى أن القرآن الكريم ، الذى يجلو العربية فى أعلى بيانها وأنقى أصالتها ، لم يأنف من استعمال كلمات الذباب والبعوضة والنمل والعنكبوت والحمير والبغال ! ونحن نتلو آياتها فى كتابنا الأكبر فنراها من البيان المعجز :

« يأأيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله

لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعـُف الطالب والمطلوب » — الحج ٧٣

« إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها .. » — البقرة ٢٦

« مـَثـَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » — العنكبوت ٤١

« واقصِد فى مشيك واغضُض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » — لقمان ١٩ .

« مـَثـَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » — الجمعة ٥]

ويتابع الكاتب اختيار دروس لنا من الإنجليزية ، فيذكر من تطورها « أن الملك جيمس حين زار كنيسة سان بول الكاتدرائية عقب انتهاء المهندس من بنائها ، عبر عن إعجابه بهذه الكلمات : Amusing, awful,Artificial فسر المهندس غاية السرور . ولكن هذه الكلمات قد انتقلت فى عصرنا من معنى الاستحسان إلى معنى الاستهجان والاستهزاء . وهذا هو التطور، وهذا هو الرقى » ٤٦ .

[ولا أضرب له مثلا من تطور « طول اليد » من الدلالة على الكرم ، إلى السرقة ، و « الصعلوك » من الفتوة إلى (البلطجة) والقرية من الحاضرة نقيض البادية ، إلى أصغر بلدة فى التقسيم الإدارى ، وحرية المرأة من تصونها فى البيت إلى خروجها من البيت . . بل أقول إنى لو مضيت أعرض لموضوع تطور الدلالات لألفاظ العربية ، لما اتسعت له محاضرات الموسم كله !]

ويتصور الأستاذ بكل بساطة ، فى الفصل الذى كتبه عن "كلمات تبنى الأخلاق" أن «لو كانت لغتنا تحوى خمسين من هذه الكلمات أو التحف الغالية . مثل المروءة والبر والشهامة والفتوة والمجد ، لكان فى مقدورنا أن نبنى بها أخلاق الأمة ونعين لها النفسية التى تعيش بها فى سعادة ورفاهية » — ٦٦

[ولا أجادله فى تصوره ،لكنى أعتقد أن أى أمىّ عربى ، يستطيع أن يسرد من معجمه اللغوى مئات من مثل هذه التحف الغالية التى تبنى الأخلاق ! والمجتمع الأمريكى يئن من ضراوة الجرائم الخلقية ، وما أظنه يعتمد فى مكافحة الجريمة على شحنة من الكلمات الطيبة فحسب !

ومجتمع الصعيد عندنا ، تروج فيه كلمات الشهامة ،الشرف والفتوة والمرءوة ، وقد عدها الكاتب مسئولة عن جرائم العرض والشرف !

ثم لا أدرى كيف يستقيم هذا الفصل كله ، مع ما أنكره المؤلف من « رفض قصيدة لأبى نواس ، وهو المجدد العظيم ، فى إحدى المباريات الأدبية» ٥٣

أو لعله لم يقرأ ديوان أبى نواس ، المجدد العظيم ، وهو مشحون بصور قصائد ماجنة من الشذوذ الجنسى والانحراف الخلقى ، وتفنن السكارى المخبولين !]

* * *

ويُقدم الأستاذ تفسيره الاقتصادى للغة العربية وأدبها ، فيرى « أن المجتمع العربى الذى ورثنا منه أدبنا ولغتنا الكتابية، كان مجتمعنا إقطاعيـاً زراعيـاً.

وكان مجتمعاً دينيـاً ، رئيس الدولة يحمى الدين ، ويحمى الكلاسيكية أى التليدية فى اللغة » ٩٣

أو كما قالها الأستاذ بعبارة أوضح ، فى فصل سابق :

« فاللغة عند الحكومة المصرية ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتليفزيون بل هى لغة القرآن وتقاليد العرب » — ٥٥

وعلى هذا النحو يمضى الكاتب فى بيان ما سماه « شذوذ لغتنا » ومرضها بداء التليدية ، لكى نعرف « لماذا نكره إلغاء الإعراب وتبسيط التعبير بفأر شكسبير واصطناع اللغة العامية كى تعبر الهوة التى تفصل بين الأدب والشعب واتخاذ الخط اللاتينى ، وأيضاً حرية المرأة » — ٥٥

ليصل بنا أخيراً إلى وجوب « أن تكون ثقافتنا كوكبية ، ولغتنا علمية ، وكتابتنا لاتينية » — ١٠٤

وذلك ما نعرض له فى موضعه من المحاضرة التالية عن لغتنا وعلوم العصر ...

* * *

وأرانى أطلت عليكم فى عرض آراء الأستاذ سلامة موسى ومناقشتها . وكان فى الإمكان إرجاء هذا الحوار معه إلى القسم الأخير الذى ذيلت به هذه المحاضرات . لولا أنى آثرت أن يأخذ مكانه فى سياق العرض التاريخى لمشكلة الفصحى والعامية . لأن الأستاذ سلامة موسى يمثل وجهة النظر المعادية للفصحى فى المرحلة التى تلت تحرك الأجانب فى ميدان الصراع .

وترون أنه أضاف إلى ما قالوه فى عقم الفصحى ومسئوليتها عن تخلفنا العلمى وفاقتنا الثقافية وفشو الأمية فينا ، مسئوليتها عن الجريمة والجنون واستعباد المرأة . كما عقد الأزمة بنقلها إلى دوامة المعترك السياسى والصراع المذهبى ، فاستحدث صلة حتمية بين الطبقية الاقتصادية والإقطاع والاستبداد والاستعمار . وبين هذه اللغة المعوقة للحرية والتقدم وللتحول الاشتراكى الذى لا يمكن أن يتحقق مادام فينا علماء متخصصون فى اللغة العربية ، والأصل عنده أن تكون كل العلوم شعبية لا تحتكرها فئة من الكهنة العلماء !

وقد تحاشى الكاتب جهده ، الاصطدام بالقرآن الكريم والأزهر ، كيلا تحمل آراؤه الإصلاحية على محمل التعصب الدينى فيقيم بينها وبين الشعب سدوداً عازلة . . .

أما الأزهر فاستطاع الأستاذ أن يتقى الاصطدام به ، بتوجيه حملته على سدنة الفصحى ، إلى دار العلوم ، فى مقدمة كتابه وفى فصل "الكلاسية داء الأدب العربى" وفى "الخط اللاتينى" وواضح أن دار العلوم ليست أدنى إلى التليدية من الأزهر ، وليس لها مثل تاريخه الطويل فى العكوف على اللغة العربية وآثار السلف .

وأما القرآن الكريم ، فحاول الكاتب أن يتوقاه بتوجيه الحملة إلى ميراثنا اللغوى من عصور بداوة يفصلنا عنها أكثر من ألف عام . غير أن القرآن

يفرض نفسه حتما على كل موضوع يتصل بالعربية الفصحى ، ومن ثم لم يملك الكاتب فى تشخيصه (للكلاسية داء الأدب العربى) إلا أن يقول :

« وإنى بالطبع لا أغفل هنا ارتباط اللغة بالتقاليد والعقائد وأن هذا الارتباط من أسباب الكراهة للتطور اللغوى » المقدمة .

« اللغة عند الحكومة المصرية ليست لغة ديمقراطية والأوتمبيل والتليفزيون ، بل هى لغة القرآن وتقاليد العرب ؛ » — ٥٥

« وبلاغتنا يجب أن تكون بلاغة المنطق والمعرفة ، بدلا من بلاغة الانفعال والعقيدة » — ٦٥ .

ثم يقرر فى (تفسيره الاقتصادى للغة والأدب الغربيين) أن « المجتمع العربى الذى ورثنا منه أدبنا ولغتنا الكتابية ، كان مجتمعنا إقطاعيًّا زراعيا . . ومن شأن الزراعة الجمود ، فنحن نزرع القمح الآن كما كان يزرع قبل ألف أو ألفى سنة . فلم يكن هناك ما يدعو إلى تغيير العقائد أو الأخلاق أو الكلمات الزراعية . . .

وكان أيضاً مجتمعاً دينيًّا ، رئيس الدولة فيه يحمى الدين ويحمى التليدية فى اللغة — ٩٣

* * *

والشعب الذى كان الأستاذ سلامة موسى يخوض المعركة ضد العربية لحسابه ، لم يكن مستعدًّا لسماع كلمة واحدة تمس عقيدته وكتابه الدينى ، بل إنه عن حدس الدفاع عن الذات ضد ذرائع التذويب والتخريب ، لم يكن يحسن الظن بدعاة الانسلاخ عن شرقيتنا وعربيتنا ونبذ تراثنا .

وحين لم يفهم الشعب ، على أى وجه ارتبط الأتمبيل والموطر بالبلاغة العصرية ، ولا من أى سبيل اختلطت هذه البلاغة بلغة الأرقام والمصنع والسوق والبورصة ، ربط الدعوةَ إلى نبذ العربية وتراثها ، بالمكيدة الاستعمارية

ضد العربية ، لسان قومية الأمة ولغة كتابها الدينى الذى يحمى وجودها وعقيدتها ، ويرهف وعيها[١] .

ومن هنا لم تجد دعوة الكاتب المصلح سبيلا إلى التأثير على الوجدان الشعبى والنفاذ إلى الضمير القومى . غير أن آراءه عاشت مع تلاميذ مدرسته الذين حملوا دعوته إلى نبذ الفصحى وميراثها ، وبشروا بأرض جديدة غربية ، وأهووا بالمعاول على كل ما فى أرضنا من جذور ، لم يستثنوا قيمنا الدينية التى رأى بعضهم فى التمسك بها « عملية انتحارية »[٢]

وقد كان فى كل ماقالوه عن جمود الفصحى وعقمها وحيوية العاميات ، مغالطات مكشوفة :

فالزعم بأن الفصحى عاجزة عن مسايرة الزمن وتلبية حاجات حياتنا اللغوية ، مردود بما أثبتت على مسار الزمن من طواعية للنمو وصلاحية للبقاء .

واتهامها بالمسئولية عن تخلفنا وانحطاطنا ، يرده الواقع التاريخى الذى شهدها لغة الدولة الإسلامية فى عصر قيادتها للحضارة الإنسانية .

والزعم بأنها المسئولة عن الجريمة والجنون ، مردود بأن المجتمع الأمريكى مثلا ، لم ينج بلغته الإنجليزية من ضراوة الجريمة ومآسى الجنون .

وما يقال عن حيوية العامية ، مردود بأنها حيوية محدودة المجال بحدود كل قطر إن لم يكن بحدود كل منطقة من القطر الواحد ، محدودة الطاقة بنطاق (السوق والبورصة) والأدب الشعبى: لا تتجاوزه إلى القضايا الفكرية والآداب العالية .

مردود كذلك بأن دعاة العامية أنفسهم — أجانب وعرباً — خاضوا معركتهم

---

(١) انظر أصالة الوعى الشعبى فى كتابى «قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر» ص ٢٩٧ وما بعدها ، ط معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٧ والمعارف ١٩٧٠ .

(٢) انظر : صناديق الدمى ومقابر الأنبياء ، وأصالة الوعى الشعبى فى «قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر» ص ٢٢٥ ، ٢٩٧ وانظر معه : «سلامة موسى وأزمة الضمير العربى المعاصر» للزميل غالى شكرى .

ضد الفصحى باللغة الفصحى ، وكتبوا آثارهم بها ، باستثناء قلة نادرة لا حساب لها فى موازين القوى المؤثرة فى الصراع وفى المناخ الفكرى .

والزعم بأن العامية وسيلة تثقيف الأميين ، لا يعنى فى الواقع سوى ترسيخ الأمية فيهم ، وترسيخ التخلف الثقافى .

وإقحام لغة الأرقام والصناعة على البلاغة العصرية والأدب الجديد ، يرفضه الواقع اللغوى لكل الدول العصرية التى تفرق بين لغة أينشتاين ، ونيوتن وماركونى ، ولغة ديكنز وجوته وڤولتير وبرنارد شو وسمرست موم وإليوت وهيمنجواى . . .

والقول بأن السلفية اللغوية هى داؤنا الوحيد ، لا يبرئنا منه إلا أن « نؤلف فى أقطاب الصناعة فى عصرنا بدلا من التأليف فى معاوية بن أبى سفيان وعلى بن أبى طالب وخالد بن الوليد وحسان بن ثابت » .

ينقضه ما يتعلمونه فى المدرسة الغربية من أعلام العصور القديمة والوسطى ، وما يؤلفون فيه ويترجمون ، من كتب ودراسات عن هوميروس وأرستوفانيس وملتون وشكسبير وإليوت . . . ، وليسوا من أقطاب الصناعة فى عصرنا . .

* * *

لكن مثل هذه القضايا بطبيعتها لا تعتمد على المنطق بقدر ما تعتمد على الجدل الخطابى والاستهواء الحماسى ، وتحاول أن تأخذ طريقها إلى مواطن التأثير بما تقتحم على الميدان من دعوى الحرص على مصالح الجماهير والانتصار لعاميتها وتيسير سبل الثقافة لها . وحين يتصدى الواعون منا لتصحيح هذا الزيف والكشف عن مغالطات الدعوى ، فإن هذا التصدى نفسه — على مايبدو من ضرورته — لا ينجو من انفعال خطابى يتجه إلى التجريح والقذف أكثر مما يتجه إلى النقد الموضوعى والمنطق اللغوى والواقع التاريخى ، ومن ثم تحتدم الخصومة بين أنصار للعامية يرفضون الفصحى ، وأنصار للفصحى ينكرون العامية ، بما يلهب موقف العداء بين اللغة الأم المشتركة ولهجاتها

الإقليمية . وتدخل القضية فى دوامة المعترك الدينى والصراع المذهبى .

فيتسع الميدان لدعاوى مقحمة ومغالطات زائفة أثراً لهذه الخصومة الشاذة التى لا تعرفها طبيعة الحياة اللغوية فى شرق أو غرب ، إذ يُحمل الدفاع عن الفصحى على الرجعية والسلفية والانغلاق والجمود والتوحش ، ويكون الانتصار للعامية عصرية ً متطورة وتفتحاً لعصر جديد . أو على وجه آخر : تُحمل الدعوة إلى العامية على الإلحاد والخيانة ، ويُتهم أنصارها بأنهم جنود غزو لغوى وفكرى ، وحملة دعوة ٍ خطط لها الاستعمار من القرن الماضى .

وما أمر هذا كله منكم ببعيد[1]

* * *

وفى غشية النقع المثار ، تتعذر الرؤية على كثير منا ، فيغيب عنهم أن حياتنا اللغوية عرفت هذه الظاهرة الطبيعية من قديم ، ويعرفها عصرنا فى لغات الشرق والغرب . وتتعقد بهذا أزمتنا اللغوية فيميل بعضنا إلى التخفف من قيود الفصحى ويجد فى العامية حرية وانطلاقا ، ويشتد الآخرون فينبذون فى كتابتهم كل ما يجرى على ألسنة العوام بدعوى الابتذال ، ويترصدون للأقلام يحصون أخطاء قد يكون لها وجه من الصواب .

من حيث لا يمكن ، ولا نملك ، أن نتخلى عن لساننا القومى أو نفرط فى فصحانا التى يرتهن بها وجودنا وبقاؤنا ورقينا الثقافى والفكرى وتقدمنا الحضارى . كما لا نستطيع ولا نملك أن نلغى اللهجات المحلية التى يفرضها واقع تاريخى وسنن حتمية ؛ بل لا نستطيع كذلك ولا نملك أن نوحد عاميات الأقطار العربية فى عامية واحدة هى لهجة أهل القاهرة ، كما دعا إلى ذلك الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس فى (مستقبل اللغة العامية المشتركة) .

ولكن الحديث عن أزمتنا اللغوية ، ينبغى أن ينتظر حتى نفرغ من المشكلات الأخرى التى تواجه وجودنا اللغوى فى هذا العصر .

* * *

---

(١) وانظر كتاب « تاريخ الدعوة إلى العامية آثارها فى مصر » للدكتورة نفوسة زكريا .

اللغة العربيّة وعُلوم العصر

مازال جيلنا منذ وعى ، يسمع دعاوى عن عجز العربية عن أداء العلوم الحديثة ، حتى كدنا ننسى ماضيها العلمى فى عصر الحضارة الإسلامية وفجر العصر الحديث .

ومنذ عُزلت عن الميدان العلمى تدريساً وتأليفاً ، صارت دعوى عجزها من المسلمات البديهية التى لا تحتمل الجدل ، ولم تفلح جهود نصف قرن فى رد اعتبارها العلمى إليها . حتى عرّبت « موسكو » علومَ العصر ، فهل كنا نحرث فى البحر ؟ !

فى صيف عامنا هذا ، تلقيت رسالة من مطبوعات موسكو العربية ، حسبتها أول الأمر مما ينشره « المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى » من ذخائر تراث لنا ، لا يرى فيه رواد الفضاء أكفان موتى وأحافير أثرية من عصور غبرت ، ولا يسمح بأن يجعل من اهتمامه بها موضوعَ جدل أو مناقشة ، ممن قد يتصورون أن جهد المجمع العلمى يجب أن يوفر كله للسباق الظافر إلى بحوث الفضاء.

ثم لما نظرت فى كتب هذه الرسالة من مطبوعات موسكو العربية ، وجدتها جميعاً من صميم علوم العصر التى وُضعت لتكون مرجعاً للدارسين فى الجامعات والمراكز العالية للتدريب الفنى .

وأوشكت أن أطرح هذه الكتب جانباً ، أو أتخفف من عبئها على خزانة كتبى ، فألتمس لها من يهتم بموادها التى لا شأن لى بها ولا اتصال . غير أنى ما لبثت أن ذكرت ما أشتغل به من قضايا حياتنا اللغوية ، فأقبلت على هذه المعربات الواردة من موسكو ، أحاول أن أستبين إلى أى مدى طوّع العلماء السوفييت لغتنا العربية ، لأحدث ما وصلوا إليه فى المجال العلمى والصناعى .

بعد أن تحدثت فى مادتها العلمية إلى عدد من علماء الاختصاص ، فى مقدمتهم عالمنا الحكيم الطبيب « الدكتور محمد كامل حسين » والدكتور « أسامة أمين الخولى » وكيل هندسة القاهرة ، وابنتى « أمينة أمين الخولى » المعيدة بكلية العلوم ، والمتخصصة فى الرياضيات الكونية ونظرية النسبية .

وكانت مفاجأة لى ، أن أقرأ لغتى فى هذه العلوم العصرية : سليمة واضحة ، دقيقة طيعة ميسرة ، لا تتوقف ولا تتعثر .

وأن أمضى فى قراءة المواد العلمية التى انعزلتُ عنها طويلا ، مأخوذة بلهفة من يكتشف فجأة أن أسراراً من لغته غابت عنه .

بعد كل ما ضج به أفقنا العربى المعاصر ، من دعاوى طنانة رنانة ، تؤكد عجز لغتنا عن أداء علوم العصر ، وتبسط عذر جامعاتنا فى الإصرار

على تدريسها بلغة أجنبية . وتنذرنا بأنَ نظل حيث نحن ، متخلفين عن العصر علميًّا وصناعيًّا ، إن نحن جازفنا بتعريب العلوم استجابة لعاطفة قومية ساذجة ، لا مجال لها فى عصر العلم ؟

فبالغ علمى ، أن جيلنا مازال منذ وعى ، يسمع هذه الدعوى تدوى كالطبول . فأما الذين جهلوا منا تاريخ الأمة فأيقنوا أنها حق لا ريب فيه ، وأما الذين اتصلوا بماضى الأمة ودرسوا تراثها العلمى ، فقد وقعوا فى حيرة من أمر هذه العربية : من أين أصابها العقم وهى التى استطاعت منذ عشرة قرون وأكثر ، أن تستوعب كل التراث الفلسفى والعلمى للأمم القديمة ، وأن تنقل إلى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التى عرفها التاريخ ؟

وكيف يعييها اليوم أن تنقل علوماً كان للعلماء العرب : فى عصر الحضارة الإسلامية ، مجدُ الريادة فيها وتحريرها من المنهج التأملى الفلسفى الذى كان يسيطر على العقلية اليونانية فى عصر قيادتها للفكر الإنسانى ، فيردها إلى غيبيات مما وراء الطبيعة ، مترفعاً أو عاجزاً عن التجربة العملية بمنهجها الاستقرائى الدقيق وأجهزتها المعملية ؟

* * *

ومن وراء ثلاثة عشر قرناً مضيت أساير التاريخ العلمى لأمتى ، وأنا فى أخذة العجب لهذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية فى موسكو .

من القرن الأول الهجرى ، السابع الميلادى ، بدأ اتصال العربية بالتراث العلمى القديم ، فى حركة ترجمة لكتب فى النجوم ، والفلك ، والطب والكيمياء ، برعاية أمير من البيت الأموى ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » الملقب بعالم بنى أمية .

على أن الترجمة لم تلبث أن أخذت فى العصر العباسى الأول وضعاً رسميًّا ، تدخل به فى سياسة الدولة وتعتمد على رصيد سخى من الخزانة العامة ،

وقد استوعبت الحركة فى عصر الرشيد وولده المأمون ، ذخائر التراث الفكرى والعلمى فى الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة ، لليونان والفرس والهند ومصر .

ثم ما لبثت العقلية الإسلامية أن هضمت ذلك التراث وتمثلته فأعطته روحاً جديدة ، على نحو ما فعلت مدرسة الإسكندرية بالفكر اليونانى حين هاجر إليها .

وتلقى معجم العربية رصيداً ضخماً من المصطلحات العلمية المعربة ، إلى جانب الألفاظ العربية التى أمكن تطويعها للمصطلح العلمى . . ولا يذكر التاريخ أن حركة إحياء التراث العلمى قد انتظرت طويلا ريثما يستقر رأى المختصين على إمكان نقل العلوم إلى العربية ، أو صدور فتوى من رجال الدين فى جواز تعريبها .

وفى طمأنينة واثقة من تأييد العقيدة الإسلامية للعلم وتمجيدها للعقل ، انطلق علماء الدوله الإسلامية ينظرون فى الظواهر الكونية بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة المريرة بين العلم والدين ، فلم يمض قرن على تعريب التراث القديم حتى قدم هؤلاء العلماء جديداً أصيلا من العلوم الطبيعية والرياضية ودخلوا التاريخ العلمى رواداً لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم .

ومن القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، بدأت المكتبة العربية تتلقى أوليات الكتب العلمية التى ألفها أولئك الرواد ، فاستطاعت لغتنا أن تؤدى كل مصطلحات العلوم الرياضية والطبيعة ، كما تلقت المراصد الفلكية والمعامل التجريبية ، الأجهزة العلمية التى اخترعها علماؤنا الذين تم على أيديهم نقل العلوم الطبيعية والفلكية إلى مجال البحث العلمى التجريبى ، وكانت فى التراث البابلى مختلطة بالسحر ، وفى المدارس اليونانية داخلة فى نطاق البحوث العقلية والدراسات النظرية والفلسفة التأملية . .

وكل هذا مما لا يجهله دارسو التاريخ العربى والحضارة الإسلامية . وقد كان جديراً بأن يصل إلى المنتمين منا إلى الثقافة الغربية ، عن طريق المؤرخين الغربيين للحضارة والعلم . وهم قد شهدوا بأن المرحلة الرائدة لعصر العلم الحديث تمت على أيدى علمائنا فى العصر القيادى للحضارة الإسلامية ، واعترفوا بأن حركة الإحياء (الرينسانس) التى بدأت بها النهضة الحديثة فى أوربا ، إنما قامت أساساً على ما انتقل إلى الغرب الأوربى من تراثنا العلمى والحضارى على المعابر التاريخية الكبرى فى العصر الوسيط : الأندلس وصقلية والدردنيل ..

كما شهدوا بأن علوم الطب والرياضيات والفلك والكيمياء ، سارت فى الغرب الحديث على الدروب التى عبدها رواد هذه العلوم من أعلام الدولة الإسلامية ، وقد ثبت تاريخيا أن أكثر مؤلفاتهم العلمية والفلسفية كانت تدرس فى جامعات أوربية إلى القرن السابع عشر ، فى أصولها العربية أو مترجماتها اللاتينية التى تتابعت من القرن الثالث عشر الميلادى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقرر تاريخ العلم أن رسائل « جابر بن حيان — ت ١٩٨ هـ » التى ألفها فى الكيمياء باللغة العربية فى القرن الثانى الهجرى ، عرفتها أوربا فى نصوصها العربية وفى ترجمات لاتينية ثم ألمانية (هولميارد Holmyard: ١٧٦٨م) ثم ترجمها إلى الإنجليزية ريتشارد راسل R. Russel فى طبعة لندن ١٩٢٨ .

وكتاب الحساب والجبر والمقابلة ، الذى ألفه « أبو عبد الله محمد بن موسى ، الخوارزمى — ت ٢٣٦ هـ » فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، نقله « جيرار الكريمونى » إلى اللاتينية فى القرن السادس عشر الميلادى ، ثم نشر « روزن : F.Rosen » نصه العربى مع ترجمة إنجليزية فى طبعة لندن ١٨٥٠ .

ونشر « ناجل : A-Nagell » ترجمة الأبواب الخاصة منه بالحساب كما وضع « جاندتز S.gandz » كتابا عن مصادر جبر الخوارزمى .

وكتاب (الحاوى لصناعة الطب) الذى ألفه طبيبنا « أبو بكر الرازى

ت ٣١١ هـ » من علماء القرن الثانى وأوائل الثالث الهجرى » تحمل أقدم نسخة عربية منه فى أوربا ، تاريخ سنة ١٢٨٢ بمخطوطات المكتبة الوطنية فى باريس (الناسيونال) وترجمه إلى اللاتينية « جيرار الكريمونى » عام ١٤٨٦ ونص رينو فى ترجمته الفرنسية لكتاب إدوار براون (الطب العربى) على أن كتب الرازى التى ترجمت إلى اللاتينية بلغت خمسة وعشرين جزءاً .

والجزء الخاص منه بالتشريح ، والمعروف بالمنصورى — أهداه إلى المنصور بن إسحاق والى خرسان — نشرت ترجمته فى طبعة ميلانو ١٤٨١ م ثم نشره « كونينج P. Koning » — مع أجزاء من (كتاب الكناش الملكى) لعلى ابن عباس والقانون لابن سينا — فى طبعة ليدن سنة ١٩٠٣ ، وترجمه « برونر W. Brunner إلى الألمانية فى طبعة برلين ١٩٠٠ .

ورسالته فى الجدرى والحصبة ، ترجمها « فالا E. Vall » إلى اللاتينية فى طبعة البندقية عام ١٤٩٨ م ، و«جاك جوبيل : J.Goupyl » إلى اليونانية فى عام ١٥٤٨م ، وترجمه إلى الفرنسية « جاك بوليه J. Poulet » فى طبعة باريس ١٨٦٦ ، ولوكلير ولينوار Leclere, Lenoir فى طبعة باريس سنة ١٨٦٦ ،ونشر« جرينهل W. Greenhill» نصه العربى مع ترجمة إنجليزية فى طبعة لندن ١٨٤٨ ، كما نشر النص العربى مع ترجمة فرنسية عام ١٨٩٦ ، وترجمه « كارل أوبيتز K. Opitz » إلى الألمانية فى طبعة ليبزج ١٩١١ .

وكتاب « على بن العباس — ت ٣٨٤ » كامل الصناعة الطبية ، المعروف بالكناش الملكى . ألفه بالعربية فى القرن الرابع الهجرى . وترجم إلى اللاتينية فى طبعة البندقية سنة ١٤٩٢ ثم فى طبعة ليدن سنة ١٥٢٣ .

وبصريات « الحسن بن الهيثم — ت ٤٢٢ هـ » التى ألفها بالعربية فى كتاب من سبعة أجزاء بعنوان (المناظر) عُرف مع غيره من مؤلفات ابن الهيثم فى ترجمات لاتينية بالعصور الوسطى . ونشر « ريزنر Risner » ترجمة لاتينية كاملة للمناظر بأجزائه السبعة ، عام ١٥٧٣ . كما نشر كارل شوى K. Schoy بالألمانية عام ١٩٢٠ ، رسالة ابن الهيثم فى استخراج القطب .

وكتاب (الأدوية البسيطة) للطبيب الأندلسى « ابن الوافد » نشرت ترجماته اللاتينية نحو خمسين مرة .

وكتاب (التصريف) للطبيب الأندلسى « أبى القاسم الزهراوى — ٤١١هـ» ترجم إلى اللاتينية فى طبعة البندقية سنة ١٤٩٧ ثم فى طبعتى ستراسبورج سنة ١٥٣٢ ، وبال سنة ١٥٤١م . والجزء الخاص منه بالجراحة ، كان أساساً للتعلم الجراحى بأوربا لبضعة قرون ، وقد نشر نصه العربى مع ترجمة لاتينية فى طبعة أكسفورد سنة ١٧٧٨ م .

وقانون « الشيخ الرئيس ابن سينا ، أبى على الحسين — ت ٤٢٨ هـ » فى الطب ، المؤلف بالعربية فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، من خمسة أجزاء ، ترجمه إلى اللاتينية « جيرار الكريمونى » ونشر فى طبعات ميلانو ١٤٧٣ ، وبادوا ١٤٧٦ ، والبندقية ١٤٨٢ ، ثم أعيد طبعه حتى بلغت طبعاته عشرين مرة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ونشر نصه العربى فى روما سنة ١٥٩٣ م .

وكتاب « الشريف الإدريسى — ت ٤٥٧ هـ » : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، الذى ألفه بالعربية فى صقلية ، فى القرن الخامس الهجرى ، كان المرجع الجغرافى الأول فى عصر النهضة ، ونشرت أجزاء منه فى ليدن سنة ١٨٦٦ م ، وفى روما مع ترجمة إيطالية سنة ١٨٨٣ ، وفى مدريد سنة ١٠٩١ وترجمه دى جويه ودوتز : M. D. Joeje, R. Doz إلى الألمانية فى طبعة أوبسالا سنة ١٨٩٤ م .

ومفردات « ابن البيطار — ت ٦٤٦هـ» فى الأدوية التى ألفها بالعربية فى كتابه (الجامع فى الأدوية المفردة) فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عُرفت فى نصها العربى بأوربا فى عصر النهضة ، وترجمت إلى اللاتينية قبل أن ينقلها « فون زونتهايمر » إلى الألمانية فى طبعة شتوتجارت (١٨٤٠ : ١٨٤٢ م) و « لوكلير » إلى الفرنسية فى طبعة باريس (١٨٧٧ : ١٨٨٣ م) .

ثم لا أمضى فى سرد ما أحيا الغرب من ذخائر تراثنا العلمى[(١)] الذى صد عنها المتفرنجين من مثقفينا ، كونُها من حفريات ماضٍ غبر ، ومخلفاتِ موتى أفناهم البلى .

فى الوقت الذى يشهد فيه مؤرخو الحضارة الغربيون ، من أمثال « سارتون وول ديوارنت ، وألدوميلى ، ونللينو ، وأمارى ، وآدم ميتز ، ولوبون ، ودى بور وأوليرى ، وبراون وكراتشكوفسكى ، وتوينبى ، وسيجريد هونكه ... » أن هذه الذخائر فى أصولها العربية وترجماتها اللاتينية ، هى التى أضاءت للغرب مسراه من ظلمات العصور الوسطى إلى عصر النهضة والعلم الحديث .

* * *

وأدع تاريخ العصر الوسيط ، فأرى لغتنا العربية قد سايرت التقدم العلمى فاستطاعت فى فجر العصر الحديث عندنا ، أن تأخذ دورها فى مدارس العلوم العسكرية والهندسية والطب والزراعة ، فى أوائل القرن الماضى . وحين اقتضت ظروف المرحلة الاستعانة بأساتذة من علماء فرنسا – مثل كلوت بك الطبيب ، والدكتور فيجرى عالم النبات – كان المترجمون يعربون مؤلفاتهم ، ويحضرون معهم فى قاعات الدرس لترجمة دروسهم إلى اللغة العربية التى ظلت لغة التعليم الرسمية إلى بداية عصر الاحتلال . ولم يفكر أعضاء البعثات العلمية الأولى ، الذين أوفدوا إلى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة ، فى أن يعودوا فيلقوا دروسهم على طلاب المعاهد العليا بلغة أجنبية ، بل قدموا إلى مكتبتنا العلمية رصيداً ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم .

---

(١) من أقرب المراجع لهذا الموضوع ، كتاب (العلم عند العرب) لألدوميلى ، ترجمة د . عبد الحليم النجار ، د. محمد يوسف موسى ط دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢ . وتجد فى الفصل الأول من كتاب الدكتور توفيق الطويل (العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى) ١ – النهضة العربية ١٩٦٨ ، دراسة وافية لهذا الموضوع مع فهرس لمصادر البحث ومراجعه .

وكتاب كراتشكوفسكى : (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) فى ترجمته العربية للدكتور صلاح الدين هاشم ، نشر جامعة الدول العربية .

ألف الجراح الشهير « محمد على البقلى » كتباً عربية فى الجراحة ، و « محمد الشافعى » فى الأمراض الباطنية ، و « محمد ندى » فى النبات والحيوان والجيولوجية والطبيعة ، والصيدلى « على رياض » فى الصيدلة والسموم ، و « محمد الدرى » فى الجراحة وفى الأمراض الوبائية ، و « سالم سالم » فى الطب الباطنى . و « ومحمود الفلكى » فى التقاويم والمقاييس والفلك ، و « محمد بيومى » فى الحساب والجبر والمثلثات والهندسة الوصفية . . . . .

وشارك علماء اللغة فى هذه النهضة العلمية ، فكان منهم خبراء متخصصون فى تحرير الكتب العلمية وتصحيحها ، منهم « محمد عمر التونسى » مؤلف (معجم الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية) و « إبراهيم الدسوقى » الخبير بمصطلحات العلوم الرياضية ، و « رفاعة رافع الطهطاوى ، وأحمد فارس الشدياق ، والمعلم بطرس البستانى » فى ألفاظ الحضارة والفنون (١) .

وكان تراث هذا الجيل من العلماء المصريين ، بين أيدى المستشرقين العلماء الذين وفدوا على الشام فى النصف الثانى من القرن الماضى ، وشاركوا فى هذه النهضة العلمية بتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها باللغة العربية .

وقد اشتهر منهم « الدكتور كرنيليوس فانديك » الذى درس فى بيروت بالعربية ، الكيمياء والجويّات وعلم الأمراض . وعرفت مؤلفاته العربية : الباثولوجية فى مبادئ الطب البشرى ، والنقش فى الحجر ، فى تسع مجلدات صغيرة ، كل مجلدة منها موجز فى علم من العلوم الحديثة ، كالكيمياء والطبيعة والنبات والجيولوجية والفلك والجغرافية الطبيعية . وله كتب عربية أخرى

---

(١) من مراجع هذا الموضوع :

(تقويم النيل) و (التعليم فى مصر) لأمين سامى : ط القاهرة .

(تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر) لأحمد تيمور ١٩٤٠ .

(المصطلحات العلمية فى اللغة العربية) للأستاذ مصطفى الشهابى : معهد الدراسات العربية ١٩٥٥ .

(تاريخ التعليم فى مصر) للدكتور أحمد عزت عبد الكريم — القاهرة ١٩٤٥ .

فى الرياضيات ، وأصول الجبر ، والأصول الهندسية ، وأصول علم الهيئة ، ومحاسن القبة الزرقاء فى الفلك . . .

و « الدكتور جورج بوست » قام بتدريس الجراحة والمواد الطبية والنبات باللغة العربية . ومن مؤلفاته فيها : المصباح الوضاح فى صناعة الجراح ، والأقرباذين والمواد الطبية ، ومبادئ التشريح والصحة والفسيولوجية ، وكتاب من جزأين فى مبادئ علم النبات . وقد ألف معجماً قيما باللغة الإنجليزية فى (نبات سورية وفلسطين والقطر المصرى وبواديها) ذيله بفهرس للأسماء العربية ، فصحى أو عامية ، لمصطلحات المعجم ، عددها نحو ألف وخمسمائة اسم .

و « الدكتور يوحنا ورتبات » علّم الطب فى كلية بيروت ، باللغة العربية ، وألف بها كتب التشريح ، والفسيولوجية ، وحفظ الصحة . ورسائل عديدة فى مسائل طبية [1] .

* * *

إلى هنا تنتهى خلاصة المعروف من تاريخنا العلمى ، قبل أن تتسلل إلى أفقنا دعوى عقم العربية وعجزها . .

أما ما بعد ذلك ، فيشبه أن يكون قصة محيرة يشق على الدارس منا أن يميز خيوطها المتشابكة فى نسيج معقد أشد التعقيد !

من أين بدأت هذه الدعوى ؟

وكيف سارت ؟ وإلى أين انتهت ؟

من العسير أن نستوعب القصة فى أقطار الوطن العربى ، وقد أكتفى فى هذا المجال المحدود ، بتتبع فصولها فى مصر التى كانت مركزاً للغزو الفكرى بالمشرق ، بحكم دورها القيادى فى فجر اليقظة العربية ، وإن تكن القصة قد تكررت بصورة أو بأخرى فى سائر أقطار الوطن العربى .

---

(١) الأستاذ مصطفى الشهابى . المصطلحات العلمية فى اللغة العربية ص ٤٢ ط المعهد .

مع بدء نكبتنا بالاحتلال ، عُزلت اللغة العربية عزلا تامًا عن تدريس العلوم الحديثة التى فرض المستعمر دراستها بلغته . وساير هذا الانقلابَ ترسيخٌ لفكرة عجز العربية عن تدريس أى علم حديث ، وإنما حسبها أن تبقى فى الكتاتيب والمعاهد الدينية والمدارس الأولية المحجوبة تماما عن الثقافة العلمية الحديثة .

ثم ما لبثت الفكرة أن جاوزت مجالها المحدود ، فى القول بعجز العربية عن العلم الحديث ، إلى دعوى تعلن أن تخلفنا العلمى والقومى والحضارى فى عصور الانحطاط ، إنما يرجع إلى تشبثنا بلغة بدوية من أحافير عصر الناقة ، لا تصلح لغير حداء الإبل والوقوف على الأطلال ، ومحكوم علينا أن نظل نعيش بعقلية الريفيين والبدو فى مجتمع الزراعة والرعى ، إذا لم نهجر هذه اللغة العتيقة إلى لغة عصرية حية .

وقد اختلطت الدعوى فى بعض مراحلها الأولى بالدعوة إلى اللغة العامية ، فالدكتور « سبيتا » كان يرى لنا أن نهجر الفصحى السائرة إلى الموت ، إلى اللغة العامية على أن نكتبها بحروف لاتينية .

لكن الحملة على الفصحى سارت بعده فى طريقين : أحدهما يدعو إلى العامية وقد مضى القول فيه ، والآخر يدعو إلى لغة أجنبية حية بديلا للعربية المحتضَرة ، وهو ما يتصل بمشكلة لغتنا والعلوم الحديثة .

* * *

مع بوادر الثورة العرابية ، روّج عدد من المثقفين العرب فكرةَ استبدال لغة أجنبية بلغتنا العربية ، وإذ كان قادة الأمة قد وجدوا فى العامية وسيلة إلى التعبئة الثورية للوعى الشعبى ، فإنهم لم يجدوا فى الدعوة إلى لغة أجنبية سوى مسخ لشخصية الأمة وقضاء عليها .

وبدأ « عبد الله النديم » من العدد الأول من (التنكيت والتبكيت) حملته على دعاة اللغة الأجنبية ، بحوار ساخر بين ابن البلد وبين « عربى تفرنج » ثم كتب فى العدد الثانى مقالا عنوانه " إضاعة اللغة تسلم للذات " سأل فيه

الناطق بالضاد ، بم يستعيض عن لغته وما لها من مثيل ؟ أعن جهل بتاريخ لغتنا وأسرارها وتراثها وحيويتها ؟ أم عن افتتان بحسنٍ فى لغة أجنبية حديثة ليس فى لغتنا ؟ ثم استطرد يقول : « إن اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم . . . فهى أنت إن كنت لا تدرى من أنت ؛ وهى وطنك إن لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فلأنك بها تعرف أهلك ، وأنت إذا فقدتهم صرت وحيداً غريباً فى الوجود لا يقول لك قائل من أنت ، وأما كونها وطنك فإنه إنما يعمر ويسمى وطناً بأبنائه ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

« أسمعك تقول : إذا فقدت لغتى اعتضتُ عنها بأخرى . اعتضتَ ولكن بما أضاع منك الوطنية والمعتقدات الدينية . . . فتبَيت وأنت وطنى حر ، و تصبح وأنت فى يد أجنبى يصرفك كيف يشاء . . . لأن إضاعة اللغة تسليم للذات » .

وهنا تقدم « الأستاذ أمين شميل » فدخل ميدان المعركة بكل وزنه الثقافى ومكانته الأدبية ، فلم يكتف بأن نستعير لغة أجنبية لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها ، بل نادى بأن نتخلى عن العربية ، فصحى أو عامية ، إلى لغة أجنبية تحيينا علميا وثقافيا واقتصاديا . وأكد عقم كل محاولة تبذل لإحياء لغتنا العربية المقضى عليها حتما بالموت !

وكانت وجهة نظره :

— أن اللغة أداة للتعبير . والمرء لا يقيد بلغة خاصة إذا ما استطاع أن يصل إلى الهدف وهو التعبير عن نفسه . وإذا كانت اللغة العربية ليست أداة صالحة للتعبير لضعفها وضعف أهلها ، فلا لوم عليه إذا تركها إلى غيرها من اللغات الأجنبية لأن الإنسان مفطور على طلب التقدم .

— أن اللغة العربية سائرة حتما إلى الموت كما ماتت لغات من قبلها كانت لها خصائص ومميزات مثل اللغة العربية . ومع ذلك لم تستطع أن تتغلب على الموت . فبأى شىء نستبقى العربية ونغرى بالتمسك بها : بحسن كلام أم بلطافة

لفظ أم بكثرة مواد لغوية وفصاحة عبارة ؟ أليس ذلك كله كان كثيراً فى لغات ماتت كاليونانية والسريانية والكلـــدانية والقبطية ، دون أن يقيها من الموت شيء ؟

ـ أن إحياء اللغة العربية بعد موتها أمر معجز عسير غير مأمون العواقب فضلا على كونه غير مجد ، من الناحيتين المادية والعلمية على السواء . وأنّى لنا أن نكون خيراً من أصحاب تلك اللغات الميتة ، ولسنا سوى بشر من صفاتهم العجز ، وخلفنا مهام هذه الحياة تشغلنا بطلب الرزق ؟

« وهل الاشتغال بإحياء ما قضت الحياة بموته يؤتينا خبزاً ؟ اذهب إلى دوائر أحكامنا ومراكز تجارنا ، وانظر بكم يؤجر الكاتب الضادى والكاتب الدالى ، ثم ألف لك كتاباً واجعله كله ضاداً ، واصرف فيه عمرك واعرضه على قومك ، فترى ما لبضاعتك من رواج .

« أما اللذة العقلية التى أحصلها من درس لغتى لأفهم كتب علمائها الجليلة وأملأ صدرى من فرائد أقوالهم البديعة ، فإنك تعلم أولا أن كل لذات علوم الدنيا لا تملأ بطن جائع ، ولا لذة عقلية لمن لا يحسن غذاء جسده . وقد نسيت ثانياً ، أن مؤلفاتنا التى نفتخر بها ـ يعنى ذخائر تراثنا ـ قد نهبت لفظاً ومعنى إلى مراكز الأمم النامية ـ يعنى : الراقية المتقدمة ـ فزادوا عليها أموراً كثيرة ، فهى حية فى تلك الأمم ميتة عندك ، لأسباب منها : عدم صحة النسخ فكتبنا كلها أغلاط . ومنها عدم وجود من يفهمها الآن وقد مات من كان يعرف معانيها ، ومنها أن كثيراً قد نُسِخ بما أظهرته التجارب وقام غيره مقامه . ومنها الزيادات الجوهرية التى حدثت بعدهم ويجب معرفتها مما لا وجود له فى الكتب ؛ ومنها عدم وجودها كلها إذ لم يبق منها إلا الطفيف .

لقد هزلت حتى بدا من هزالها   كُلاها وحتى سامها كلُّ مفلسِ

وهذا الهزال الباقى إذا كنت سعيداً وعثرت عليه ، تلتزم بدفع ثمنه

مالا جزيلا ، ومن أين لك المال يا أخى وأنت تتجر ببضائع أكلها العث وبدلتها الموضة ؟

ــ أن من أراد كسباً مادياً وعلمياً فليختر لغة غير العربية « أية لغة أجنبية إن كتبتَ بها راجت كتابتك ، وإن طلبت تحصيل علم فيها وجدت كتباً لا تحصى فى غاية الضبط والكمال وامتلأت بها خزانتك . منها كتب أجدادك قد تصفحها أضدادك ونقحوها وشرحوها وزادوا فيها ، ويسروها لك بثمن أرخص من الفجل . فإذا اشتبه عليك معناها وجدت ألوفاً يكشفون لك غوامضها ويحلون لك عقدها . نعم إن فى لغة الطفولية لذة ووطنية ، إلا أن الوطنية الحقة ، ودعنا من الكلام الفارغ ، قائمة فى المعانى لا فى الألفاظ أعنى فى صيانة حقوق الأفراد وإحكام العدل والتسوية والالتفات إلى الأمة ولغتها وعدم إعطاء خبز بنيها لغيرهم ، فإذا فعلت هيئتنا ذلك هان علينا كل شىء ، وإلا فأنت تضرب فى حديد بارد ، وكانت الوطنية قولهم : ضرب زيد عمراً ، واشتعل الرأس شيباً » .

وقد نشر النديم مقال أمين شميل بعنوان "كلمة غيور على لغته" » فى العدد الخامس من (التبكيت والتنكيت : ١٠ / ١٨٨١/٧) .

ثم بدأ الرد عليه ، فرأى أن يفرغ أولا من بيان حقيقة أن إضاعة اللغة تسليم للذات ، واستغرق الشرح مقالا مطولا فى العدد الثالث عشر من التنكيت (١٨٨١/١١) حيث أوضح أن من يتخلون عن لغتهم يفقدون الجنسية رأساً ويتجنسون باللغة الطارئة ، « فإذا كانت أمة مستقلة وغيرت لغتها بغيرها ، ضعف فيها الاستقلال بقدر ما يضعف من لغتها ، فإذا تم التغيير فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان » .

لكن أحداث الثورة العرابية لفتته فى دوامتها ، حتى إذا عاد إلى الظهور بعد أن اختفى تسع سنين ، كان الاحتلال الإنجليزى قد تسلط على مرافق البلاد الحيوية ، وعزل اللغة العربية عن المجال التعليمى والعلمى ، وفرض اللغة الإنجليزية لغة التعليم .

وإذ كانت السلطة حين رخصت للنديم فى إصدار صحيفة « الأستاذ » قد حرمت عليه الاشتغال بالسياسة ، جعل منها النديم مجالا للدفاع عن لغة الأمة ولسان قوميتها ، وحشد طاقته للجهاد فى معركة الغزو اللغوى الذى كان ذريعة لترسيخ الاستعباد السياسى والقضاء على الأمة .

وبدأ نضاله من حيث انتهى به القول فى إضاعة اللغة تسليم للذات عام ١٨٨١ م ، فاستأنف رده على المقال الذى كتبه أمين شميل قبل نحو أحد عشر عاماً . فلم يلمه على ترك اللغة العربية وليست لغة الإنجيل كتاب دينه ، ولكن ماذا عن القرآن ؟

ورد على المقارنة بين فقر الكاتب الضادى وهوانه لدى الحكام وأصحاب العمل ، مع غنى الكاتب الدالى وقيمته ، « بأن الأمة ليست كلها فى دوائر الحكومة ولا متجرة مع أوربا . وإنما ألجأ بعض الأمة إلى تعلم اللغات الأجنبية سوء تصرف بعض الحكام ، فبدل أن يتكلف الأوربى المنتقل إلى بلادنا اتجاراً واستيطاناً تعلم لغتنا ، ليعاملنا أو يخاطبنا بها ، علموا هم بعض الأمة ليخدم الأوربى ويساعده على نفوذه باتساع نطاق لغته فينا . فحق لهذا الفاضل — الأستاذ شميل — أن يبكت الذين أحيوا لغة الأجانب بإماتة لغة البلاد . ولكن لو فرض وتعلمنا اللغات الأجنبية وتكلمنا بها عند الحاجة إليها ، لوجب أن نحافظ على لغتنا لبقاء الدين والجنس ببقائها » .

وحديث « شميل » عن ذخائر تراثنا التى رأى أن يلتمسها من شاء منا لدى الأجانب التى نهبوها وفهموها وشرحوها ويسروها للقراء ، رد عليه النديم بأن فى كلامه إقراراً بأن الإنجليزى أو الفرنساوى ، لم يفهمها إلا بعد أن تعلم لغتنا وأتقن معرفة قواعدها ، وإلا استحال عليه أن ينطق بالكلمات العربية من مخارجها فضلا عن فهم معناها ، « فإذا كان الأجنبى يتعلم لغتنا لينقل ما فيها إلى لغته ، أفلا نتعلمها للمحافظة على ما عندنا ؟ وإذا كان الأجنبى يقدر على فهم معانى لغتنا وهى أجنبية عنه ، أفلا نقدر على فهم مؤلفات علمائنا ونحن من عشيرتهم ؟ وأما تعليله بالأغلاط — فى كتب تراثنا — فأظنه من باب

التنكيت فإن الذين تمدح بهم من الإفرنج ما أخذوا تلك العلوم إلا من هذه الكتب ، فيلزم أن تكون علومهم فاسدة لأنها مأخوذة عن أغاليط لا صواب فيها ! فإن قيل إنهم صححوها وهى بغير لغتهم ، قلنا : أفلا يقدر أصحاب اللغة على تصحيح كتبهم وهم أدرى بها من غيرهم ؟ وأما قوله : قد مات من كان يفهم معانيها ، فإنه منقوض بنفس القائل ، فإنه أحد من يتكلمون باللغة العربية وله اقتدار على فهم معانى تلك المؤلفات والأخذ منها والنقل عنها ، كما فعل فى مؤلفاته العربية [١] مع كونه غير مشتغل بجميع العلوم العربية ، فالعلماء القائمون بتعلم تلك العلوم ودراستها يعرفونها حق المعرفة ، ولهم على كل كتاب شروح وحواش ، تشهد بذلك الكتب التى ألفت من القرن الأول الإسلامى إلى الآن . على أن العلوم التى أهملت فى الشرق كالطب والهندسة والجغرافية وغيرها واستعملت فى الغرب ، قد ترجمها الشرقيون إلى لغتهم وقرأوها فى مدارسهم . فهذه المدارس المصرية قرئت فيها العلوم القديمة والمترجمة ، ولم يفتها شىء مما كتب فى أوربا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنساوية أو الإنجليزية إلا فى هذه السنة ، وهى نشأة مؤقتة لا تمكث إلا بقدر ما يطالب المصريون بحياة لغتهم التى يصرفون أموالهم على المدارس التى هى فيها ، ولا يعارضهم فى ذلك معارض ، فإن الأجنبى لم ينفق على المدارس درهماً ولا ديناراً حتى يحتم علينا لغته التى لا حاجة لنا بها فى التدريس »

(الأستاذ: ٢٠ - ٣ / ٦ / ١٨٩٣)

* * *

وهذا الحوار بين النديم وشميل ، يكفى هنا لإعطاء فكرة عن أبعاد المعركة وأسلحة الفريقين فيها ، لكى نتابع قضية العربية والعلوم الحديثة

---

(١) ألف الأستاذ أمين شميل فى القانون والسياسة والأدب . ومن مؤلفاته : (الوافى) فى تاريخ المسألة الشرقية ، والمبتكر فى الأدب (٥ مقامات + ٢٥ قصيدة) ونظام الحكومة الإنجليزية ، والدرة الجليلة فى المباحث القضائية .

فنرى أنه بقدر ما رفض الضمير القومى التخلى عن لغة الأمة ، عجز عن التصدى لفرض العربية على المجال العلمى ، وقد عُزلت تماماً عن هذا المجال ، حتى اعترف الوطنيون أنفسهم بقصورها عن أداء العلوم الحديثة ما لم تُبذَل جهود مخلصة لعلاج هذا القصور .

ويمكن القول إن الشعور بمحنة العربية ، بدأ منذ أغلقت المعاهد العلمية ومدرسة الألسن فى عصر سعيد ، ففى عام ١٨٦٠ دعا « أحمد فارس الشدياق » فى (مجلة الجوائب) إلى أن تتآزر جهود المشايخ والعلماء ، لتعريب المصطلحات فى العلوم والفنون التى لم يكن لسلفهم معرفة بها . وحَمَل الدعوةَ من بعده « عبد الله فكرى » فى (الآثار الفكرية) عام ١٨٧٦ ، ثم تولاها النديم فى (الأستاذ) من عام ١٨٩٢ لافتاً إلى واجب القائمين بالأمر فينا « فى أن يحولوا بين اللغة وموتها بإحداث جمعية من مشايخ الأزهر وأفاضل العلماء العارفين باللغات الأجنبية ، ليضعوا للاصطلاحات الطبية والكيمياوية والهندسية ومفردات الكلام ، أسماء عربية تدرس بها تلك العلوم » .

ووجدت الدعوة استجابة عملية ، ففى أوائل عام ١٨٩٣ اجتمع فى دار السيد محمد توفيق البكرى عدد من علماء العصر وكتابه ، لدراسة مشروع المجمع ، وهم المشايخ : الشنقيطى ، ومحمد عبده ، وحمزة فتح الله ، وحسن الطويل ، والسادة : حفنى ناصف ، ومحمد بيرم ، ومحمد المويلحى ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمد كمال .

ووضعوا لائحة للمجمع ، وانتخبوا السيد البكرى لرياسته ، ومحمد بيرم لأعمال السكرتارية . وعقدوا سبع جلسات ناقشوا فيها عدداً من المصطلحات العلمية . وكان تاريخ آخر الجلسات يوم ١٨٩٣/٢/١٧ .

وفى العام نفسه ، ظهرت (مجلة المهندس) فقدمت تجربة عملية لكتابة البحوث العلمية باللغة الصفحى ، تحدياً (لمجلة الأزهر) ودحضاً لدعوى من قالوا بعجز العربية عن أداء العلوم الحديثة . وقد تولى « المهندس أحمد كامل »

تحرير القسم الهندسى والرياضى ، و « الدكتور مهدى » تحرير القسم الطبى ، و « حسن بك حسنى » تحرير القسم الفلسفى.

* * *

وشهدت مرحلة اليقظة ، حركة تطور فى أساليب العربية ونهوض باللغة استوعبها « الأستاذ محمد خلف الله » فى كتاب (معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها — ج ١ القاهرة ١٩٦١).

ثم شهد النصف الأول من هذا القرن ، عدداً من علمائنا ، عكفوا فى إخلاص باذل على وضع معاجم للعلوم ، من أشهرها معجم الدكتور محمد شرف ، بالإنجليزية والعربية ، فى العلوم الطبية والكيمياء والطبيعية والمواليد والنبات. ومعجم الحيوان والمعجم الفلكى للدكتور أمين المعلوف ، بالإنجليزية والعربية أيضاً. ومعجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى ، بالعربية والفرنسية ، ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابى ، بالعربية والفرنسية. ونشرت مجلات المرحلة — كمجلة المجمع العلمى بدمشق ، ومجلة لغة العرب ببغداد ، ومجلة المقتطف بمصر — بحوثاً علمية واتسعت لكثير من المصطلحات العربية أو المعربة. واشتغل عدد من أعلام العصر بتحقيقات لغوية للألفاظ العلمية ، منهم الأستاذ: أحمد تيمور وأحمد زكى فى بحوثهما فى ألفاظ الحضارة وأسماء البلدان ، والسيد عبد الحميد البكرى فى تحقيقه لألفاظ الفلك. ونشر الدكتور مأمون الحموى بحثاً فى المصطلحات الدبلوماسية (دمشق ١٩٤٩) والدكتور عدنان الخطيب فى لغة القانون (دمشق ١٩٥٢) والدكتور بشر فارس فى مصطلحات فن التصوير (مصر ١٩٤٥).

وشارك العلماء المستشرقون فى هذه الحركة ، منهم الأستاذ جريفل فى (الحيوانات البحرية والنهرية فى سورية ولبنان) والدكتور ماير هوف فى تحقيق أسماء نباتات طبية ، وشرح أسماء العقار لابن ميمون الأندلسى.

والدكتور رينو والأستاذ كولين ، فى شرحهما لمخطوط عربى مجهول المؤلف ، عنوانه (تحفة الأحباب فى ماهية النبات والأعشاب) .

وتألفت لجان فى مصر ، وسورية والعراق ، لوضع مصورات جغرافية بأسماء عربية صحيحة ، وتعريب المصطلحات العسكرية . وتألفت المجامع الرسمية لتدعيم هذه الحركة ورعايتها : فتأسس المجمع العلمى بدمشق عام ١٩١٩ ، والمجمع اللغوى بالقاهرة عام ١٩٣٢ ، ثم المجمع العلمى ببغداد عام ١٩٤٧ [1] .

• • •

ولكن هذه الجهود المبذولة على طول نصف قرن ، لم تستطع أن تعيد اللغة العربية إلى مجالها الحيوى فى الدراسة العلمية ، بل لم تستطع كذلك أن تحسم الجدل القديم حول صلاحيتها لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها . وقد خلا ميدان المعركة من الأجانب بعد أن خرج منه ويلكوكس وويلمور ، ودخله الأستاذ سلامة موسى ، فردد القول بمسئولية اللغة العربية عن تخلفنا العلمى إلى جانب مسئولياتها عن تخلفنا الحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، وعن الجريمة والجنون .

وكان الأستاذ واعياً لكل ما يشكو المصلحون الوطنيون من رواسب عصور التخلف والانحطاط ، فى المجتمع وفى اللغة ، حريصاً على تتبع ما يقترحون من علاج لمشكلات حياتنا اللغوية . وقد أخذ من هذا كله ، مايؤيد به حملته على هذه اللغة المسئولة عن كل أمراضنا !

واشتدت حملته على " الأحافير اللغوية " وسخريته بالزهو المضحك لمن يعتقد أن لغتنا تستطيع أن تجتر نفسها . وهذا الاعتقاد من أكبر الأسباب للفاقة الثقافية التى نعانيها فى وقتنا : « لأن هذه اللغة لا ترضى مثقفاً فى العصر الحاضر ، إذ هى لا تخدم الأمة ولا ترقيها ، لأنها تعجز عن نقل مائة

---

(١) لمزيد تفصيل عن جهود العلماء والمجامع فى هذا المجال ، اقرأ كتاب الأستاذ مصطفى الشهابى (المصطلحات العلمية فى اللغة العربية) ط المعهد ١٩٥٥ .

من العلوم التى تصوغ المستقبل »[١].

واضطرب بين الدعوة إلى العامية ، وبين دعوته إلى لغة علمية ، ليست لغة القرآن وتقاليد العرب البالية ، مع الإلحاح فى النصح لنا باستعمال الحروف اللاتينية .

وقد مضى القول فى العامية ، ونعرض هنا للغة العلمية ، من حيث اتصالها بموضوع هذه المحاضرة ، فنراه يتصور أننا سوف نتطور من العقلية الزراعية البدوية ، إذا اشتغلنا بتأليف الكتب فى أقطاب الصناعة فى عصرنا ، بدلا من التأليف فى أعلام تاريخنا .

ويلقى هذا السؤال :

« نحن نحاول أن نرقى بأمتنا ، ولكن ما معنى الرقى ؟ »

ثم يجيب : « هذا الرقى يعنى أننا نعيش المعيشة العلمية حيث تستند الحقائق إلى البينات لا إلى العقائد . . فيجب لهذا السبب أن تكون لغتنا علمية وثقافتنا كوكبية وكتابتنا لاتينية » .

أما اللغة العلمية ، فتعنى عنده « أن كتب المطالعة فى المدرسة والبيت يجب أن تتناول موضوعات البيولوجية والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة ، بدلا من مقطوعات أدبية من كتب العرب قبل ألف أو خمسمائة سنة » — ٩٦

كما تعنى أن نكف عن الأساليب الأدبية ، لنكتب بلغة الأرقام واللغة العصرية.

وهذه نماذج من مشتقاته من هذه اللغة العلمية :

من الطب : اللغة هى الجهاز العصبى للمجتمع .

— خوف الغارات قد نفذ إلى جميع مسام المجتمع .

— يمشى فى تثاقل روماتزمى .

---

(١) البلاغة العصرية — ص ٢٣ ط العصرية بالفجالة .

– الوقف كالخثرة فى الدورة الاقتصادية المصرية .

– يعانى تخمة ذهنية .

من الكيمياء : كان مذهب التطور من أعظم الخمائر الاجتماعية .

ومن الطبيعة : الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى .

– من الحركات المغنطيسية التى تجذب الشبان . . .

– الطاقة الموطرية فى الكلمات .

ومن الميكانيكا : يرى المصباح الأحمر أينما سار .

– الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور .

ومن الموسيقى : الحياة تفقد إيقاعها فى المرض .

ومن السيكولوجية : تجرثمت الفكرة عندى .

ولست أدرى ما قيمة هذه العبارات الركيكة التى ساقها فى باب " اللغة العصرية – ص ٧٥ " ونحن السلفيين سدنة لغة القرآن ، تجرى أقلامنا بأساليب بيانية من مثل قولنا : نبض المجتمع ، وحس العربية ، وغشية الدوار ، وأخذة المفاجأة ، واتزان الرأى ، وسراب الوهم ، والمناخ الفكرى للعصر ، وفلك القصور وقطب الجماعة ، ومحور الموضوع ، وإعصار التتار ، وتيارات الغزو ، وكثافة الحس ، وشلل الحركة ، وعقم الوجدان . . .

دون أن تشفع لنا هذه « اللغة العلمية » لدى من ينكرون علينا سلفيتنا اللغوية ، بل ما نزال فى رأيهم نعيش بعقلية بدوية زراعية ، ولم تفلح هذه الأساليب فى نقلنا إلى مناخ العصر !

وليسوا بحيث يدرون أن لغة القرآن التى زعموا أنها تنأى بنا عن روح عصرنا ، حافلة بروائع من آيات البيان الأعلى ، تستخدم ما يسمونه اللغة العلمية ، على نحو يتضاءل دونه كل ما حشدوا ويحشدون من عباراتهم العصرية الهابطة . كمثل آيات :

« رأيتَ الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت » ـ محمد : ٢٠

« أولئك الذين لعنهم الله فأصَمَّهم وأعمى أبصارهم » ـ محمد : ٢٣ .

« أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح فى يوم عاصف » إبراهيم : ١٨ .

« أو كظلمات فى بحر لجىٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضُها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . النور : ٤٠

« يكاد سَنا برقه يذهب بالأبصار » النور : ٤٣

« والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقيعة يحسَبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » النور : ٣٩

« ... يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ». يوسف : ٤٣

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صُمٌّ بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذرَ الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . . » البقرة : ١٨

* * *

فأين من هذه الآيات المحكمات : تجرثُم الفكرة وقاطرة التاريخ والحثرة فى الدورة الاقتصادية ، والطاقة الموطرية فى الكلمات ؟ ما أرى الأستاذ سلامة موسى ، قدم حلا لأزمة العربية واللغة العلمية ، وهو لم يلبث أن ترك هذه العبارات العصرية ليدعو إلى « الخط اللاتينى » الذى انتهت إليه آماله

فى رقى الأمة وتطورها وإصلاح المجتمع ، وحامت حوله أحلامه فى عالم سعيد أو « يوتوبيا الضائعة » .

وقد انتظر بدعوته حتى ظهر الأستاذ عبد العزيز فهمى باقتراحه فى العدول عن الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية قصداً إلى التيسير فى ضبط الكتابة وتحديد حركات الحروف بما يغنى عن ضبطها بالشكل . فتلقف الكاتب المصلح « الأستاذ سلامة موسى » هذا الاقتراح وقال :

« هذا السخط الذى يتولانا كلما فكرنا فى حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقى الثقافى ، تزيد حدته كلما فكرنا وأدى بنا التفكير إلى اليقين بأن إصلاحها مستطاع . والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار أعم . ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة إلى الإصلاح الجرىء إلا فى رجال نابهين لا يبالون الجهلة والحمقى ، مثل قاسم أمين أو أحمد أمين فى الدعوة إلى إلغاء الإعراب ، أو مثل عبد العزيز فهمى حين يدعو إلى الخط اللاتينى ، والواقع أن اقتراح الخط اللاتينى هو وثبة المستقبل لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا (؟ !) التى أغلق عليها هذا الخط أبوابَ ماضيها وفتح لها أبواب مستقبلها .

« وهذا الاقتراح يحتاج أولا إلى إلغاء الإعراب . وميزاته :

أولا : الاقتراب من التوحيد البشرى لأنه وسيلة القراءة والكتابة عند المتمدنين الذين يملكون الصناعة ، أى العلم والقوة والمستقبل . وهذا الخط تأخذ به الأمم التى ترغب فى التجدد كما فعلت تركيا . ومن المرجح أن يعم هذا الخط العالم كله قريباً .

وثانياً : حين نصطنع الخط اللاتينى ، يزول هذا الانفصال النفسى الذى أحدثته هاتان الكلمتان المشئومتان شرق وغرب ، فلا نتحير من أن نعيش العيشة العصرية . ولا بد أن يجر هذا الخط فى أثره كثيراً من ضروب الإصلاح الأخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمى والعقلية بل النفسية العلمية أيضاً ، إلخ .

وثالثاً ورابعاً وخامساً . . .

وسادساً : أننا عندما نكتب بالخط اللاتينى نجد أن تعلم اللغات الأوربية قد سهل أيضاً ، فتنفتح لنا آفاق هى الآن مغلقة .

وبالجملة نستطيع أن نقول إن الخط اللاتينى هو وثبة فى النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر التى تنتفع ببقاء الخط العربى والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟ »(١)

* * *

فهل الأمر حقيقة بمثل هذه البساطة ؟

وهل استطاعت تركيا – القدوة والمثال – أن تبلغ بحروفها اللاتينية من التقدم الصناعى والرقى العلمى ما لم تبلغه اليابان أو الصين الشعبية ، بلغاتها الشرقية الآسيوية العتيقة ؟

أو هل استطاعت غانا ، والإنجليزية لغتها الرسمية والثقافية ، أن تملك من العلم والقوة والمستقبل مالا تملكه مصر أو المغرب مثلا ؟

أو هل خرج السودان الجنوبى ، ولغته الإنجليزية ، من الشعوب المتخلفة إلى الدول المتمدنة ، وتحرر من الكلمتين المشئومتين : شرق وغرب ، فاستطاع أن يعيش المعيشة العصرية وضمن تحقيق المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين الجنسين والتفكير العلمى والنفسية العلمية ، وانفتحت أمامه آفاق موصدة فى وجه السودان الشمالى بحكم لغته العربية التى يجبن عن التخلى عنها ، رجال تعوزهم الجرأة والنباهة كيلا يبالوا الجهلة والحمق ؟

ولكن هذه الدعاوى العريضة التى لا تثبت لنظر أو منطق أو واقع ، وجدت من يؤمنون بها من مثقفينا السائرين غرباً ، « لأن هذه اللغة العربية لا ترضى مثقفاً فى العصر الحاضر إذ هى لا تخدم الأمة ولا ترقيها ، لأنها تعجز عن نقل نحو مائة علم من العلوم التى تصوغ المستقبل وتكيفه » كما أكد

(١) سلامة موسى : البلاغة العصرية واللغة العربية – ص ١٠٩ .

سلامة موسى فى كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) .

بل أخشى أن أقول إنها ساعدت على ترسيخ الفكرة العامة عن عجز لغتنا عن مسايرة التقدم العلمى ونقل علوم العصر . .

ومن هنا كان الخطر . .

فالأمة حين تحس هجوماً على عناصر ذاتها ومقومات أصالتها ووجودها من أجنبى غريب عنها مهما يكن زيه أو قناعه ، تتحفز لاتقاء الخطر فى مواجهة عدو سافر ، فتأخذ كلامه بمنتهى الحرص والحذر ، وقد يصل موقفها منه إلى حد الرفض والتحدى .

أما حين تنتقل السهام إلى أيدى نفر من أبنائها ، فإن الخطر يأتى من حيث لاتتوقع . ودون أن تتأهب لاتقائه بشىء من التوجس والحذر والارتياب .

وما يكتبه الأجانب عن عقم العربية ، قلما يصل إلى مجال التأثير العام ، بحكم عزلة الجماهير ونفورها من الأجنبى ، وإنما يصل إليهم عن طريق المثقفين الذين ينتمون فكريًّا إلى الغرب . وهم عادة ينفذون إلى المجال الثقافى بدعوات إصلاحية تقدمية . ثم لا يلبثون أن يكتشفوا فى تشخيصهم لأمراض المجتمع . أن لغتنا العربية هى علة العلل وأصل الداء . والقيد الباهظ الذى يشل خطانا نحو التقدم ، والسدّ الأصم الذى يحجز بيننا وبين آفاق العصر !

ويمضى وقت غير قصير قبل أن يتصدى الوعى القومى لمواجهة الخطر ، لكن بعد أى يُحدث الضجيج أثره فى المناخ الفكرى للأمة ، بحيث تحتاج إلى جهد شاق يستغرق أمداً لكى تسترد اتزان خطاها وصفاء أفقها .

وفى قضية " العربية والعلوم الحديثة " كانت دعوى عجز هذه اللغة وعقمها من « سبيتا وويلكوكس وويلمور » وغيرهم من الأجانب الغرباء ، بحيث تذهب مع الريح ، لولم تجذب إليها عدداً من كتابنا ذوى الثقافة العصرية ، ممن كتبوا فى التقدمية والتطور والاشتراكية .

وعن طريقهم ، أخذت مجراها فى حياتنا القومية . وكان ربط تخلفنا

العلمي والثقافي والاجتماعي والحضاري ببداوة العرب وجمودها ، هو الذي مكّن للدعوى من مناطق التأثير ، فصدق بها من صدّق عن جهل أو غفلة وتحير المثقفون العرب الأصلاء من أمر لغتهم التي عرفوا تاريخها العلمي .

وكان رأي الكثرة من علمائنا ، أن العلوم الحديثة تقدمت أشواطاً بعيدة المدى عن العهد بها أيام آبائنا الأقربين ، فضلا عن جيل اليقظة في القرن الماضي الذي عرّب علوم زمنه .

وعلى امتداد نصف قرن أو أكثر ، شهدت حياتنا اللغوية ما أشرنا إليه من جهود فردية سخية لوضع المصطلحات العلمية في اللغة العربية، إلى جانب ما قامت به الهيئات العلمية من جهود في هذا الميدان .

وتمضي عشرات السنين . .

وما تزال لجان المصطلحات العلمية ، حتى يومنا هذا ، تتابع عقد جلساتها ومؤتمراتها ، وتثبت في تقاريرها أو مجلاتها ، ما يستقر عليه الرأي من مصطلحات علمية . وما يزال مركز تنسيق التعريب في الرباط ، يوالي إرسال رسائله إلى علماء الوطن العربي يستفتيهم في مشكلات تعريب العلوم .

وما يزال عدد من علمائنا وعلماء الاستشراق ، يتابعون نشر كتب علمية من ذخائر تراثنا ، قد يكفي أن أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

« مختارات من رسائل جابر بن حيان ، ت ١٩٨ هـ » .

تحقيق د. بول كراوس — ط الخانجي بالقاهرة ١٩٣٥

« المختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي . ت ٢٣٦ هـ »

د. علي مشرفة ، ود . محمد مرسي أحمد — القاهرة ١٩٣٧

« صورة الأرض للخوارزمي »[1] ظهرت منه طبعة كاملة بعناية متزك ،

---

(١) الكتاب ذكره أبو الفدا باسم «رسم الربع المعمور» ودرسه المؤرخ البولندي ليلويل Lelewuel وخرج بدعوى أعلنها، هي أن الكتاب ترجمة لرسالة وضعها باليونانية مؤلف إغريقي عاش في بلاد الإسلام وأفاد من المصادر الإسلامية . لكن دعواه انهارت من أساسها بعثور «سبيتا» على =

وبحوث عنه بقلم نللينو (١٨٩٥) ومتزك وهونجمان (١٩٢٩) ويقول كراتشكوفسكى : « يجب الاعتراف ، تبعاً لنللينو ، وبارنولد ، بأنه لا يوجد شعب أوربى واحد ، يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن أن يقارن بهذا الكتاب الذى ألفه الخوارزمى ، أكبر رياضيي عصره ، وواحد من أكبر رياضيي جميع العصور على الإطلاق ، إذا أخذنا فى حسابنا اختلاف الظروف » .

« الذخيرة فى علم الطب ، لثابت بن قرة . ت ٢٨٨ هـ »
تحقيق الدكتور جورجى صبحى ـ ط الجامعة المصرية ١٩٢٨ .

« الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية ـ ت ٤٢٢ هـ »
الأستاذ مصطفى نظيف ـ الجامعة المصرية ١٩٤٢ .

« المناظر ، للحسن بن الهيثم » كرنكو ، ط حيدر أباد ١٩٢٨ .

« استخراج الأوتار فى الدائرة بخواص الخط المنحنى فيها ، للبيرونى ـ ت ٤٤٠هـ » أحمد سعيد الدمرداش . الدار المصرية للنشر بالقاهرة .

« الآثار الباقية ، لأبى الريحان البيرونى » معهد الاستشراق ، طشقند .

« كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر ، للبيرونى » كرنكو ، حيدر أباد سنة ١٩٣٧ .

« القانون المسعودى ، فى الهيئة والنجوم ، للبيرونى » د. بول كراوس .

« القانون فى الطب ، للرئيس ابن سينا ت ٤٢٨ هـ » ١٣ جزءاً ط بولاق ١٨٧٧ ، طشقند ١٩٥٦ .

« الشفاء ، فى المنطق والطبيعيات والإلهيات ، لابن سينا »
المجمع اللغوى بالقاهرة ١٩٥١ ، ١٩٦٥ .

= أصل المخطوط العربى بالقاهرة سنة ١٨٧٨ ؛ وقد لفت إليه العلماء بمقالتين نشرهما فى عامى ١٨٧٩ ، ١٨٨٢ ، ثم انتقل المخطوط بعد وفاته سنة ١٨٨٣ إلى ستراسبورج . انظر كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ص ٩٨ من الطبعة الأولى للترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم .

« شكل القطاع » لنصير الدين الطوسى — ت ٦٧٣ هـ » الآستانة ، سنة ١٣٠٩ هـ .

« المعتمد فى الأدوية » لابن البيطار ، ت ٦٤٦ هـ »
الأستاذ مصطفى السقا . ط الحلبى ١٩٥١ .

« الفوائد فى أصول علم البحار » لأحمد بن ماجد » — ط باريس ١٩٢٤ .
« ثلاثة راهمانجات فى علم البحار » لأحمد بن ماجد »
شوموفسكى ، موسكو ١٩٥٧ .

بحوث ڤيدمان فى كتاب « نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك » لقطب الدين مسعود الشيرازى — ت ٦٣٤ هـ — تلميذ العالم الفلكى نصير الدين الطوسى . وفى الكتاب مباحث فى الكوزمولوجيا والمترلوجيا والميكانيكا والبصريات .

— وانظر ما نشر المستشرقون من تراث العرب الفلكى والجغرافى والملاحى ، فى فهارس كراتشكوفسكى لكتابه : « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، وفى كتاب نَللينو : « الفلك عند العرب » .

إلى جانب ما نشر علماؤنا من بحوث فى المجلات العلمية ، بمصطلحات عربية أو معربة فى العلوم ، تجدون بياناً لها فى محاضرات الأمير مصطفى الشهابى « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية » . من منشورات المعهد .

* * *

ولا أثر من هذا الجهد السخى المبذول يصل إلى حياتنا العلمية ؛ ودعونا من حياتنا العامة التى التقطت من بعض مصطلحات المجمعيين ، ما اتخذت منه موضوعَ فكاهةٍ ومادة تندر . .

والمفروض أن جهود العلماء فى نشر التراث العلمى لعصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، واستكمال الحركة العلمية فى التأليف والترجمة لمطلع العصر الحديث فى النصف الأول من القرن الماضى . . كانت موجهة إلى تمكين اللغة العربية من استرجاع مكانها فى تدريس العلوم والتأليف فيها ، ونقل

كل جديد مستحدث إلى المكتبة العلمية العربية .

لكن الذى حدث ، هو أن الكليات العلمية فى جامعاتنا ظلت بمعزل عن كل تلك الجهود ، وتابعت تدريس الطب والهندسة والطبيعيات والرياضيات . . . باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، وكأن الجامعات فى وادٍ وجهود العلماء والهيئات فى تعريب العلوم الحديثة ومصطلحاتها فى وادٍ آخر .

باستثناء كلية الطب فى الجامعة السورية ، التى تأسست فى دمشق سنة ١٩١٩ — فى عهد الملك فيصل الأول — باسم « المعهد الطبى العربى » لتحل محل كلية الطب التركية ، وصممت من عام تأسيسها على تدريس العلوم الطبية بالعربية . وكان مجلس أساتذتها أشبه بمجمع لغوى ، تدارسوا فيه المصطلحات التى جاءت فى تراثنا من كتب الطب ، وفى الكتب المصرية التى ألفها علماؤنا من عصر محمد على ، والكتب التى ألفها أساتذة الطب فى جامعة بيروت قبل أن تهجر العربية إلى اللغة الإنجليزية .

واستطاع أساتذة دمشق أن يؤلفوا كتباً قيمة فى فروع الطب المختلفة ، وفى الكيمياء والفيزياء والمواليد :

فألف « الدكتور مرشد خاطر » سفراً فى علم الجراحة من ستة مجلدات وأوجزها فى مجلدين .

وألف الدكتور « أحمد حمدى الخياط » كتاباً فى علم الجراثيم والاستاذ « محمد جميل » فى علم الطبيعة ، والدكتور « حسنى سبح » فى الأمراض الباطنية (٧ مجلدات) والدكتور « محمد صلاح الدين الكواكبى » فى الكيمياء ...[١]

ولكن هذه التجربة الناجحة بالعربية لم تتكرر : .

بل لم تستطع ، بعد أكثر من أربعين عاماً ، أن تقنع جامعات وطننا العربى الحديثة بتعريب كلياتها العلمية .

---

(١) لكلية طب دمشق جهود أخرى فى الميدان : أشار إليها الأمير مصطفى الشهابى : المصطلحات ت ، ص ٥٨ .

وكانت المفارقة العجيبة أن جامعة الأزهر ، أعرق جامعة إسلامية فى الشرق الإسلامى ، وجامعة الرياض ، عاصمة الجزيرة العربية ، اعتمدتا اللغة الإنجليزية للتدريس فيما استحدثتا من كليات علمية !

وبدا كأن قضية العربية وعلوم العصر ، قد وصلت إلى باب مسدود . .

* * *

ثم كان الفصل الأخير من هذه القصة المعقدة ، رسالة من موسكو تحمل مجموعة من الكتب العلمية الحديثة مطبوعة بالعربية الفصحى فى « دار مير » للطباعة سنة ١٩٦٨ !

ولم نسمع أن لجاناً عقدت هناك لبحث مشكلات هذا التعريب ، أو أن جدلا أثير حول صلاحية اللغة العربية لأداء علوم العصر !

وإنما خرج كل كتاب يحمل اسم العالم الذى ألفه :

ف تسيجيلسكى : اللحام الكهربائى .

ما ليشيف ، ونيكولا ييف ، وشوفالوف : أسس الميكانيكا العملية .

أفروتين : أسس تشغيل المعادن .

جلاجوفا : الدوال ومنحنياتها .

وتابعت « دار مير ، فى موسكو » نشر الكتب العلمية للعربية ، فى أحدث علوم العصر . أذكر منها :

بيولوجيا الفضاء ؛ طاقة الذرة ؛ نظرية الاحتمالات ؛ علم التحكم الأتوماتيكى ؛ نظرية النسبية ؛ أسس الميكانيكا التطبيقية ؛ مقاومة المواد ؛ الرياضيات العالية للمدارس الفنية . . . . .

* * *

ما أقسى الدلالة التى تعطيها هذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية فى موسكو ، بعد كل ما تضخم به رصيدنا من تقارير اللجان ومؤتمرات المجامع وجهود العلماء ، على امتداد نصف قرن وأكثر !

وما أبلغ هذا الفصل الختامى لما طال جدلنا فيه وتعقدت أزمتنا به .

لقد بدأت القصة بعزل الاستعمار لغتنا عن العلم ، ثم الدعوة إلى هجر لغتنا واستعارة الإنجليزية أو الفرنسية للعلوم الحديثة ، وكأن هاتين اللغتين ، دون الألمانية والروسية أو اليابانية والصينية مثلا ، هما المفتاح السحرى لكنوز العلم ..

وانتهت بكتب دار مير للطباعة فى موسكو ، فى عصر اقتحام الفضاء والوصول إلى القمر ؛ فأين نحن من البداية ومن النهاية ؟

* * *

وحين أقول : انتهت القصة ؛ فإنى أعنى أنها انتهت ، أو يجب أن تنتهى من حيث هى قضية لغوية ظلت معروضة أكثر من نصف قرن ، تواجه الأمة العربية بدعوى عجز لغتها القومية عن أداء العلوم الحديثة وقصورها عن نقل علوم العصر ، وتلقى عليها تبعة تخلفنا العلمى وفاقتنا الثقافية . . .

ويبقى أن يلتمس الباحثون أسباباً أخرى لاستمرار عزل اللغة العربية عن معاهدنا العلمية العالية ، بعد أن خرجت دعوى عقم لغتنا وعجزها من مجال الخصومة والجدل ، وظهر بوضوح أننا فى تسويغ عذر جامعاتنا بهذا العقم فى العربية ، والتماسنا شتى الوسائل لعلاجه ، كنا كمن يحرث فى البحر . . .

* * *

وإذا كانت العربية قد صمدت لكل تلك الحملات الضارية التى جاءتها من الأجانب الغرباء ومن أبنائها المتغربين ، تحاربها باللهجات العامية حيناً وبالخط اللاتينى حيناً آخر ، وتتهمها بالبداوة والعقم فتعزلها عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر ،

أقول : إذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلأنها دون ريب تملك من القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، ما قاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المتنبئين لها بالموت . . .

المغربُ العَربي والغـزو اللغـوى

– جريمة العصر

– المعركة اللغوية فى الجزائر

جريمة العصر

حين تمتحن أمة بسرقة لسانها ، تضيع :
تُمسخ شخصيتها القومية وتبتر من ماضيها وتراثها وتاريخها ، ثم تظل محكوماً عليها بأن تبقى أبداً تحت الوصاية الفكرية والوجدانية للمستعمر ، حتى بعد أن يجلو عن أرضها .

وبمضى الزمن ، يغدو هذا الاستعباد القهرى ولاء فكريًّا لمن كان لها بالأمس عدوًّا .

اختلفت طبيعة المعركة اللغوية باختلاف الأقطار العربية ، كما تفاوتت أسلحتها بتفاوت ميادين الصراع .

وقد مضى القول فيما واجهت العربية فى مصر والمشرق ، من حملات ضارية صمدت لها فاستطاعت أن تنجو من التفريط فى لسان قوميتها ، وإن لم تستطع بعدُ أن تتخلص من آثار الغزو الفكرى ، ومن عزل العربية عن الكليات العلمية بجامعات المشرق ، باستثناء الجامعة السورية فى دمشق .

أما فى أقطار المغرب ، فكان جهد الاستعمار أن يسلخها عن قوميتها العربية وشخصيتها الإسلامية . ومن ثم اتجهت الحملة الضارية إلى حرمان بلاد المغرب من لسان قوميتها وعزلها عن ماضيها الذى امتد ثلاثة عشر قرناً لم تعرف فيه غير العربية لساناً وثقافة ، والإسلام ديناً وحضارة .

وكانت جريمة العصر الكبرى ، محاولة الاستعمار أن يسرق لسان أمة أعرق منه فى الوجود ، وأغنى فى الميراث الحضارى .

والأمة قد تُمتحن باحتلال أرضها فتناضل من أجل الحرية حتى تستردها على المدى القصير أو الطويل .

وتُمتحن باغتصاب خيرات أرضها وأرزاق بنيها ، فتحتمل الجوع والحرمان ، وتقتات من أملها المرجو فى الخلاص .

بل قد تُحارَب فى عقيدتها ، فيتصدى الضمير الشعبى لحمايتها ، بالرفض والتحدى .

لكنها حين تُمتحن بسرقة لسانها تضيع !

تُمسخ شخصيتها القومية وتبتر من ماضيها وتراثها وتاريخها ، ثم تظل محكوماً عليها بأن تبقى أبداً تحت الوصاية الفكرية والوجدانية للمستعمر ، حتى بعد أن يجلو عن أرضها .

يشدها إليه نوع من الاستعباد الفكرى ، إذ لا تجد غير لسانه وسيلة للنطق والتعبير ، ولا تلتمس فى غير مكتبته ، زادها الفكرى والأدبى والثقافى .

ويمضى الزمن يغدو هذا الاستعباد القهرى ، ولاء فكرياً وروحياً لمن كان لها بالأمس عدواً !

لطول ما نهل أبناؤها المثقفون من نبع أدبه وفكره ، وانحصروا فى فلكه لا يرون الدنيا إلا بعينه ، ولا يحسون طعم الحياة إلا بمذاقه ، ولا يخفق وجدانهم إلا بنبضه !

وهم بحكم ثقافتهم العالية ، يشغلون مراكز التوجيه والقيادة للرأى العام ، وعن طريقهم يتسلط الغزو الفكرى على الشعب الذى رفض وجود المستعمر !

وكثيراً ما يتصدون لمحاربة الذين صانوا لسانهم القومى واعتزوا بثقافتهم الأصيلة ، فيتصدع الكيان الوطنى من أثر الصدام المرير بين دعاة الأصالة يتهمون المتفرنجين بالمروق والعقوق والكفر ، وبين دعاة الثقافة الأجنبية يتهمون خصومهم بالرجعية والجمود ، ويرون فيهم هياكل من حفريات عصور غابرة !

* * *

والغزو اللغوى قد تسلط على تونس والجزائر والمغرب ، لكن المعركة لم تصل إلى ذروتها الضارية مثلما وصلت إليها فى الجزائر ، بحكم ظروف تاريخية وأوضاع إقليمية حمت المغرب من تلك المحنة ، لعمق إحساسه بدوره التاريخى فى هجرة الإسلام إليه ديناً وحضارة بعد نكبته فى الأندلس ، وإحساسه الواعى كذلك بموقعه (الاستراتيجى) الحساس ، فى الجبهة المغربية للأمة الإسلامية ؛ فضلا عن قصر الأمد الزمنى لمحنته بالاستعمار ، بالقياس إلى القطر الجزائرى الذى طال عليه الليل قرناً ونصف قرن !

وعلى الزمن الطويل ، بدا أن الجزائر فقدت لسانها وأضاعت شخصيتها وخسرت معركتها فى المجال اللغوى .

لكن معركة التحرير الباسلة ، كانت وحدها كافية لأن تكشف لذوى

البصيرة منا ، عن وجه الحقيقة التى غابت عنا زمناً كنا نقرأ فيه لكُتَّاب الجزائر ما تنشره لهم مطابع فرنسا وتروج له ، لا يعنيها منه أن يلعنوها بقدر ما يعنيها أنهم أضاعوا لسان قوميتهم !

إن إضاعة اللسان تعنى إضاعة الذات ، والشعب الذى خاض معركته الباهرة لتحرير بلده وقدم أكثر من مليون شهيد فدية لشرف الإنسان ، لا يمكن أن يكون قد أضاع ذاته ، ومن ثم لا يمكن أن يكون قد ضيع لسان قوميته ، وإن بدا الأمر فى ظاهره على عكس ذلك .

فلننظر فى قصة الغزو اللغوى فى الجزائر ، من حيث هى مثَل لما امتُحِنَت به العربية فى أقطار المغرب ، وبقيت على الرغم منه حَيَّةً لا تموت .

المعركة اللغوية على أرض البطولات

في شهر أغسطس من عام ١٩٦٣ ، انعقد مؤتمر المعلمين العرب في عاصمة الجزائر ، وكان التعريب « قضية » تأخذ مكانها في برنامج المؤتمر ، ويطول حوارنا حولها ثم نعلن ما نرى لها من مقترحات وتوصيات .

بعد خمس سنوات ، انتقل التعريب من « قضية » معروضة للبحث والنظر ، إلى « معركة » متنامية الأبعاد ، انطلاقاً من معركة التحرير الكبرى ، وامتداداً ثوريًّا لها .

وقضية التعريب فى الجزائر ، من القضايا الكبرى التى فاتنا كثير من أسرارها وعُقَدِها ، وقصُرت رؤيتنا عن لمح أبعادها .

وعذرنا فى ذلك ، أن حجاباً كثيفاً من الصمت قد عزلنا عن الجزائر قرناً كاملا إثر قضاء الاستعمار على المقاومة الباسلة للشعب بقيادة الأمير « عبد القادر الجزائرى » . ثم لما توهج الضرام الثورى فى معركة التحرير ، شُغلنا بها كما شغل العالم المعاصر كله . وبعد النصر شغلتنا أجهزة الإعلام بالصراع السياسى هناك عن الصراع الفكرى . وغلب على الفهم العام أن مأساة الغزو اللغوى بلغت هناك من العمق والنفاذ والشمول ، بحيث لا أمل لهذا الجيل ، وربما لأجيال بعده من شعب الجزائر ، فى النجاة من محنة ضياع لسانه القومى الذى سرقه الاستعمار .

واكتفت الجمهرة من مثقفينا بأن تقرأ لأدباء الجزائر الذين كتبوا ويكتبون باللغة الفرنسية ، من أمثال : محمد ديب وكاتب يس ومالك حداد ومولود فرعون ومولود معمرى وآسيا جبار . . .

عن تصور خاطئ منا ، لموقف الشعب الجزائرى من اللغة الغازية ، وعن قصور وتقصير فى تتبع الجولة الثَوْرية لمعركة التعريب على أرض البطولات ...

فما قصة الغزو اللغوى للجزائر ؟

وما أبعاد المعركة التى تواجهها الجزائر المستقلة فيما تواجه من مخلفات ليلها الطويل ؟

* * *

والقصة بدأت بالغزو الاستعمارى سنة ١٨٣٠ ، ونحتاج مع ذلك إلى أن نُطِل من بعيد على مسرح الأحداث قبل ليل الاستعمار ، لنفهم أبعاد الصراع اللغوى الذى احتدم هناك .

حتى القرن الحادى عشر الهجرى ، الثامن عشر الميلادى ، كانت

الجزائر تأخذ مكانها المرموق من أقطار المغرب ، فى خدمة علوم العربية والإسلام ، وتقدم إلى الميدان أعلاماً من رجالها حملوا الأمانة وكانت إليهم رحلةُ طلاب العلم .

ويبدو أن عوامل الضعف التى انتابت الأمة الإسلامية فى العصر التركى ، حملت علماءَ الجبهة المغربية على أن يتشبثوا بمشعل النور الذى لم يكن قد بقى للأمة سواه ، فعمرت مجالس العلم بأئمة منهم كانوا نجوم الداجية ودليل الركب السارى بليل . .

ونظرة سريعة إلى كتب التراجم لعلماء الجزائر حتى القرن الحادى عشر الهجرى ، تكفى لأن تعطى مع القرآن الكريم ، التفسير التاريخى لحركة الاستعمار حين تجرد لحرب الإسلام فلم يجد سلاحاً أمضى من القضاء على اللغة العربية . .

من حيث قدر أن أرض الجزائر لن تحتمل وطأته عليها ، طالما بقى لها لسانها العربى ، يصلها بكتاب دينها ويعطيها تراث علمائها الأئمة الذين عمرت بهم ربوعها قبل أن يجتاحها الغزو .

أذكر من هذه الكتب التى ترجمت لعلماء الجزائر والمغرب حتى القرن الحادى عشر الهجرى :

« نفح الطيب » و« روض الآس » و« أزهار الرياض » للمقرى التلمسانى .

« ترتيب المدارك » للقاضى عياض السبتى .

« الديباج » لابن فرحون .

« نيل الابتهاج بتطريز الديباج » للمؤرخ الفقيه ، أبى العباس أحمد بابا السودانى التمبكتى .

« المعيار المعرب عن فتاوى علمـــاء أفريقية والأندلس والمغرب » لأحمد بن يحيى الونشريسى .

« عنوان الدراية فى علماء بجاية » لأبى العباس أحمد الغبرينى القسنطينى .
« البستان فى ذكرى الأولياء والعلماء بتلمسان » لابن مريم الشريف التلمسانى .
« تعريف الخلف برجال السلف » لأبى القاسم محمد الحفناوى الجزائرى .
« فهرس الفهارس » لعبد الحى الكتانى .
« نشر أزاهر البستان فيمن أجازنى بالجزائر وتطوان » لابن زاكور الفاسى .
. . . .

* * *

واللافت حقًّا ، أن جمهرة هؤلاء العلماء كانوا من أولياء الله الصالحين الذين جعلوا من خدمة علوم العربية والإسلام وسيلة إلى الله وقربى ، وتتابعوا على حمل اللواء خلفاً عن سلف .

فأحمد بن زكرى ، الفقيه الأصولى المنطقى ، كان إمام عصره علماً وديناً وتقى .

وشيخه «ابن زاغو» كان وليًّا صالحاً وإماماً قدوة وناسكاً عابداً وعالماً محققاً .

« وسيدى زروق » الإمام العالم الفقيه المحدث ، كان من مشايخ الصوفية العاملين الذين جمعوا بين الحقيقة والشريعة .

وشيخه « سيدى عبد الرحمن الثعالبى » الولى الزاهد الذى تعتز عاصمة الجزائر بمزاره المبارك ، اختصر (تفسير ابن عطية) فى جزأين وشرح ابن الحاجب .

وتلميذه التقى الزاهد « أحمد بن عبد الله الجزائرى الزواوى » ألف منظومته المشهورة فى العقائد « المنظومة الجزائرية » فى نيف وأربعمائة بيت .

« وعبد الرحمن الأخضرى » صاحب « متن السلم » المشهور فى المنطق و « الجوهر المكنون » فى البلاغة و « الدرة البيضاء » فى العبادات ، كان وليًّا مباركاً ، وضريحه معروف مزار .

« والشريف الحسنى التلمسانى ، أبو عبد الله محمد الإدريسى » إمام عصره بإجماع ، والذى تخرج عليه جيل من صدور العلماء وأعيان الفضلاء ، يذكرون فى تاريخه أنه كان يطيل الانقطاع للعلم والعبادة ، وقد بقى مرةً ستة

أشهر عاكفاً على الدرس لم ير أولاده ، وربما وُضع له فطوره فى الصيام فيُشغل عنه بالنظر فى مسائل العلم ، حتى يؤتى بسحوره .

* * *

ويلفت النظر كذلك ، اجتماعُ الطائفة من علماء الجزائر الأولياء ، فى الجيل الواحد :

ففى ترجمة العلامة المحقق والقاضى المؤرخ « المقرى التلمسانى الفاسى » وهو من أعيان القرن الحادى عشر الهجرى ، نقرأ أنه كان من شيوخه فى تلمسان :

« علـماها الشامخان وعالماها الراسخان ابنا الإمام : أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ؛ ومفتى تلمسان أبو موسى عمران المشدالى ؛ ومشكاة الأنوار أبو إسحق إبراهيم بن حكيم الكتانى ؛ والقاضى المفتى أبو عثمان سعيد ابن أحمد التلمسانى ؛ وعالم الصلحاء وصالح العلماء أبو محمد المصمودى ؛ ونادرة الأعصار أبو عبد الله النجار ؛ والمقرئ الراوية أبو عبد الله المكناسى ؛ وإمام الحديث والعربية أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى ؛ والفقيه أبو عبد الله الجزولى ، والشيخان أبو زيد عبد الرحمن الصنهاجى ، وأبو عبد الله محمد العبدرى التلمسانى ؛ وقاضى بجاية أبو عبد الله محمد الزواوى ؛ وإمام المعقولات أبو على حسن بن حسن ؛ والقاضى المحدث أحمد بن حسين القسنطينى .. ».

كل هؤلاء وعشرات أمثالهم ، كانوا هناك ملء القلوب والأسماع والأبصار مهابة وجلالا ، فلما أوغل الليل بقيت أرواحهم تحوم حول الربوع التى عمرت بهم زماناً ، وبقيت ذكراهم تحرس الضمير الشعبى وتذكى نضاله عن وجوده الإسلامى العربى ، بقدر ما كانت تؤرق المستعمر فتغربه بالإمعان فى الكيد للعربية حرباً للإسلام .

* * *

وقد اجتاح الاستعمار الجزائر وليس فيها من يتكلم الفرنسية ، فكان عليه أن يتصل بالرأى العام الجزائرى عن طريق ألسنةٍ وأقلام عربية مستعارة أو

مأجورة . لكنه بدأ من اللحظة الأولى فى فرنَسة أجهزة الحكومة ودوائر العمل ، ثم فرنسة التعليم فرنسة كاملة لم تدع للغة العربية فى المنهج المدرسى غير ساعتين فى الأسبوع ، تُدرس فيهما اللهجةُ العامية ، لغةً ثانوية إضافية .

وإلى أن يتم الغزو ، كان المستعمر يتصل بالشعب بلغته الدارجة ، يحارب بها الفصحى لغة القرآن الكريم والثقافة العربية والفكر الإسلامى . ومن سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٩٢٧ ، كانت (جريدة المبشر) الرسمية تصدر بالفرنسية ، وبعربية ركيكة مسفة ، موجهة إلى الشعب . وأنقل هنا من افتتاحية عددها الأول — سبتمبر : ١٨٤٧ — ما نصه :

« اعلمو يا مسلمين أرشدكم الله أن المعظم سلطان أفرنصه نصره الله ، اتفق له برأيه وقوع هذا " المبشر " مختص لفائدتكم وخيركم وتوافر النعمة عليكم . والشاهد لكم فى ذلك ، كل ما يدل على نعمتكم هو بفؤاده . ويرضى لكم ميَرضا — ما يرضى — لنفسه ولا سيما أنكم بمسكن قلبه كعزيز الرعية . واعلموا أن سلاطين النصارى مهما أرادوا يعرفون الرعية بالأمور الواقعية ، يبعثون لهم رسائل خبرية — جرائد — . . . وسعادة سلطان افرنصة له معرفة ومحبة بالغة مع سلاطين الإسلام وهم صاحب اصطنبول وصاحب العجم وصاحب الهند وصاحب مصر وصاحب الغرب — المغرب — وصاحب تونس ، وثبوت المحبة بينه وبين هؤلاء الدول العظام ، معرفتهم بإحسانه وعظيم سطوته وقوته مدة مديدة . . .

« وأيضاً آخر فوائد هذا المبشر الذى أنعمنا عليكم بإنشائه ، هو لما تعلمو بمقصودنا وجميع ما يجب عليكم من التصرفات ، وتطلعون على هذا الأخبار ، ينفى عنكم بسبب ذلك كلام الوشات أهل الشيطنة دمرهم الله — يعنى بالوشاة وأهل الشيطنة : دعاة المقاومة ، وعلى رأسهم الأمير عبد القادر وبو بغلة — الذين يسعون لكم فى الهلاك وجر البلاد إليكم منا ، لتخليطهم وخبلهم . ونبين لكم طريق الشرع بالعدل التى نسير نحن بها . كما نعلمكم بالفوائد التى تحصل لكم بها الألفة معنا ، فهذا غرضنا ومقصدنا » .

وجريدة (المبشر) بدأت تظهر عام ١٨٤٧ وهو العام الذى شهد مأساة القضاء على مقاومة الجيش الجزائرى للاحتلال ، بقيادة الأمير عبد القادر. وقد ظلت تصدر إلى عام ١٩٢٤ ، باللغتين الفرنسية والعربية ، وفى هذا شاهد على أن الغزو اللغوى عجز بعد نحو قرن كامل . عن الاتصال بالشعب بغير لغته العربية التى لم يتخل عنها !

* * *

وإذا كان مفهوماً أن تصدر هذه الجريدة الاستعمارية الرسمية باللغتين الفرنسية والعربية ، فمما وعاه تاريخ الغزو ، أن الصحف غير الرسمية للجالية الفرنسية ، لم تستطع بعد عشرات السنين من بدء الاحتلال ، أن تستغنى عن الاتصال بالشعب الجزائرى بلسانه العربى !

منها مثلا (جريدة الأخبار) التى أذن « المارشال كونت دى فالى » لطلائع المهاجرين الذين تدفقوا على الجزائر لاستيطانها فى إصدار هذه الجريدة عام ١٨٣٩ ، قبل ثمانى سنين من انتهاء المقاومة المسلحة الأولى للشعب الجزائرى .

وظلت (الأخبار) تصدر باللغة الفرنسية سبعين عاماً ، ثم بدأت من عام ١٩٠٩ تصدر باللغتين العربية والفرنسية !

وكان فى استطاعتها أن تستغنى بقرائها من المستوطنين الفرنسيين ــ الذين زاد عددهم من أربعين ألفاً سنة ١٨٤١ ، إلى مائة وثلاثين ألفاً عام ١٨٥٠ ، ثم اطردت الزيادة عاماً بعد عام ــ ريثما تتم فرنسة اللسان الجزائرى ، وكان فى حسابها أن يحسمها الغزو اللغوى فى وقت قصير ، لولا أنها أدركت بعد طول التجربة ، عقم الانتظار الطويل لفرنسة الجزائريين ، وقد مضى على الاحتلال أكثر من سبعين عاماً ، لم يستطع خلالها أن يفرض لغته الدخيلة وثقافته الغازية ، على الشعب الجزائرى العربى المسلم .

* * *

ما الذى حمى وعى هذا الشعب ، وقد كان ثمانون فى المائة منه أميين ، فلم يُضِع ذاته فى دوامة الأعصار الجائح؟

حماه « القرآن الكريم » كتاب الأميين الذين حيل بينهم وبين التعليم أو رفضوا أن يردوا منهله المدنس برجس الاستعمار ، وبقيت لهم مدرستهم القرآنية ترهف وعيهم وتنير بصائرهم وتنسخ أميتهم بكلمات الله تزكيهم وتعلمهم الكتاب والحكمة ، وتلزمهم ديناً وعقيدة أن يرفضوا العبودية لغير خالقهم ، وأن يقاوموا البغى والطغيان .

فإذا كانت الأجيال التى تخرجت بعد ذلك فى المدرسة الفرنسية قد نسيت أن آباءها الأقربين لم يكونوا يعرفون غير لغتهم العربية لساناً وثقافتهم الإسلامية زاداً ومورداً ، فإن الضمير الشعبى لا يمكن أن ينسى . .

والتاريخ معه ، يذكر ماضى الجزائر القريب حين أعيا المستعمر أن يتصل بشعبها إلا بلسانه ، ويذكر ماضيها غير البعيد قبل ليل الاستعمار .

* * *

وإلى مستهل هذا القرن العشرين ، كانت العربية ما تزال تناضل عن وجودها فى الجزائر المحتلة ، مزودة برصيد الأئمة العلماء من سلفها الصالح . ومن عجب أن الاستعمار وجد نفسه مضطرًّا تحت ضغط الضمير الشعبى إلى أن يحتال على الموقف الصعب فيتزلف إلى الأمة بإظهار التسامح والغيرة على عقيدتها وتراثها . وكما كان « قصر الدوبارة » فى مصر الإسلامية يحتفل بليلة القدر ويدعو شيوخ الأزهر إلى الحفل الدينى المشهود فى مركز ممثل سلطة الاحتلال ، لم يجد الحاكم الفرنسى للجزائر المحتلة بأساً فى أن يرتدى قناع التسامح ، فيبنى « المدرسة الثعالبية » بجوار مقام سيدى عبد الرحمن الثعالبى فى حى القصبة بالعاصمة الجزائرية، وينتدب اثنين من الشيوخ لنشر كتاب أو كتابين من تراجم علماء السلف الصالح !

أما الثعالبية ، فبنيت عام (١٣٢٢ هـ : ١٩٠٤ م) فى عهد الوالى الفرنسى

« مسيو جونار » وتستقبل الداخلَ إليها عن يمين المدخل ، لوحةٌ رخامية كبيرة محفور عليها ستة أبيات هابطة سقيمة ، نظمها الشيخ « أبو القاسم الحفناوى » تمجيداً لعالى الجناب نجم العصر سمو الوالى جونار ، وقال فيها مؤرخاً :

فى كل جيل من الأجيال أخيارُ ... وخيرهم من له فى العلم أخبار
بالعلم شاد بنو اليونان دُورَهمُ ... وكان للعُرْبِ فيه بعدُ آثارُ
وهذه آية العرفان مشرقة ... بالثعلبية ، نِعم الاسمُ والجارُ
شِيدت وتاريخها لجنسنا فتحت ... وذو الولاية نجمُ العصر جونار
(١٣٢٢ هـ) ... (١٩٠٤ م)

وأما الكتابان ، فأحدهما :

(تعريف الخلف برجال السلف) صنفه الشيخ الحفناوى ، ناظم الأبيات ، وطبعه سنة ١٩٠٧ مصدراً بتحيةِ إكبار من المصنف « إلى نجم العصر الوالى الفرنسى » جاء فيها ما نصه :

« ولما آلت ولاية القطر الجزائرى للحازم الخطير سمو الوالى العام جونار ، المجتهد فى جلب المهمات ودفع الملمات ليلَ نهار ، صوَّب نظره السامى نحو مسلمى الجزائر بمزيد الإمعان ، وأحْيَى لجيلهم خير ما كان لأسلافه من مدنية الإسلام . .

« وشكراً لحكومتنا الجزائرية على المساعدة الجليلة لطبع ما يسر أبناءَ وطننا وديننا من معارف الاعتبار وآثر الاختبار » .

والكتاب الآخر ، هو (البستان ، فى ذكر الأولياء والعلماءِ بتلمسان) لابن مريم الشريف التلمسانى .

تولى إعداده للنشر « الشيخ محمد بن أبى شنب المدرس بالمدرسة الثعالبية الدولية » وطبع سنة ١٩٠٨ برعاية مسيو جونار ، عن نسختين خطيتين ، نسخة المكتبة الدولية الجزائرية ، ونسخة المستشرق الفرنسى « وليام مارسيه » مدير مدرسة الجزائر الثعالبية الدولية ؟ !

وعلى مرأى من راعى الإسلام « جونار » ، استولى الاستعمار على كنوز التراث الجزائرى ، وعهد إلى « مسيو مارسيه » وكتيبة من زملائه ومساعديه المستشرقين فى فحصها ودراستها وفهرستها ، وأدخلها فى ملكية المكتبة الفرنسية. وقد نشر المجلد الأول من فهارس المخطوطات الجزائرية بعناية مسيو فانيان ، حلقة ثامنة عشرة فى سلسلة الفهرس العام لمخطوطات مكتبات فرنسا :

Catalogue Général des Bibliothèques de France. Tome XVIII, Alger

وكل ذخائره ، فى علوم العربية والإسلام.

وقد نُقل من هذه الذخائر ما نقل إلى فرنسا ، وبقيت جملة منه بين أيدى المستشرقين الفرنسيين فى مكتبة الجزائر التى دمرها الحريق قبيل الاستقلال . ولم تنج سوى بقايا مبعثرة كان العلماء قد حملوها إلى خزائنهم فى القرى النائية والمعاقل الجبلية ، أذكر منهم الشيخ عبد الحميد بن باديس فى قسنطينة ، وشيخنا البشير الإبراهيمى فى الشريعة على قمة الأطلس ، والشيخ إبراهيم بيوض ، والفقيه ابن دودش قاضى معسكر ، والفقيه الحاج المختار بزاوية الهامل ، والفقيه الوانوغى مفتى بلدة الأصنام . . .

وكانت هذه الذخائر زاداً لجماعة علماء الإسلام فى كفاحها للتعبئة الثورية ، حيث مضت تحشد طاقات الشعب لخوض المعركة ، وتنتشر جريدة (الشهاب) مناراً وجريدة (البصائر) نوراً ، وتفتح المدارس العربية فى ظروف بالغة القسوة والحرج ، وتوفد طلابها لا ستكمال دراستهم العربية العالية فى جامعات القرويين بفاس والرباط بالمغرب ، والزيتونة بتونس ، والجامع الأزهر وجامعات القاهرة ودمشق وبغداد .

حتى زين للاستعمار أن يضم أملاك الأوقاف الإسلامية إلى خزانته ، وقد كان ريع هذه الأوقاف المورد المالى للمجاهدين الأبرار من علماء الجزائر .

وكان فى حسابه أن مثل هذا الإجراء يوقف التعبئة الثورية ، بإغلاق المدارس الأهلية وتعطيل (الشهاب والبصائر) ، لكن الشعاع الهادى من نور

المدرسة القرآنية كان قد أضاء للشعب طريقه وحدا مسراه ، فانطلق يخوض معركة الجهاد المسلح عام ١٩٥٤ ، وهو يهزج بحداء شيخه بن باديس :

شعب الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتسبْ
من قال : حاد عن أصله أو قال: مات، فقد كذبْ
أو رام إدماجـاً له رام المحـالَ من الطلبْ !

وكان لا بد للشعب أن ينتصر . .

وحين تهيأ مندوبو فرنسا وزعيمها ديجول ، لتوقيع وثيقة استقلاله ، تسلل نفر من أعداء الحرية فأضرموا النار فى مكتبة الجزائر بالعاصمة فالتهمت ما التهمت من كنوز تراثها ، وأتلف ماءُ الإطفاء ما بقى منها ، فتركها جنون التعصب والحقد ، مساء اليوم السابع من يونيو عام ١٩٦٢ ، أنقاضاً ورماداً وهشيماً . .

مطمئنًا إلى أن الجزائر ستظل تدور فى فلك المستعمر ، بعد أن ضاع لسان جيل من مثقفيها ، وضاع تراثها !

وفاته أن معركة التحرير ذاتها ، قد أثبتت أن الوعى الشعبى قد عَصِىَ على التخدير والقهر والغزو ، وخاض المعركة تحت لواء عقيدته وقوميته ، وبقيت الجزائر عربية إسلامية .

بعد كل ما كان من محاولات المسخ والسلخ .

وعلى رغم كل ما كان من تلك الصبغة الأجنبية الطارئة التى أُقحِمت عليها فى ليل الاحتلال الطويل . .

* * *

ولقد واجهت الجزائر المستقلة أزمتها اللغوية ، من بين ما واجهت من مخلفات الاستعمار وأعباء الحرية والاستقلال .

فى شهر يوليو من عام ١٩٦٣ كان احتفال الجزائر بعيد استقلالها الأول ، وقد شرفتنى بالدعوة إليه. فكانت أغنية النصر التى سمعتها فى مهرجان العيد فظلت ملء قلبى ومسمعى حتى اليوم :

يا محمـــدْ مبروكْ عليـــكْ   الجزاير رجعت ليـــك

وفى الشهر التالى مباشرة ، كانت قضية التعريب معروضة على مؤتمر المعلمين العرب فى دورته الثالثة بالجزائر ، أغسطس ١٩٦٣ ، وقد اشتركتُ فيها مع وفد مصر إلى المؤتمر .

بعد خمس سنوات رجعت إلى الجزائر للمرة الثالثة . فإذا التعريب لم يعد قضية تدرس ، وإنما صار معركة يسمونها فى أرض البطولات : معركة تحرير اللسان أو معركة الأصالة .

وبمنطق بسيط يقولون : إن الثورة المسلحة حررت التراب الجزائرى ، وبقى أن تخوض الجزائر معركتها لتحرير لسانها . وتحرير اللسان يعنى تحرير الفكر والوجدان والضمير . وبغير هذه الحرية يكون الاستقلال وهماً والنصر عقيما !

وحين كان التعريب قضية مطروحة علينا فى مؤتمر عام ١٩٦٣ . بدت لنا نحن الأعضاء الوافدين من أقطار الوطن العربى هينة يسيرة : يكفى لها أن تُجمع الأمة على تحرير لسانها فيكون لها ما أرادت ، ومثل الشعب الجزائرى لا يشق عليه أن يفرض إرادته الحرة على أبنائه ، وقد فرضها على المستعمر فى عنفوان جبروته وشراسة طغيانه ، حين كان له حكم السيادة وسلطة الأمر والنهى .

لكنها ليست كذلك ، فى رؤية من ينظر إليها عن قرب .

وإنها لأعمق غوراً وأعقد مسلكاً ، فى حسابِ مَن يواجهونها فى دوامة الصراع .

الخصوم فيها ، هم ضحايا فى الوقت نفسه !

ضحايا عهد طويل ، امتد قرناً وبعض قرن ، سيطر فيه المستعمر على التعليم المدرسى نظاماً وخطة ومنهجاً ولغة ومادة ومناخاً . ثم جعل شهادته المدرسية هى المؤهل الرسمى للوظيفة ، والصك المعترف به لأى عمل فى الدوائر والأجهزة التى تخضع للحكومة ، وفى المؤسسات التى يملكها المستوطنون . أو بتعبير أدق : جعلها بطاقة التموين لضرورات العيش ووسائل الرزق !

فإن يكن الضمير الشعبى قد رفض هذا المسخ وآثر لأبناء الجزائر أن يكابدوا الظمأ العقلى ولا يشربوا من نبع مدنس ، وأن يؤثروا الجوع على خبز مسموم ،

فإن الظروف القاسية والأوضاع المسيطرة حكمت على فريق منهم أن يسيروا فى طريق التعليم الرسمى تأميناً لحق العمل وضماناً لمورد الرزق .

ولعِدّة أجيال ، تخرجت أفواج من هذه المدارس ، لا يملكون التعامل أو التفاهم بغير لغة المستعمر ، ولا يجدون سبيلا إلى زاد فكرى ووجدانى إلا فى مكتبته .

واستطاع الضمير الشعبى مع ذلك أن يشد أكثرهم إلى قضية وطنهم فشاركوا فى النضال قدر ما استطاعوا ، وكان منهم من شغلوا مراكز قيادية فى الموقع السياسى والدبلوماسى ، ومن جاهدوا فى عرض قضية وطنهم باللغة الفرنسية ، على الضمير الغربى المعاصر .

* * *

وجلا المستعمر ، وفى حساب أبناء المدرسة الفرنسية من الجزائريين . أن يشغلوا المراكز القيادية فى الدولة وأن يديروا أجهزتها بحكم ثقافتهم العصرية ومؤهلاتهم الدراسية العليا .

ثم إذا بهم يسمعون فجأة . دعوة إلى التعريب تتجاوب بها آفاق الجزائر . وكان من الطبيعى أن يتصدوا لمقاومتها .

لا عن خيانة للوطن فى تقديرهم . ولا عن جهل منهم لشرعية حق الأمة فى تحرير لسانها .

ولكن دفاعاً عن كيانهم ووجودهم ، وإدراكاً منهم لأبعاد دعوة تجعل حامل " دكتوراه الدولة من جامعة السوربون " مثلا . أمياً لا يقرأ ولا يكتب !

وشجعهم على مقاومة التعريب ، ظنهم أن الدولة الجزائرية الحديثة لا يمكن أن تستغنى عنهم ، وهم من صفوة مثقفيها ، وذوو الخبرة بالعمل الإدارى والفنى والأساليب الدبلوماسية .

وتصوروا أن دعوة التعريب لن تلبث أن تذهب مع الريح صرخة فى واد ! . .

وفاتهم حسُّ الوعى الثورى لأمة تريد تحرير لسانها واسترجاع مقومات شخصيتها الوطنية ، بكل ملامح عراقتها وعناصر أصالتها .

وفاتهم كذلك ، أن فداحة التضحيات التى اقتضاها الكفاح المسلح ، لم تستنفد طاقة الشعب ، وإنما أعطته رصيداً ثورياً يخوض به معركة الأصالة فى تصميم وإصرار .

كيلا يتحول النصر إلى هزيمة !

* * *

وكان أن صارت « دعوة التعريب » إعلان ثورة وشعار مرحلة ، وهتاف جهاد ونداء معركة .

وتحدد عام ١٩٧٠ لوضع نهاية هذه الجولة منها ، بمقتضى قرار جمهورى أصدره الرئيس « هوارى بومدين » فى أبريل من سنة ١٩٦٨ ، يقضى بإبعاد أى موظف أو عامل فى مؤسسات الدولة ، لا يعرف اللغة العربية .

معلناً عن إصرار الجزائر على استكمال تعريب لسانها فى موعد أقصاه عام ١٩٧٠ .

ومعطياً مهلة عامين آخرين لمن فاتهم دخول المدارس الشعبية لمحو الأمية العربية ، أو استكبروا أن يدخلوها . ومحققاً إرادة الشعب فى أن تخرج حركة التعريب من مجال الجدل الخطابى والحوار الكلامى إلى مجال التنفيذ .

وأتصور مع ذلك أن قرار عام ١٩٦٨ إيذان باقتراب الأزمة من ذروتها الدرامية العنيفة ، وإن أخذت إجراءات التعريب طريقها إلى التنفيذ :

الدواوين توشك أن تستكمل تعريبها بعد أن ظلت تدار بذوى الثقافة الفرنسية .

والأسماء الفرنسية للميادين والطرق والزنقات ، قد رُفعت واستبدلت بها أسماء جزائرية عربية صميمة .

ولافتات المتاجر تُرجم أكثرها إلى العربية ، واكتُفِى فى بعضها بتغيير الحروف اللاتينية إلى حروف عربية .

والصحف اليومية تخصص صفحات كاملة لنشر دروس العربية .

والمدارس العربية لمحو الأمية تنتشر هناك وتكاد تضيق على سعتها بمن يحرصون على مكافحة أميتهم العربية قبل عام ١٩٧٠ .

ومعاهد المعلمين تضع فى حسابها تخريج أكبر عدد من المدرسين لمواجهة أعباء التحول الثورى .

* * *

لكن هذه الإجراءات وأمثالها ، هى أيسر ما فى المعركة ، حيث تفرض طبيعة الوضع مواجهةَ عُقَدٍ من التناقض الخطير بين أبناء الوطن الواحد، أثراً لرواسب الاستعمار والغزو من ناحية ، ومعاناةً للموقف الصعب بين ضرورات الحياة الحديثة لشعب عريق تخلف دهراً ، وبين ميراث عراقته الذى يرد إلى الجزائر شخصيتها الوطنية محررة من شوائب الغزو .

وحيث يتسع ميدان الصراع للخلط بين الرجعية والمحافظة ، بين العصرية وعقدة الخواجة ، بين الطموح وفتنة الغربية !

وحيث تنحصر الرؤية غالباً فى زوايا حادة ، لا تبصر من الموقف سوى جانب واحد ، ولا ترى من الصورة غير وجه فحسب :

فالذين يَعُون أن الانتماء إلى الإسلام كان العنصر الأساسى فى كفاح الشعب الجزائرى ، قد يغيب عن أكثرهم أن ثورة سنة ١٩٥٤ لم تكن حركة دينية بالمفهوم الشائع ، وإنما كانت نضالا عن عقيدة أرهفت وعى الشعب لحقوق إنسانيته ، وحمّلته تكاليف وجوده الحر ، بكل ما يعنى من رفض الرق والاستبداد والتخلف .

والذين قرءوا تاريخ الحركات الثورية المعاصرة ، وقد انطلقت من دعوات

مذهبية منتصرة ، قد يخطئهم التمييز بينها وبين الثورة الجزائرية التى قام بها شعب لم يتصل بهذه المذاهب فى ليل الاستعمار ، فضلا عن كون الجمهرة الشعبية من الثوار اعتصمت بمعاقلها فى الجبال والريف والبوادى ، بمعزل عن صراع المذاهب المعاصرة التى قد يتصل بها أبناء العاصمة والمدن الكبرى؛ وينفر منها أبناء البادية والجبال ، لأنها فى تقديرهم بضاعة أجنبية ، يصدرها الغرب الذى استعبد الشعوب وسرق الأوطان والألسنة والعقائد !

والذين تصوروا أن الاستقلال نهاية الكفاح ، وقعوا فى خطأ تاريخى وفكرى حين فصلوا بين حرب التحرير وبين استرجاع الشخصية الوطنية الجزائرية ، متأثرين فى هذا الفصل بالمفهوم الغربى للثورة الجزائرية وهو مفهوم يعزلها عن أساسها الإسلامى فتقتصر رؤيته على جانبها النضالى ضد الاستعمار ، غافلا أو متغافلا عن كونها ثورة وطنية لشعب يعى ذاته ويذود عن مقومات وجوده وأصالته .

« وغير مجهول أن الثورة الجزائرية احتاجت فى الجولة الفاصلة من نضالها المسلح ، إلى خبرة فنية لم تكن متاحة للثوار من أبناء القبائل والجبال . وإنما أتيحت لعدد ممن تدربوا على أيدى المستعمر . فكانوا أداة استخدمتها الثورة فى معركة التحرير . وما كان أداة فى النضال المسلح ، يمكن أن يصير بعد النصر إلى سلاح ضد النضال الذى تفرضه طبيعة المرحلة الجديدة ، وعقبة فى طريق المد الثورى لتحرير الشخصية الوطنية للجزائر .

وتفادى هذا الخطر ، قد يسلم تلقائيًّا إلى خطر آخر هو النفور من التفتح للفكر الغربى ، والتردد فى قبول أساليب التقدم العلمى مع ضرورتها لعملية البناء وحاجات التنمية الاقتصادية »(١) .

* * *

(١) من افتتاحية « مجلة المجاهد » الجزائرية ، عدد نوفبر ١٩٦٧ .

إلى ذلك البُعد ، تتعقد معركة التعريب وتأخذ وضعها الصعب بين متناقض المذاهب وصراع القيم وملتقى التيارات .

وما كنت أدرى أنها بلغت ذاك المدى من التعقد ، حتى كانت رحلتى إلى الجزائر فى مطلع صيف سنة ١٩٦٨ ، هى التى كشفت لى عن مسالكها الصعبة وخيوطها المتشابكة :

ولم يكن إدراكى لهذا كله عن حدسٍ افتراضى أو اجتهاد شخصى ، بل فرضه علىّ ، وعىُ الجزائر لأبعاد معركتها ، وإصرارها على أن تحسمها بالنصر الذى يعطى استقلالها قيمته ، ويفسح الطريق أمام طموحها دون أن يمسخ أصالتها أو يهدر تضحياتها .

والضمير الشعبى الذى تحدى جبروت الاستعمار ، هو الذى يحرس الثورة الوطنية ويوجه عمليات التصفية لحساب قضية النضال القومى لا عليها .

واصلا بين حاضر الجزائر وماضيها القريب والبعيد ، ومنطلقاً بها فى ثورية واعية لسير خطاها على الدرب ، مرتبطة بجذورها الأصيلة فى أعماق أرضها الطيبة .

ولقد كان من جديد ما شاهدت من معالم الجزائر العربية الحرة مكتبة الجامعة فى مبناها الشامخ الأنيق الذى بدئ فيه من عام ١٩٦٤ بعد عامين من الحريق ، وافتتحه « الدكتور أحمد طالب الإبراهيمى وزير التربية الوطنية » فى شهر أبريل من سنة ١٩٦٨ ، نفس الشهر الذى صدر فيه قرار الرئيس بومدين بتحديد عام ١٩٧٠ موعداً أقصى لاستكمال تعريب العاملين فى أجهزة الدولة ومؤسساتها ، ونفض بقايا الصبغة الدخيلة التى ترفضها الأمة .

* * *

هل يبدو القرار صعباً ؟

الواقع أننا نبالغ كثيراً فى تصور نجاح المحاولة الاستعمارية هناك ، حين

نحصر الرؤية فى الأحياء الفرنسية من العاصمة وبعض الثغور .

لقد بقيت الأحياء الشعبية فى العواصم بمعزل عن هذا الغزو ، كما بقيت جبال الجزائر وريفها وبواديها معاقل منيعة تصد التيار ، وتنفر من مجرد الاتصال بالرجل الغربى مهما يكن زيه أو قناعه ، لا عن انغلاق يرفض التفتح كما فهم بعض المثقفين العصريين ، ولكن عن يقين بأن هذا الموقف هو الذى يحمى نضال الشعب ضد ذرائع الغزو .

أقول هذا وفى مسمعى صدى باق من أغنية الانتصار التى سمعت شعب الجزائر يشدو بها فى عيد استقلاله الأول :

يا محمد مبروك عليكْ

الجزاير رجعت ليك !

وأظنها تكفى لبيان مصير المعركة اللغوية على أرض البطولات . . .

تعليم العربية ورأى في أزمتنا اللغوية

ليست عقدة الأزمة ، في اللغة ذاتها ؛ العقدة فيما أتصور ، هي أن أبناءنا لا يتعلمون العربية لسانَ أمة ولغة حياة ؛ وإنما يتعلمونها بمعزل عن سليقتهم اللغوية : قواعدَ صنعة وقوالب صماء : تجهد المعلم تلقيناً والتلميذ حفظاً ، دون أن تكسبه ذوق العربية ومنطقها وبيانها

ما أشق على المفكرين منا، أن يشدوا أعينهم عن المعركة الضارية التى تدور بيننا وبين أعداء البشر ، ليظلوا فى مواقعهم الفكرية نضالا عن معنويات الأمة ، واشتغالا بقضاياها !

وما أصعب آن يُلقى آحدنا باله إلى موضوع قومى ، قد يبدو للنظرة العجلى بعيداً عن الصراع المحتدم على أرض الرسالات ، فى المنطقة الموبوءة بالعصابة الصهيونية التى تَشغل كل أجهزة الإعلام فى الدنيا وتفرض عليها أن تلتقط أصداء عدوانها المسعور ، وأن تُشغل بأفاعيلها فى مسخ الحمى المقدس العزيز على البشرية المتدينة ، على اختلاف مللها وعقائدها ومذاهبها !

قد يُسيغ موقفنا ، أننا فيما نشتغل به من قضايا وجودنا المعنوى ، إنما نأخذ أماكننا فى الموقع الفكرى من ميدان معركة ضارية معقدة ، لاتنحصر فى الجانب العسكرى وحده بمعزل عن معنويات الأمة .

ويبقى مع هذا التقدير لخطر القضايا الفكرية ، أننا نجد أشق العسر فى أن نفرغ لمعالجتها بما تحتاج إليه من تدبر وأناة ، والمناخ من حولنا مسمم بأنفاس العدو الجاثم على منطقة مقدسة من حمانا المستباح !

* * *

لجنة . . ولجان :

فى مثل هذا الجو النفسى المشحون بالتوتر والقلق والغضب ، أحاول أن أنظر فى أزمة التعليم المدرسى للغتنا القومية ، من حيث فرضتْ هذه الأزمة نفسها على المرحلة الدقيقة الصعبة التى نمر بها ، فصدر قرار من « الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد : وزير التربية والتعليم » بتكليف لجنة من أساتذة العربية ومفتشيها ، لدراسة هذه المشكلة على وجه السرعة ، واقتراح الحلول التى توصى بها اللجنة لإصلاح التعليم المدرسى للغتنا القومية . .

وبقدر ما أعانت ظروفى وشواغلى ، شاركت فى عدد من جلسات هذه اللجنة ، فتأثرت بما بذل السادة الزملاء من جهد مضن لكى يفرغوا من

المهمة التى كُلفوا بها فى الزمن القصير المحدد لها . .

وذكرت لجاناً سابقات ، ألفتها الوزارة على طول نصف قرن ، للنظر فى هذه المشكلة المزمنة ، إلى جانب ماتراكم فى المجمع اللغوى من تقارير لجانه . وما حفظت مكتبة « معهد البحوث والدراسات العربية » من بحوث الأساتذة الذين حاضروا فى مشكلات حياتنا اللغوية .

وهى تزداد على الزمن تعقيداً . وتستعصى على كل الجهود والمحاولات .

وكنت أتصور أن يبدأ عملنا فى اللجنة الجديدة ، بمراجعة أعمال اللجان السابقات ، والنظر فيما اهتدى إليه الباحثون من تشخيص للأزمة ، وما قدموا من توصيات ومقترحات لحلها ، ومعرفة المصير الذى آل إليه كل ذلك . .

لكى ننتفع بدراساتهم ونستنير بآرائهم ، ونبدأ من حيث انتهت خطواتهم .

لكن وضع اللجنة لم يحتمل إلقاء أى سؤال عما مضى ، ومطلوب منها أن تنظر فى الأزمة وتدبر حلا عاجلا لها ، فى أشهر ثلاثة لا تزيد . .

ومنطق السرعة مفهوم ، إذا قدرنا أن السيد الوزير ، حريص على أن تأخذ مقترحات اللجنة طريقها إلى التنفيذ ، قبل أن يحل الموعد الموسمى لطبع الكتب المدرسية لعام دراسى جديد .

فضلا عما يعطى تحديد الوقت لمهمة اللجنة ، من جدية العمل وتأمين مصيره من الضياع الذى تعبر عنه القولة الذائعة : إذا شئت أن تدفن مشروعاً فأحِلْه على لجنة تدرسه !

ولكن يبقى سؤال لا يمكن تجاهله ، وإن لم يعرضه أحد :

ترى هل يستطيع أعضاء اللجنة الجديدة أن يهتدوا فى هذا الوقت المحدود ، إلى مفتاح سحرى يحل عقدة الأزمة اللغوية التى أعيت مَن قبلهم على الزمن الطويل ؟

أخشى أننا لا نملك إلا الوقوف عند الوضع الحالى لا نمسه بتغيير

جوهرى ، وإنما قصارى ما تحاوله هو أن نعيد توزيع أبواب المناهج المدرسية للغة العربية ، فننقل باباً من المرحلة الابتدائية أو الإعدادية إلى المرحلة الأعلى ، وقد نحذف فقرة من هذا الباب أو ذاك تيسيراً على التلاميذ ، وقد نقترح إضافة درس أو درسين على القدر المقرر فى المنهج الحالى . . .

ثم نريح ضمائرنا ، فنعطى « المعلم » الدور الأول فى إصلاح التعليم ، والمعلم لا يتم إعداده فى عام أو عامين ، ويبقى السؤال : ماذا يُعلِّم ؟ وكيف يعلم ؟

وفى وهج المناقشة ، تبدو المشكلة معقدة أشد التعقيد ، تتشابك خيوطها فلا تستطيع أن تفصل بين المعلم والمادة المدروسة ، ولا بين المادة والمنهج المقرر ، ولا بين هذا كله والكتاب المدرسى !

وتواجهنا الأزمة بأبعادها المترامية وعُمقها العصية ، فى الوقت الذى يلوح فيه الوقت المحدد لعمل اللجنة ، أشبه بنذيرٍ لا يكف عن ملاحقتنا ، فيبتر مناقشاتنا ويحصر رؤيتنا فى نطاق محدود !

* * *

ظواهر الأزمة :

والظاهرة الخطيرة لأزمتنا اللغوية ، هى أن التلميذ كلما سار خطوة فى تعلم اللغة العربية ، ازداد جهلا بها ونفوراً منها وصدوداً عنها !

وقد يمضى فى الطريق التعليمى إلى آخر الشوط ، فيتخرج من الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه !

بل قد يتخصص فى دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها ، ويعييه مع ذلك أن يملك هذه اللغة التى هى لسان قوميته ومادة تخصصه !

كل درس يتلقاه أبناؤنا فى لغتهم العربية ، ينأى بهم عنها . ونرى اللغات الأخرى يتعلمها أبناؤها فى مدارسهم العامة ، فيكسبون من كل درس معرفة جديدة بأسرار لغتهم !

وتسمع أساتذة كباراً يحاضرون بالعربية أو يلقون أحاديث فى أندية

ثقافية ، وتقرأ لهم ما يكتبون من بحوث ومقالات ، فندرك ما يعانون من إحساس باهظ بعقدة اللغة التى ترهقهم بالشعور بأنهم لا يملكون أداة التعبير السليم الطلق ، عن أفكارهم وآرائهم .

وتَضْرَى العقدة . حين تصل ببعضهم درجاتهم العلمية إلى مراكز قيادية فى هيئة التدريس الجامعى بأقسام اللغة العربية ، فيعانون تدريسها بذوق أعجمى وينطقونها برطانة ينبو عنها حس العربية ، ومن ثم يضنيهم الشعور بأنهم فى غير أماكنهم ، ولا يزايلهم الخوف من انكشاف ضعفهم أمام الأصلاء من الزملاء والطلاب !

وبغريزة الدفاع عن وجودهم ومناصبهم ، يؤرقهم الحقد على هؤلاء الأصلاء ، فلا يجدون ما يشفيهم إلا أن يحاربوهم بتهمة الرجعية والتخلف وبالسخرية من " فَقْهنتهم ومشيختهم " !

وتعويضاً عن النقص والقصور ، تهاونوا بأصيل علوم العربية ، فطغت عليها بضاعة واردة من أساليب أعجمية معربة ومذاهب أجنبية مستعارة أُقحمت على الدراسات اللغوية فى أقسام التخصص ، على حساب ما لا يجوز أن يستغنى عنه دارسو العربية فى المرحلة الجامعية .

وتتمزق أواصر الزمالة بين أعضاء الأسرة الواحدة ، فيتأثر المناخ العلمى بما يحدثه هذا التمزق من شر ونكر ، وما يتركه من صدى فى نفوس أفواج من الطلاب الذين يخرجون ليشغلوا وظائفهم فى حياتنا اللغوية ، ومنهم معلمو العربية فى مدارسنا . . .

والأمر فى اللغة العربية بمدارسنا ، لا يقتصر على مجرد كونها مادة يتعلمها التلميذ ويؤدى الامتحان فيها بمستوى أو بآخر . .

ولكنها مجلى أصالته ، ولسان قوميته الذى يصله بتاريخ أمته وتراث آبائه وأجداده ، ويتجاوب به فكرياً مع أبناء وطنه العربى على امتداد أقطاره ، واللغة التى ينبغى أن تقدم إليه ما يرضيه من الزاد الثقافى لكيلا يدين بولائه الفكرى والوجدانى للأجانب الغرباء !

* * *

استراح كثير منا فألقوا بالتبعة فيما نعانى من أزمتنا اللغوية، على ظاهرة الازدواج اللغوى : نكتب ونقرأ ونتعلم ونتثقف بلغة ، ونتعامل فى حياتنا بلغة أخرى .

وأفقنا الفكرى مشحون بأصداء الشكوى من هذا الوضع ، وضجيج الجدل المثار حول العامية والفصحى .

ولكن الرؤية النافذة لا تلبث أن تلمح من وراء النقع المثار ، أن الأزمة لا يمكن أن ترجع إلى وجود لغة للتخاطب والتعامل اليومى فى البيت والسوق ، وأخرى للتعليم والثقافة والأدب . .

إذ لو كان هذا الازدواج هو عقدة الأزمة ، لما كان هناك وجه للشكوى من فساد العربية على ألسنة المتعلمين وأقلامهم ، وقد تعلموا من دروس العربية ما يكفى لتقويم ألسنتهم .

وكل اللغات تعرف هذا الوضع الثنائى ، تختلف فيه لغة البيت والسوق عن لغة المدرسة والجامعة ، والفكر والأدب .

لكن التلميذ هناك ، ما يكاد يقطع مراحل تعليمه العام ، حتى يعرف قواعد لغته ويقرأ بها ويكتب ، دون أن يحول استعماله للعامية — فى مجالها — بينه وبين التمكن من لغة الثقافة والفكر ، والاقتدار عليها .

وفقهاء العربية منا ، يتعاملون فى حياتهم اليومية باللغة العامية ، دون أن تجور على أصالتهم فى الفصحى أو تحجب عنهم أسرارها فى النطق والتعبير ، أو تهبط بمستواهم فى الأداء والبيان .

وقد سبق القول فيما عرفت العربية من ظاهرة الثنائية اللغوية من قديم جاهليتها المعروفة لنا : فى اللغة العالية المشتركة للشعر والنثر الفنى ، وفى لغات القبائل يتعاملون بها فى نطاق كل قبيلة .

ولم تشكُ العربية فساداً من هذا الوضع .

وعُرفت الثنائية اللغوية فى نطاق أوسع ، حين خرج العرب من جزيرتهم بعد الفتوح الإسلامية واستقروا فى الأقطار الجديدة ، يتعاملون بالفصحى المشتركة فى الثقافة والعلم والرسميات ، ويتحدثون بلهجاتهم التى هاجروا بها من منازل قبائلهم فى الجزيرة العربية .

ثم كان التحول التاريخى الكبير للحياة اللغوية لشعوب المنطقة التى ما لبثت أن تعربت بعد الإسلام وهجرت لغاتها القديمة إلى اللغة العربية ، وكان من الطبيعى أن تتفاوت لهجاتها المتعربة .

وبقيت الفصحى المشتركة ، اللسانَ القومى الموحد لشعوب المنطقة على اختلاف أصولهم البعيدة وتباعد أقطارهم ما بين المشرق الآسيوى ، وأقصى المغرب الأفريقى : بها يخطب خطباؤهم ، وينظم شعراؤهم ، وتدون رسائلهم ، وتكتب مؤلفاتهم .

كما سبق القول فى ازدهار الفصحى فى عصر النهضة الإسلامية ، فكانت لغة الدين والعلم والأدب والثقافة والحضارة ، لم يَضِرْها أن شعوب الدولة الإسلامية كانت تتكلم بلهجاتها المحلية ، ولا عاق انطلاقتها وسيادتها ، وجودُ هذه الثنائية اللغوية ، تلتقى بها الأمة على لسان قومى موحد ولغة عليا مشتركة ؛ وتختلف اللهجات لا باختلاف الأقطار فحسب ، ولكن باختلاف بيئات القطر الواحد .

فالقول بأن وجود لغتين : فصحى وعامية هو عقدة الأزمة فى حياتنا اللغوية ، مردود بحكم التاريخ ، ومنطق الواقع المحكوم بسنن الاجتماع اللغوى التى تفرض وجود لغة عامة مشتركة للثقافة والأدب ، ولهجات محلية محدودة بنطاق البيئة والإقليم والقطر .

ولسنا بحيث نعيد الكلام هنا فى العوامل والظروف التى نقلت هذه الظاهرة الطبيعية من وضعها المحكوم بقوانين الحياة وسنن الاجتماع ، إلى حيث صارت فى أفقنا الفكرى المعاصر ، أزمة لحياتنا اللغوية .

واضح أنه مهما يكن من سعة الفروق بين الفصحى ولهجاتها العامية ، فالمفروض أن التعليم يصل التلميذ بالفصحى ويمكنه من الاقتدار عليها .

لكنه يقطع المراحل المدرسية واحدة بعد أخرى ، دون أن يستقيم لسانه بلغة التعليم والثقافة .

فهل تكون العقدة فى اللغة الفصحى ذاتها ؟

ذلك ما يبدو لأول وهلة ، فيشغل الحراص على لغتنا القومية، بالنظر فى وجوه الصعوبة والتعقيد فى الفصحى ، والعكوف على التماس وسائل لمعالجتها . ويضج من يضج بالشكوى من جمودها ويرى أن حياتنا اللغوية لن تستقيم ما لم نأخذ حريتنا فى تغيير الموروث من سننها فى البناء اللغوى ونهجها فى التعبير .

وفى هذا أيضاً ما هو موضع نظر :

لقد شكوا مثلا من وجود كلمات فى العربية يختلف رسمها فى الكتابة عن النطق بها ، كألف المقصور حين تكتب ياء فى مثل : يُمنى وذِكرى ؛ وكالهمزة المفتوحة نطقاً ، تكتب على ياء بعد الكسرة وعلى واو بعد الضمة ، فى مثل : مئات وزُؤام . . .

وتعلمنا اللغات الأوربية الحية ، فلم يشق علينا أن يختلف نطق ألفاظ كثيرة فيها عن طريقة رسمها ، ولم نسمع أن أهل هذه اللغات فكروا فى أن يستبعدوا من الكتب المدرسية ما يشذ عن القواعد القياسية للإملاء .

وشكوا من صعوبة النسق اللغوى الذى يضبط معانى الألفاظ فى الجملة، بحركات الإعراب . وما نعرف لغة فى الدنيا تستغنى عن قواعد لنحوها وتصرفها وأدائها ، يتعلمها أبناء اللغة فى مدارسهم ، ونتعلمها نحن الغرباء ، فلا نلعن عُقَد القواعد اللغوية فى الألسنة الأوربية .

بل لماذا لا نقول إنه ما من مادة علمية يدرسها أبناؤنا، لا تفرض عليهم قواعد وضوابط ليست بحال ما ، أسهل ولا أيسر من القواعد الأساسية للغة العربية . والتلميذ فى المدرسة الابتدائية يتعلم قواعد الحساب فلا نفكر فى إعفائه مثلا من القسمة المطولة أو إجراء عمليات الحساب فى الكسور الاعتيادية والعشرية، وما أظنها أيسر من القواعد النحوية البسيطة للفعل والفاعل والمفعول.

وقد تكون عملية حسابية فى الأرباح البسيطة والمركبة ، أعقد من ضوابط المبتدأ والخبر أو الإضافة أو الاستثناء . . .

ونجد مع هذا ، أن تلميذ المدرسة الابتدائية يحل مسائل الحساب المقررة عليه ، وقد يعييه بعد إتمام المرحلة الثانوية أن يقرأ جملة من فعل وفاعل أو من مبتدأ وخبره ، قراءة صحيحة !

* * *

رأى . . .

وأخشى أن نكون ضللنا طريقنا إلى عقدة الأزمة ، متأثرين بالشكوى من وجود فصحى وعامية ، ومن صعوبة اللغة العربية ، فابتعدت بنا الجهود والمحاولات عن هذه العقدة ، من حيث توهمنا أننا وصلنا إليها فشخصنا العلة وعرفنا موضع الداء .

وفى مثل هذا الموقف ، يكون من المجدى أن نحاول تغيير الاتجاه الذى سرنا فيه أشواطاً دون أن تلوح على الأفق بادرة تشير إلى أننا اهتدينا حقا إلى عقدة أزمتنا اللغوية .

وإذ أحاول أن أتجه إلى طريق آخر ، يبدو لى أن عقدة الأزمة ليست فى اللغة ذاتها ، وإنما هى فى كوننا نتعلم العربية قواعدَ صنعة وإجراءات تلقينية وقوالبَ صماء ، نتجرعها تجرعاً عقيماً ، بدلا من أن نتعلمها لسان أمة ولغة حياة .

وقد تحكمت قواعد الصنعة بقوالبها الجامدة ، فأجهدت المعلم تلقيناً والتلميذ حفظاً ، دون أن تجدى عليه شيئاً ذا بال فى ذوق اللغة ولمح أسرارها فى فن القول . وانصرف همنا كله إلى تسوية إجراءات الصنعة اللفظية ، بعيداً عن منطق اللغة وذوقها .

وكان الخطأ الأول ، أن الأصل فى الإعراب أن يضبط المعنى ويدل عليه ، لكن اللغويين فصلوا النحو عن المعانى ووضعوا بينهما الحدود والأسوار . فأنت تتعلم فى النحو مثلا ، حكم الصنعة فى نائب الفاعل ، أما لماذا تصرف العربية النظر عن الفاعل وتأتى بما ينوب عنه ، فذلك ما لا شأن للنحو به ، وإنما مكانه فى علم آخر هو علم المعانى !

وأنت تدرس فى النحو ، الحكم الإعرابى للمبتدأ المؤخر والخبر المقدم ، أما دواعى التقديم والتأخير فمنفصلة تماماً عن النحو الذى لا يتدخل فى اختصاص علم المعانى .

ويحفظ التلميذ قواعد الصنعة فى المعارف والنكرات ، أما سر العربية فى التعريف والتنكير فلا شأن للصنعة به !

وهذا العزل الشاذ بين الإعراب والمعنى ، هو الذى جار على جدوى التعليم فى كسب ذوق العربية ومعرفة منطقها .

وتمضى مدارسنا على شغل دروس العربية بهذه القواعد النحوية والصنعة البلاغية ، منفصلة تماماً عن ذوق العربية وأساليبها ، فيتلقاها التلميذ تلقينا ويحفظ منها ما يفرغه فى ورق الإجابة يوم الامتحان ، ثم ينتهى منها تماماً وينقطع كل ما بينه وبينها ، لم تكسبه معرفة العربية ولم تُجْدِ على أداته اللغوية .
بل أخشى أن أقول إنها تفسد سليقته اللغوية التى كسبها بفطرته : فالتلميذ يدخل المدرسة الابتدائية وهو ينطق على سجيته بصيغ التصغير ويُجرى النسب ، ويميز بين المؤنث والمذكر ، والمفرد والمثنى والجمع . لا يخلط بين كتابين وكتب ، ولا يقول : الأبواب مفتوح ، أو المعلم محترمة ، أو المدن المصريون ! وهو يستعمل أكثر المصادر والجموع بصيغها الصحيحة ، كما يجرى لسانه بأسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان والآلة فى صيغها الفصيحة . . .

ولكن المدرسة حين تلقنه قواعد الصنعة ، يتعثر فى عُقَدِها ويضل فى متاهتها . وقد نسأل طالب الليسانس فى قسم اللغة العربية عن إجراءات الصنعة فى تصغير : بنت أو سوق ، مثلا فلا يدرى بم يجيب . وهو من طفولته يقول : « بُنَيَّة وسُوَيقة » على سليقته التى فسدت بالتعليم !

* * *

هذه فكرة مجملة عن رأى لى فى أزمتنا اللغوية ، أرجو أن يأخذ مجاله من النظر والتأمل والدراسة ، لعله يجدى علينا فيما نتعلق به من صحة وجودنا اللغوى !

حـــوار

فى قضايا لغوية

١ ــ هذه اللغة المشتركة ومعالم تطورها

٢ ــ مستقبل اللغة العربية المشتركة

٣ ــ لغة الأدب الشعبى بين العامية والفصحى

(١)

هذه اللغة المشتركة ومعالم تطورها الحديث

مع كتاب للأستاذ محمد خلف الله

لم يكن عجباً ونحن نجتاز هذه الظروف القاسية العصيبة ، أن نلوذ بما عُرف لنا من ماض طويل مشترك، كنا نلتقى فيه فكراً وروحاً ووجداناً، عبر الحواجز والأسوار ، ونتجاوب بكل قلوبنا ومشاعرنا برغم كل الحدود والسدود ..

وذكرتُ فيما ذكرت ، هذه اللغة المشتركة لسان عربيتنا ومناط وحدتنا الفكرية والذوقية ، فتراءت لى من وراء الحقب والأدهار ، أطياف أجداد لنا أنفقوا أعمارهم فى خدمة هذه اللغة ، وبذلوا حياتهم لحمايتها فى مهب الأعاصير ، ومنحوها نور عيونهم لكى يضيئوا لها مسراها فى ليلنا الطويل ..

من هؤلاء الجنود الفدائيين : الشامى والعراقى ، والحجازى والنجدى واليمنى ، والمصرى والمغربى والأندلسى . شهدتهم العصور والأجيال عاكفين على رسالتهم النبيلة ، فى صوفية علمية متجردة صنعت لنا تاريخنا الفكرى المشترك، وحمت تراثنا الذى يعطى وجودنا المعنوى عنصر أصالته وسر بقائه ..

* * *

وفى مكتبتنا الحديثة ، كتاب قيم عن (معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها) ألفه « الأستاذ محمد خلف الله : عميد معهد البحوث والدراسات العربية» ونشرته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، حلقة فى سلسلة دراسات عن حركة التجديد والإحياء فى الحياة العربية فى العصر الحديث .

وقد حدد الأستاذ العميد نطاق بحثه فجعله خاصًّا بعصر وجدها فى القرن التاسع عشر ، وهذا القرن — أو بتحديد أدق : الربع الأخير منه — قد شهد نقطة انطلاق حاسمة فى تاريخنا القومى والفكرى بوجه عام : فيه لاح

شعاع اليقظة يومض فى الظلامة ، ومنه بدأ الركب العربى يتحرك فى أعقاب ليل طال ، وبه تميزت معالم الطريق لهذه النهضة الحديثة التى يظن بعضنا — خطأ — أنها طارئة مفاجئة .

ولقد كنا فى حاجة حقًّا ، إلى عالم محقق مثل الأستاذ خلف الله ، يجلو تلك الفترة التى شهدت بوادر اليقظة ، وينصف أولئك الرواد الذين حملوا الشعلة فى الظلام ، وأذنوا فى أفقنا بدعاء الفجر الجديد والناس نيام ، وخلفوا لنا تراثهم اللغوى والأدبى ، يضىء معالم الطريق أمام الذين تلقوا اللواء من جيل الرواد .

وفى قراءتى للكتاب ، لم يفارقنى الشعور بما احتمل الأستاذ الجليل من مشقة وهو يحاول أن يركز دراسته لتلك الفترة الحافلة فى خلاصة موجزة ، فاستعان عليها بالهوامش التى حمّلها أقصى ما تطيق من حواش وتعليقات وإضافات ، ومن نصوص لم يتسع لها المجال فى العرض العام . ولم يستطع مع هذا أن يقدم كل ما عنده : ميّز الخطوط الكبرى لحركة البعث ، وركز اهتمامه على أعلام من راودها : « رفاعة الطهطاوى » فى الترجمة والاتصال بالثقافة الغربية ، و« محمد عبده » فى الإنشاء والكتابة ، و« البارودى » فى إحياء الشعر ، و « المرصفى ، وحمزة فتح الله ، وحفنى ناصف » فى دراسات اللغة وآدابها .

* * *

وكنت أتوقع ، بعد أن فرغ الأستاذ العميد من بيان بوادر البعث اللغوى والأدبى بمصر ، أن يتابع فى الجزء الثانى من كتابه القيم ، رصدَ مطالع التطور الحديث للغة العربية بوجه عام . لكنه صرح فى الفقرة الأخيرة من هذا الجزء الأول بأنه وصل فى سيره إلى أوائل القرن العشرين حيث تأخذ الاتجاهات التى سجلها فى سابقه تنضج وتثمر ، وحيث تنمو ميادين جديدة فى الأدب واللغة سيحاول أن يتتبعها فى القسم الثانى من الكتاب .

والكتاب بهذا الوضع ، يثير قضية هامة : ذلك لأنه إذا كان قد التزم

فى جزئه الأول حدود المجال المخصص للبحث، فقصر اهتمامه على مصر، إلا أن الموضوع العام للكتاب فى عنوانه، هو : معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها .

وأستاذنا يعلم بلا ريب، أن التطور اللغوى والأدبى، لم تنفرد به مصر وحدها، وإنما شاركتها فيه أقطار أخرى للعربية فى المشرق والمغرب، حملت نصيباً من هذا التطور، قلّ أو كثر .

وما يغيب عنه جهد الرواد ممن شاركوا فى حمل شعلة اليقظة، فى شتى أقطار الوطن العربى، من أمثال الألوسى والصافى النجفى والرصافى والزهاوى فى العراق، والشدياق واليازجى والبستانى وأمين الريحانى وجرجى زيدان فى لبنان، والشيخ طاهر الجزائرى والقاسمى وكرد على فى سوريا، والخالدى والسكاكينى والنشاشيبى فى فلسطين والأردن، وعبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمى والشاعر محمد العيد آل خليفة فى الجزائر، وحسن حسنى عبد الوهاب والشيخ بن عاشور فى تونس، وعلماء مراكش وفاس فى المغرب الأقصى . . .

وأعلم أن عدداً من أبناء هذه الأقطار توافروا على دراسة فجر النهضة الأدبية الحديثة فى بلادهم، كما فعل الدكتور جميل سعيد فى محاضراته عن العراق . والدكتور ناصر الدين الأسد عن الأردن وفلسطين، والأستاذ شفيق جبرى والأستاذ سامى الكيالى عن سوريا، والدكتور سهيل إدريس عن لبنان، والأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب عن تونس، والدكتور صالح خرفى عن الجزائر، والأستاذ عبد الهادى التازى عن القرويين فى فاس، والأستاذ عبد الله كنون عن الأدب المغربى . .

لكن الاكتفاء بدراسة التطور الحديث للغة العربية، فى كل قطر على حدة، يوشك أن يخيل إلى القارئ أن لغتنا كانت تمارس تطورها فى كل قطر، بمعزل عن الأقطار الأخرى . .

مع أن كل قضية لنا لغوية، إنما هى قضية عامة، يشترك فيها أصحاب

العربية على اختلاف أقطارهم ، ولا يمكن أن نستوضح رؤية تطورها الحديث مالم نجمع هذه التيارات الإقليمية فى مصب واحد ، تلتقى عنده شتى الروافد ، من قلب المشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الأفريقى ، لتبدو الصورة لنا آخر الأمر متكاملة .

ولا يعنى هذا بحال ما ، ألا تُدرس حياةُ اللغة العربية فى كل قطر من أقطارها ، فذلك هو ما يحتمه المنهج العلمى . لكنه يعنى ألا تقوم هذه الدراسة المتخصصة فى عزلة عن التيار العام لسير الحياة بلغتنا المشتركة ، إذ أن طبيعة العربية من حيث هى لغة الوطن العربى كله ، تستلزم أن يدخل فى تقدير الدارس ، هذا التفاعل المحتوم بين مناطقها ، وتلك المشاركة التى لا بد منها ، لأصحاب العربية فى مختلف أقطارها .

وإذا كان الأستاذ العميد بدقته المنهجية قد آثر تخصيص هذا الجزء لمصر ، وترك لسواه من أبناء الأقطار الأخرى أن يرصدوا مطالع النهضة اللغوية فى بلادهم ، فقد بقى أن يتناول دارسٌ منا هذا الموضوع من أفقه العام ، ليضىء لنا معالم التطور الحديث لهذه اللغة المشتركة التى تعاقب علماؤنا على خدمتها جيلا بعد جيل .

وما أحسبنى أشق على أستاذنا إذا رجوت أن يكون هذا هو موضوع الجزء الثانى من كتابه ، فى ضوء ما اجتمع لنا من دراسات متخصصة للعربية فى مختلف أقطارها ، قبل أن يغذ السير إلى القرن العشرين ، ويتابع دراسته لمعالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها .

(٢)

مستقبل اللغة العربية المشتركة

مع كتاب الأستاذ الدكتور « إبراهيم أنيس »

قضية الوحدة اللغوية ، هى مدار البحث الجاد الذى عالجه الأستاذ الدكتور فى هذا الكتاب[١] .

وهذه الوحدة اللغوية أمل كبير تعترضه صعوبات جمة . يذكر سيادته منها : « صعوبات من ناحية الاختلافات فى الأداء والنطق ، ومن حيث المصطلحات والدلالات . ومن حيث الأساليب التى تأثرت باللهجات المحلية أو بلغات أجنبية كالإنجليزية فى مصر والعراق ، والفرنسية فى الشام وبلاد المغرب ، وغير ذلك من مشاكل إذا استطعنا التغلب عليها ، ظفرنا فى آخر الشوط بتلك اللغة العربية المشتركة » ص ٤٢

ويرى الأستاذ الدكتور ، أنه « لكى تتحقق تلك الوحدة اللغوية ، يجب على كل الأمم العربية[٢] أن يؤمنوا إيماناً قوياً بفائدة ذلك الاتجاه ونفعه ، بالنسبة لمستقبلهم السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وأن تجتمع كلمتهم على العمل لنجاح ذلك . ولا يمكن أن يتم هذا إلا بأن يسلموا القياد لهيئة موجهة كالجامعة العربية مثلا ، ترسم الخطة وتحدد المعالم ، وعلينا جميعاً الخضوع لتعليماتها وما تقترحه علينا — » ص ٥٦ .

وقد ترك الأستاذ الدكتور للزمن مهمة الفصل بين من يرون — لتوحيد اللغة المشتركة — إعادة الفصحى إلى عزها القديم وإحياء تراثها الأصيل ، وتعبئة القوى لنشرها عن طريق التعليم والإذاعة ومختلف وسائل النشر الأخرى حتى تسترد الفصحى سلطانها وتنتصر على اللهجات المحلية ؛

ومن يذهبون إلى اختيار اللهجة المصرية ، فى أسلوبها المهذب الذى يستعمله المثقفون ، لتكون لغة حديثة مشتركة بين الأمم العربية[٣] .

---

(١) طبع معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٦٠ .

(٢ ، ٣) لعل الأولى أن يقال : شعوب أو أبناء الأمة العربية .

وكنت أرجو لو أنه ترك للزمن كذلك ، مهمة حل هذه المشكلة التى عقَّدتها ظروف طارئة شاذة لا شك فى أن الزمن لن يسمح ببقائها .

وفى رأيى أن عقدة الموقف ليست فى وجود لهجات محلية تقضى بها حاجات الحياة اليومية ، فلكل لغة حية فى عصرنا لهجاتها المحلية التى تختلف باختلاف الأقاليم . والعربية نفسها ، قد كان فيها ، أيام عزها وأصالتها : لهجات محلية للقبائل ، لم تمنع ما يشبه الوحدة اللغوية فى المجال الأدبى ، ولم تحل عند نزول القرآن الكريم ، دون فهمهم لغته العليا ، على اختلاف لهجاتهم .

وليست عقدة الموقف كذلك ، أن بين الشعوب العربية فروقاً صوتية فى الأداء ، كالاختلاف فى نطق الأصوات الساكنة مثل الكاف والقاف والجيم والدال والثاء والطاء ، جهراً وهمساً وتفخيماً وتخفيفاً ، أو بعض أصوات اللين مدًّا وقصراً ، أو اختلافنا فى وضع النَّبْر ضغطاً وإمالة ...(ص ٤٢ : ٤٥)

فقد وُجد مثل هذا الاختلاف بين العرب الفصحاء الأصلاء قبل أن يخرجوا من جزيرتهم ، وبقيت آثاره واضحة فى « القراءات السبع » يؤدَّى فيها اللفظ الواحد بطرق عدة يحتملها رسمه . ولم يؤد هذا الاختلاف إلى نفور العربى من أخيه العربى ، ولا عُدَّ مشكلة خطيرة تحتاج إلى العلاج والحسم ؛ إذ الأمر فيها طبيعى ، وليس فى الإمكان أن نكلف الأشياء ضد طبيعتها فنفرض على ملايين العرب أن يؤدوا اللفظ الواحد بصورة صوتية واحدة ، لا تطوع بها ألسنتهم .

وليست العقدة كذلك فى اختلاف بعض أساليب التعبير بين الأقطار العربية تبعاً لظروف بيئتها وتأثرها بأساليب أجنبية شتى (ص ٤٦) فمثل هذا يحدث فى أبناء الإقليم الواحد : حيث تختلف أساليب التجاريين عن الزراعيين ، ورجال الصناعة عن رجال القانون أو الأدب أو الطب ، وسكان الجبال والبوادى عن سكان السواحل . . ثم لا يكون هذا الاختلاف الطبيعى فى صور التعبير وأساليب الأداء ، ظاهرةَ تمزقٍ فى الوحدة القومية لأبناء الوطن الواحد والقطر الواحد .

وليست العقدة كذلك . فى استحداث دلالات جديدة للألفاظ لم تنص عليها المعاجم القديمة . فالعربية فى عصور أصالتها ونقائها . كانت تتابع استحداث دلالات متجددة للألفاظ ، ويعينها على هذا التجدد مرونة طبيعية يكفى أن يُستشهَد لها بسعة الاستعمال المجازى الذى يَستحدث دلالة جديدة للفظ اعتماداً على أدنى صلة بالدلالة الأولى . ونحن اليوم نقول رحل فلان بالقطار أو الباخرة . مع أن الدلالة الأصلية للرحلة . شدُّ الرحال على المطايا للسفر . ونقول ببساطة : أقلعت الطائرة ، مع أن الإقلاع فى الأصل اللغوى للسفينة ذات القلوع . فهل تكون مشكلة، استحداث دلالة جديدة للمظاهرة مثلا . فى إعلان الرأى أو إظهار العاطفة فى صورة جماعية (ص ٤٧) ولدينا آية « التحريم » فى أنقى وأعلى نص عربى ، قد استعملت التظاهر فيما يشبه هذه الدلالة المستحدثة ؟ :

« إن تَتُوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبكما ، وإن تَظَاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريلُ وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » .

وهل نبعد كثيراً عن الدلالة المعجمية للفشل « بمعنى الكسل والضعف والتراخى ، حين نستعمله بمعنى الخيبة — ص٤٧ » التى هى نتيجة الكسل والضعف؟

وهل نعتسف فى التجوز ، حين نطلق لفظ « الشقى على اللص وقاطع طريق . وهو فى المعجم ضد السعيد — ص ٤٧ » .

ومتى كان اللص سعيداً ؟ ثم . ألسنا نستعمل اليوم الشقى بدلالته المعجمية فى مثل قولنا : ما أشقاه . . ويا للشقاء ؟

* * *

كلا . . ليست عقدة الموقف — فيما أرى — فى شىء من هذا ومثله ، وإنما هى فى إصرار بعض حماة اللغة عندنا على عزل الفصحى عن الحياة ، وولعهم باستعمال ألفاظ عربية أماتتها الحياة ونصت المعاجم القديمة نفسها على أنها مُماتة . وفى إصرارهم على تعطيل المجاز وتجميد الأساليب والدلالات

فى لغة حية ، أخصُّ صفاتها المرونةَ والتجدد والتوسع فى استحداث دلالات مجازية لأدنى ملحظٍ فى الدلالة الأصلية .

وهذا ، عندى ، هو سر المأساة التى تفرض العقم والجمود على لغة حية وتأبى عليها أن تنمو وتساير الزمن .

ولكنى مؤمنة بأن حيوية اللغة ، ستأبى هذا العقم والجمود ، واثقة أن حتمية التطور والتجدد ستتولى حتما ، مهمة تحطيم الأغلال التى يحاول بعضنا – بحسن نية – أن يشلوا بها لغةً كالعربية ، زاخرة الحيوية وافرة المرونة .

وإذ ذاك لن توجد مشكلة ، لأن القضية كلها ستصبح غير ذات موضوع .

ولن نحتاج إلى هيئة ، كالجامعة العربية أو المجمع اللغوى ، نسلم إليها القياد لتوحِّد الحناجر وتقضى على اللهجات المحلية ، وتفرض علينا – نحن ملايين العرب – أن نؤدى اللفظ بصورة واحدة ، وأن نعبر بأسلوب موحد !

فوجود اللهجات المحلية أمر طبيعى مقرر ، ليس لأحد عليه سلطان . وهذه اللهجات لا تمنع من الوحدة اللغوية فى مجال الثقافة والفكر والأدب ، وأنت الآن تسمع الألمانية فى النمسا بلهجة غير التى تسمعها بها فى ألمانيا أو سويسرا ، ويمكنك بسهولة أن تفرق بين لهجة أبناء إنجلترا وبين لهجة الأمريكان ، وأن تميز أسلوب البحارة فى البندقية ونابلى وجنوا ، على الساحل الإيطالى ، عن أسلوب الجبليين على قمم الألب الإيطالية ، كما تستطيع أن تميز هنا بين لهجة سُكان السواحل والثغور المعرضة للمخالطة اللغوية ، وبين لهجة سكان الريف أو البوادى المنعزلة .

وكل اللغات ، فى كل العصور ، عرفت وتعرف وستظل تعرف أبداً ، فروقاً واضحة بين لغة الحياة اليومية ، ولغة الفكر والأدب . والعربية لا تشذ عن هذا ، وقد عرفتْه فى قديمها الأصيل حيث كانت هناك لغة عالية – والتعبير بنصه من رسالة الغفران لأبى العلاء – ولغة معتادة لعامة الناس ،

فكيف نتصور إمكان صنع لغة موحدة الأساليب ودلالات الألفاظ وطرق الأداء الصوتى ؟

وأى سلطان يمكن أن يتحكم فى حناجرنا وألسنتنا ، ويوحد لنا مستوانا فى التفكير وصور التعبير ؟

* * *

إنى لأرجو أن يكون بحث الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس فى (مستقبل اللغة العربية المشتركة) بما تناول من عرض دقيق رصين لهذه القضية ، بدءَ اتجاه سليم فى النظر إليها والتفكير فيها ، ولعلنا به نُعفَى من جدال عقيم حول مشكلة أثارها جمودٌ يأخذ – ظلماً – صورة المحافظة على قديمنا العريق وتراثنا الغالى ، فيلجم العربية بأغلال تعطل نموها وازدهارها ، ويضيع الجهد عبثاً فى مقاومة حيويتها وقهر مرونتها ، وفى محاولة إيقاف سير الحياة بها وتعطيل سنة النمو والتطور . . .

(٣)

لغة الأدب الشعبى

بين العامية والفصحى

لبثت زماناً ، أرى أن الإلحاح فى الحديث عن العامية والفصحى ، قد يسىء إلى العربية من حيث يراد به النفع ، لما فى هذا الإلحاح من ترسيخ للعقدة التى نشكوها من ثنائية اللغة ، وتضخيم لمشكلة تعدد اللهجات المحلية فى الوطن العربى الكبير .

وكنت ولا أزال أومن بأن الزمن سيتكفل بحل هذه المشكلة من حيث ندرى ولا ندرى ، ولو لم يكن لنا من الزمن إلا أن يصل بمعركتنا ضد الأمية إلى غايتها المرجوة ، وإلا أن تتماحى الحدود الزائفة والأسوار المصطنعة بين الأقطار العربية ، لكان لنا من ذلك حلٌّ للمشكلة يغنينا عن محاولة حسمها قبل الأوان ، بحلول معتسفة تأباها طبيعة اللغة والحياة . .

بل لم أكن فى الحقيقة أريد أن أعترف بوجود صراع حقيقى بين العربية الأم ولهجاتها المتعددة ، فما كان تعدد اللهجات سوى ظاهرة طبيعية فى حساب الواقع والحياة . ولعله فى العربية ، أقرب إلى أن يكون شاهداً على اتساع مجالها وقوة مرونتها وحيويتها ، بحيث وَسِعَتها أن تغدو لسان العرب من قلب الشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الأفريقى ، على اختلاف مسالكهم الصوتية و بيئاتهم الإقليمية وميراثهم اللغوى .

لكن تجاهل المشكلة لم يعد مستطاعاً أمام ذلك الصراع العنيف الذى احتدم حول العامية والفصحى فى الأعوام الأخيرة . ولست أقصد بحديثى الآن ، إلى أن أعود فأقف عند هذا الخلاف المثار ، وإنما هى محاولة أريد بها أن أعرض القضية من زاوية خاصة ، تكشف عن تناقض عجيب فى موقف الهيئات

الثقافية الرسمية من العامية والفصحى ، وتؤكد حاجتنا الماسة إلى تخطيط ثقافى تسير به جهودنا فى خطوات متناسقة متكاملة .

ولولا هذا التناقض ، لما تعقدت الأزمة وجاوزت فى تعقدها الحدّ الذى كان يجب أن تقف عنده . فليس منا من يمارى فى أن أدب الفصحى هو مناط الوحدة اللغوية للعرب ، بما يعنى فى الأدب من وحدة مزاج مشترك ووجدان عام . .

وكان يمكن ألا نمارى كذلك فى أن الأدب الشعبى ضرورة وجدانية لا غنى عنها ، لأن التحدث إلى عامة الشعب بلهجتها وأسلوبها ، هو مناط التأثير فيها والانفعال بها والتجاوب معها .

ولكن الأمر اضطرب فى غمرة الخلاف وفوضى التناقض ، فاختلطت الأصوات منذرة بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وتبودلت التهم فقيل إن الترخُّص فى استعمال العامية فى الأدب ، خيانة للوحدة العربية وكفر بلغة القرآن الكريم ، وقيل كذلك إن الإصرار على استعمال الفصحى وحدها فى الأدب ، عزلة وجدانية عن الشعب ، وتعطيل للتأثير فيه والتجاوب معه والاتصال به .

ومضى الحائرون يلتمسون عند كبار الأدباء مخرجاً ، فإذا الموقف يزداد اضطراباً وتناقضاً :

أستاذنا « الدكتور طه حسين » ، الذى علمناه من أشد أنصار أدب الفصحى ، قد أذن فى أن يصاغ حوار (الأيام) فى التليفزيون باللغة العامية .

و « الأستاذ محمود تيمور » الذى عرفناه قديماً يؤثر العامية فى قصصه الشعبية ، ثم رأيناه فى الجديد من أعماله الأدبية يدير الحوار على ألسنة العامة بلغة مجمعية معجمية . نقلت عنه إحدى الصحف : « أنه سيكتب مسرحية جديدة مرتين : مرة للناس بالعامية ، ومرة أخرى بالفصحى » .

ونسأل عن موقف الهيئات الرسمية ، فيلقانا من تناقضها العجب والعجاب :

فالدولة من ناحية ، قد اعترفت بالأدب الشعبى فى هذه المرحلة الجديدة من تاريخنا . وبلغ من عنايتها به ، أن استحدثت كرسيا للأدب الشعبى فى جامعة القاهرة ، اعترافاً منها بهذا الأدب وتقديراً لخطره .

وبين لجان المجلس الأعلى للفنون والآداب ، لجنة خاصة للفنون الشعبية ترعاها وتشجعها .

وفى وزارة الثقافة ، إدارة خاصة بالفنون الشعبية ، ومنها الأدب الشعبى ، يرأسها وكيل للوزارة متخصص فى هذا الأدب . وقد رصدت الوزارة مبالغ ضخمة فى ميزانيتها لتشجيع المسرح الشعبى وحماية التراث الفنى للشعب . وأعلنت عن مشروع ضخم لإخراج "أوبريت شعبية ، اسمها : مهر العروسة" عهدت الوزارة إلى الشاعر عبد الرحمن الخميسى فى تأليفها ، وإلى الأستاذ محمد عبد الوهاب فى تلحينها . وهى مكتوبة بالعامية المصرية . كما عهدت إلى الشاعر الشعبى « صلاح جاهين » فى صياغة أغان شعبية لقصة القاهرة ، فى عيدها الألفى . . . .

• • •

ولكننا — من ناحية أخرى — نرى لجنة النثر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، تحجُب جائزة الدولة التشجيعية للقصة ، عن بعض القصص الممتازة لعامية ٍ فى حوارها . .

بل سمعنا كذلك أن لجنة الفنون الشعبية فى المجلس ، رفضت ملحمة شعبية صاغها الشاعر الشعبى « حامد الأطمس » بالزجل العامى .

وما يدرينا ، لعل اللجنة الموقرة ترى — صوناً لهيبتها — أن تهذب تراثنا الشعبى من المواويل والأغانى والأزجال والأمثال ، فتعيد كتابته بالفصحى على نحو ما يفعل أديبنا المجمعى « الأستاذ محمود تيمور » !

فهل من سبيل إلى علاج هذا التناقض الذى يبدد القوى ويبعثر الجهود وتتعثر فيه خطواتنا بين شد وجذب ؟

إحدى اثنتين :

إن كانت العامية مرضاً ورجساً ، فإن أى ترخص فى استعمالها جريمة فى حق الوطن ، وأى اعتراف بأدبها الشعبى أو عناية بتراثنا منه ، خيانة وثغرة فى بناء النهضة ، ولنا أن نتصور عندئذ فداحة الإثم وشناعة المفارقة ، إذا سمعنا شيوخ الإسلام وزعماء الوطنية ، يتكلمون فى حياتهم اليومية بهذه العامية الملحونة !

أما إذا كانت الدولة قد اعترفت بالعامية فى أدبنا الشعبى الذى تشجعه وترعاه وتستنقذ تراثه من الضياع ، وهى تقدر أن هذه العامية أداة التأثير الوجدانى فى الشعب ، ووسيلة اتصال به ونفوذ إليه ، وطريق الفهم لمزاجه ، فقد وجب أن توضح الهيئات الثقافية المسئولة موقفها من الأدب الشعبى حتى لا يظن ظان أن عامية الحوار وصمة عار فى القصة ، وأن الملحمة الشعبية إذا صيغت زجلا ، لم تعد أهلا لرعاية « لجنة الفنون الشعبية ، فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب » !

وإلى أن ينجلى المرتقب ستظل حياتنا مجهدة بهذا الصراع الذى كان يعفينا منه تخطيط ينظم جهودنا الثقافية ويسير بها فى خطوات متناسقة متكاملة تساير وعينا وطموحنا . .

الفهـرست

الصفحة

الإهداء ٥
تمهيد ٧
مدخل تاريخى ١١
مدخل لغوى ٢٧

الباب الأول

العربية وقانون التطور

فى بيئتها الأولى فى العصر الجاهلى ٣٩
فى أقطارها الجديدة مع الفتوح الإسلامية ٥٣
العربية ولهجاتها الإقليمية فى الأقطار المتعربة ٨٣

الباب الثانى

لغتنا ومشكلاتها فى العصر الحاضر

العامية والفصحى ٩٣
اللغة العربية وعلوم العصر ١٢٧
المغرب العربى والغزو اللغوى ١٥٩
المعركة اللغوية على أرض البطولات ١٦٧
تعليم العربية ورأى فى أزمتنا اللغوية ١٨٧

حوار فى قضايا لغوية

هذه اللغة المشتركة ومعالم تطورها ٢٠١
مستقبل اللغة العربية المشتركة ٢٠٥
الأدب الشعبى بين العامية والفصحى ٢١١

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٤٨٩٨
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3350 - 1	ISBN

١ / ٩٠ / ١١٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)